





محاضرات التفسير

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية

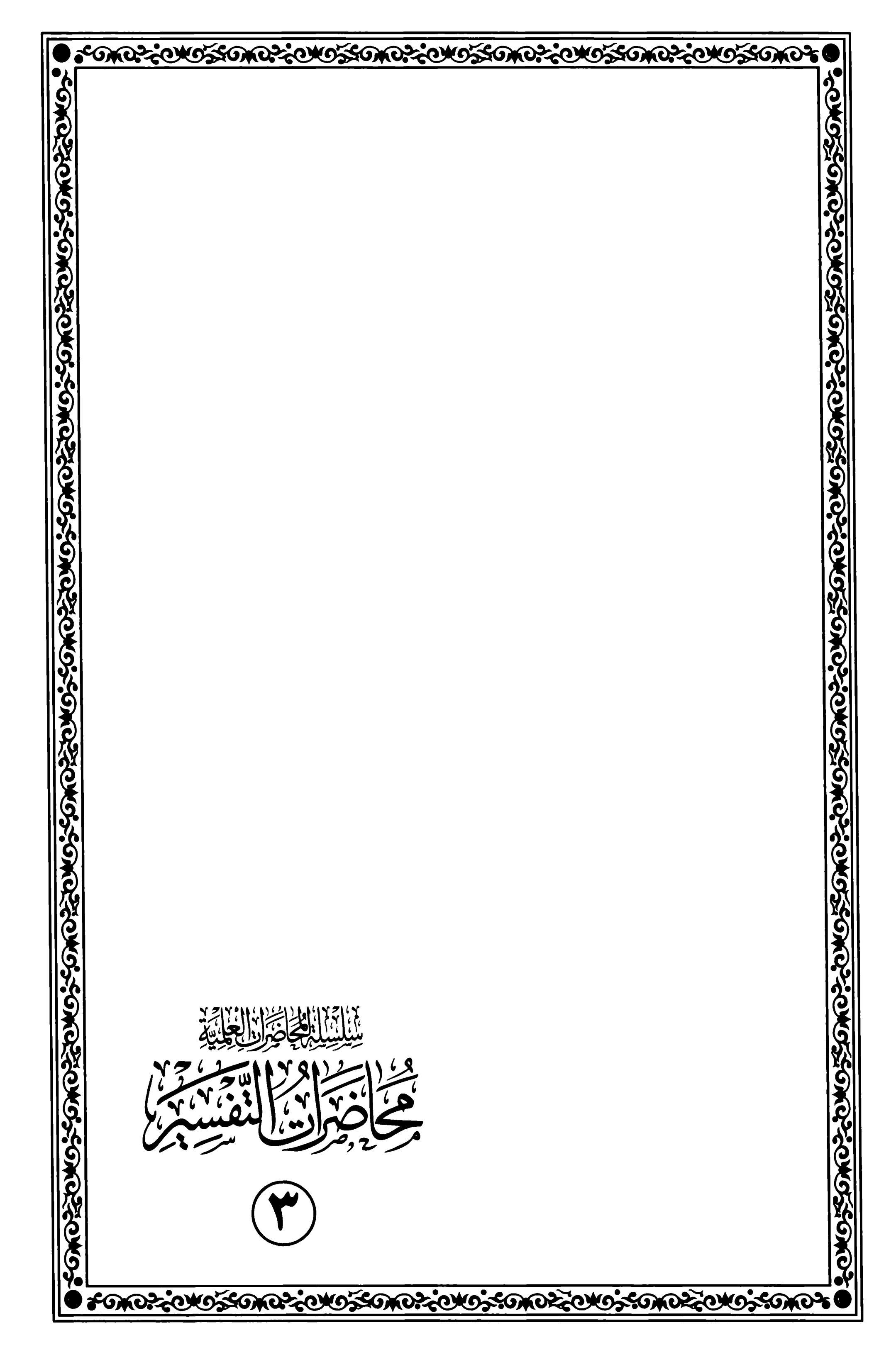
عادل بن محمد مرسي رفاعي

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثالث



مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع


سلسلة المحاضرات العلمية
محاضرات التفسير
٣

ح عادل محمد مرسي رفاعي ، ١٤٣٥ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
آل الشيخ ، صالح عبد العزيز محمد
سلسلة المحاضرات العلمية لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
صالح عبد العزيز آل الشيخ ؛ عادل محمد مرسي رفاعي :-
الرياض ، ١٤٣٥هـ
٧ مج.
ردمك : ٦-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٧-٤٩٢٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٣)
١ - الاسلام مقالات ومحاضرات ٢ - الاسلام - مجموعات ا. رفاعي
، عادل محمد مرسي (محقق) ب.العنوان
ديوي ٢٥٢,٥٠٨ ١٤٣٥/٣٧٥٨
رقم الإيداع : ١٤٣٥/٣٧٥٨
ردمك : ٦-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٧-٤٩٢٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٣)

طبعة عام ١٤٣٦ هـ

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - حي سلطانة شارع حنين - بجوار جامع شيخ الإسلام ابن تيمية
الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ ش المدرسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩
البريد الإلكتروني: d.alhijaz@gmail.com

سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١٧)

سلسلة المحاضرات العلمية

محاضرات التفسير

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية

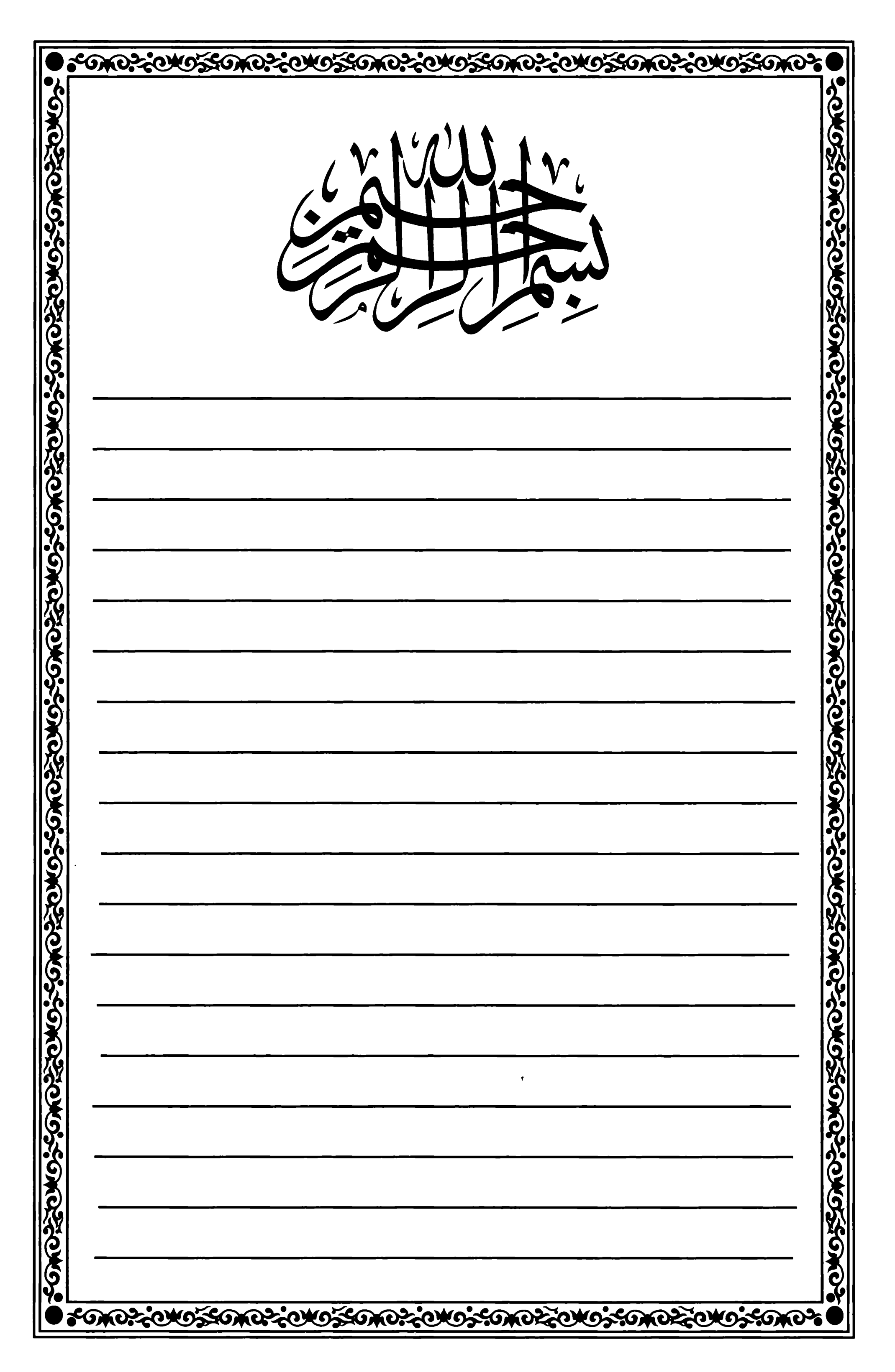
عادل بن محمد مرسي رفاعي

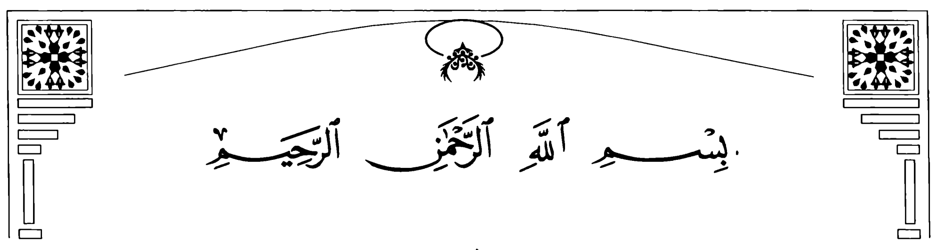
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثالث

مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



محاضرة أسئلة حول مناهج المفسرين

س١: عن المقصود بـ (مناهج المفسرين).

الجواب: مناهج المفسرين مكونة من كلمتين؛ والمناهج جمع منهج، ومنهج، ومنهاج، ونهج بمعنى واحد، وهو الطريق البيّن الواضح الذي يُسلك، قال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فالمنهاج هو السبيل الواضح، فسمي منهاجًا؛ لأنه طريق ملتزم يسلكونه، ولذلك قيل: منهج فلان كذا، أي: الطريقة التي يلازمها، فمنهج المفسر كذا أي: الطريقة التي التزمها، وللوصول لهذه الطريقة عن أحد طريقين:

الأول: أن ينص المفسر على منهجه، فيقول منهجي كذا؛ كالقرطبي، وتفسير أبي حيان، وهذا أعلى ما يكون؛ حيث قال القرطبي: هذا شرطي في الكتاب كذا.

الثاني: الاستقراء التام، وهو أحد الأدلة كما هو في أصول الفقه التي هي عشرون دليلًا.

س٢: كيف يستقرئ الباحث؟

الجواب: بأن يمسك آية آية، ثم يجمع النظائر، فيخرج بمنهج للمؤلف،

فأحيانًا يستقرئ، فيجد أنه ليس له منهج، ومن عيوب بعض الرسائل في المناهج أنه لم يكن الاستقراء تامًا.

س ٣: إذا كان الاستقراء ناقصًا، فهل يسمى منهجًا؟

الجواب: لا؛ لأن فيه اعتداء على المؤلف، فتقول: من خصائص تفسير فلان كذا، تميز بكذا، وهذا هو الذي يحسن احترامًا لأهل التفسير، فخصائص التفسير مختلف عن منهج التفسير.

فمناهج المفسرين: الطرق التي التزمها من تكلم في التفسير.

مميزات التفاسير: هي الملامح والمميزات العامة التي يتميز بها كلام المفسر.

نشأة علم التفسير

س ٤: متى بدأ التفسير؟ وكيف نشأ؟

الجواب: التفسير هو: تفسير القرآن، فلا شك أن يكون مبدأ ذلك بعد نزول القرآن، فالقرآن نزل، وأنزله الله بلسان عربي مبين، ومعناه أنه يفهم بهذا اللسان، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، والصحابة ﷺ أهل اللسان، فهم فهموا آي القرآن؛ لأنهم أهل اللسان، والقرآن نزل بهذا اللسان، ففي عهد الرسول ﷺ لم يسأل الصحابة الرسول ﷺ عن معنى الآيات، والقليل فسره، والكثير فهموه، والصحابة بعده فسروا بأكثر من تفسير؛ لأن الصحابة في عهده لم يحتاجوا احتياج التابعين، وتابعو التابعين احتاجوا أكثر، وهكذا مع مضي الزمان.

س ٥: ما وسائل فهم الصحابة رضي الله عنهم؟ أو ما مصادر الفهم لدى الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب:

١ - إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فبعضها يفسر بعضًا، فمن القرآن ما يفسر القراءة الأخرى، والقراءات هي بعض الأحرف السبعة، فالصحابة رضي الله عنهم إذا لم يفهموا حرفًا، نظروا إلى الحرف الآخر، ووجدوا تفسيره، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أي: ينقطع الدم، ويغتسلن، فلماذا فسر بالاغتسال؟ للقراءة الأخرى، وهي: (حتى يَطَّهَّرْنَ)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وفي القراءة الأخرى (فتثبَّتُوا)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقراءة (كالقطنِ المَنْفُوش).

٢ - ومن المصادر أيضًا: اللغة العربية كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

٣ - السنة العملية: لأن القرآن نزل، وهم يرون الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر القرآن بالعمل، ويدخل فيه أسباب النزول؛ كآيات الأسارى في بدر، تفهم من سبب النزول، فعلم كثير من الصحابة بالآيات؛ لأنهم حضروا التنزيل.

٤ - العلم بالأحوال: أحوال الناس، والعرب بعقائدهم؛ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]،

وكذلك الأمور الشركية، قال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] ومع ذلك وتعدد هذه المصادر، فهناك آيات لم يفهموا معناها، وهذا قليل، فسرها لهم الرسول ﷺ، ومن ذلك تفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ﴾ بأنهم اليهود والنصارى[(١)]، وفسر الظلم بالشرك في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، **شَقَّ ذلك على الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(٢)]، وتفسيره لقوله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقال: «**الزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ** ﷻ»[(٣)]، وفسر الكوثر بأنه نهر أعطاه إياه الله في الجنة[(٤)]، وفسر القوة بالرمي في قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠][(٥)].

بعد زمن النبي ﷺ احتاج الناس إلى الصحابة، واحتاج الصحابة إلى بعضهم، ففي خلافة أبي بكر رضي الله عنه فسر بعض الآيات، وصحح الفهم لبعض

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٨١)، والطيالسي (٢/ ٣٧١). ولفظه: «**الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودُ، وَالضَّالُّونَ: النَّصَارَى**».

(٢) أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم (١/ ٢٠٦)، وابن جرير (١١/ ١٠٥)، واللالكائي (٣/ ٤٥٦)، وابن راهويه (٣/ ٧٩٣)، وعبد الله بن أحمد (١/ ٢٥٧)، والدارقطني في العلل (١/ ٢٨٢)، والبيهقي في الاعتقاد (١/ ١٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٤٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال حسن غريب، وأخرجه أيضًا النسائي في الكبرى (١١٧٠٣).

(٥) أخرجه مسلم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الآيات التي وضعوها في غير موضعها، ومنه: تصحيح قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، سمعت الرسول يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ لا يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ**»[1]، وتفسير قوله ﷻ: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١]، أنه قال: «**أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لا أَعْلَمُ**؟!»[2] وكذلك عمر رضي الله عنه فسر في عهده، ولها شواهد كثيرة منها: أنه فسر لابن عباس رضي الله عنهما قوله ﷻ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٤]، وبين المراد بالمرأتين[3]، ولما جمع الأشياخ سألهم عن قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فسألهم، وكان فيهم ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: «**أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ عمرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ**»[4]، وربما سأل عمر بعض الصحابة عن بعض الآيات التي لم يظهر له معناها، ومنها: أنه خطب ذات مرة ولم يسجد في أثنائها عند قوله ﷻ: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ [النحل: ٤٧]، قال للناس: ما التخوف؟ فقال رجل من

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والترمذي (٣٠٥٧،٢١٦٨)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٥٤٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ٩١)، وابن أبى شيبة (٧/ ٥٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي(٢٩٥١، ٢٩٥٠)، وقال هذا حديث حسن صحيح والنسائي في الكبرى (٥/ ٣١)، وفي فضائل القرآن (ص١٣٥)، وأحمد (١/ ٢٣٣، ٢٦٩)، والرافعي في أخبار قزوين (١/ ٢٠١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٨٨)، وابن كثير (٤/ ٤٩٥)، والبخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٢٧، ٤٢٩٤، ٤٤٣٠، ٤٩٦٩، ٤٩٧٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

الناس: التخوف في لغتنا التنقص، كما قال الشاعر[١]:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر: عليكم بديوانكم، فإن فيه تفسير كتابكم.

كذلك في عهد عثمان رضي الله عنه فسر للناس، وكذلك ابن عباس رضي الله عنهما، وأُبيّ، وعائشة رضي الله عنهما، ولذلك لمّا تفرق الصحابة رضي الله عنهم في البلاد كانوا ينقلونه لمن حولهم، ففسر أبي في المدينة، وعائشة في مكة، وابن عباس في مكة، وابن مسعود في مكة رضي الله عنهم، ونشأ في كل مدينة تفسير.

فكان ابن عباس رضي الله عنهما يفسر القرآن في صحن الكعبة، حتى قام له رجلان، منهما: نافع بن الأزرق[٢]، فقال لصاحبه: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على كتاب الله، فنسأله عن مصادق ما يقول العرب، فقال: يا ابن عباس إنّا سائلوك عن أسئلة في القرآن، فقالوا: ما معنى الوسيلة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؟

فقال: الوسيلة: الحاجة.

فقالوا: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، ألم تسمعوا قول الشاعر[٣]:

إن الرجالَ لهم إليكِ وسيلةٌ ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

---

(١) أخرجه تفسير الطبري (١٤/ ١١٣)، وانظر: القرطبي (١٠/ ١١٠).
(٢) أخرجه الطبراني (١٠/ ٢٤٨).
(٣) انظر: الأغاني (١٢/ ١٨٢)، وثمار القلوب (١/ ٢٦٥).

فقالوا: أخبرنا عن العزين في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾ [المعارج: ٣٧]، ما العزون؟

قال: العزون: الجماعات في تفرقة.

قالوا: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، ألم تسمعوا قول الشاعر(١):

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا

فالشاهد أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يفسر في صحن الكعبة، وكان له تلاميذ، منهم: مجاهد، وعكرمة، وطاووس، وعطاء.

نشأت في التابعين مدارس منقولة عن الصحابة رضي الله عنهم، ثم أتباع التابعين نقلوا لمن بعدهم، فزاد من يهتم به؛ حتى تكون في أتباع التابعين مدرسة ناشئة عن اختلاط المدارس في أتباع التابعين، ولذلك نجد أسانيد الحديث تبدأ مكية، ثم تجد منها مدنيًا، ثم كوفيًا . . . إلى آخره، وهذا ناشئ عن تعدد الأسفار، وتنقل التابعين.

بمعنى آخر في زمن أتباع التابعين كانت سمة التفسير مجموع خصائص تفسير ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما، ثم بدأ في هذه المرحلة التفسير بالمأثور، فتجد في الموطأ، وفي مصنف عبد الرزاق تفسير القرآن.

ففي القرن الثاني ظهرت كتب في التفسير، ثم بدأت المذاهب والآراء تنتشر في العالم الإسلامي الشام، والعراق، ومكة، والمدينة، فظهرت

---

(١) انظر: معجم لغة الفقهاء (١/ ٢٥)، والدر المنثور (٨/ ٢٨٥)، وروح المعاني (٢٩/ ٦٤) والإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٤٨).

مذاهب الإرجاء، والقدرية، والمذاهب الفقهية، فالشافعي له تلاميذ، وكذلك أبو حنيفة وغيره. أيضًا القراءات بدأت تظهر، في مكة قارئ مشهور وفي المدينة كذلك.

وفي القرن الثالث ظهر الصراع اللغوي بين مدرستين: مدرسة الكوفة، والبصرة؛ فظهور المدارس له أثر في تفسير القرآن، فأهل العقائد إذا احتجوا، يحتجون بالقرآن، والفهم يسبق الاحتجاج، فجاءت العقائد قبل العقيدة، وأيضًا مسائل النحو، فأهل الكوفة يحتجون بقواعده بالقرآن، وهو يفسر، ثم يعرب، فصار سبب الاختلاف الاختلاف في فهم القرآن وفي التفسير، وكذلك صاروا يحتجون بالقرآن وما فيه من قراءات لتأييد مذاهبهم النحوية، فنشأ عندنا إعراب القرآن، فظهر (إعراب القرآن للفراء).

فإذًا: أصبح لدينا في القرن الثاني أمواج من العلوم كان لها أثر في تفسير القرآن، فصار لدينا خليط متنوع في تفسير القرآن: بالرأي، الإعرابية، الفقهية، النحوية، العقدية، القرن الثالث قوي التصنيف في التفسير بالمأثور كتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير ابن جرير، وتفسير ابن مردويه، وتفسير أحمد وغيرها، وهي تنقل تفسير الرسول ﷺ، والصحابة، والتابعين، وأيضًا ظهرت مصنفات في معاني القرآن، ومنها: (معاني القرآن) للأخفش، و(مجاز القرآن) للمثنى، و(أحكام القرآن) للشافعي، وكذلك ظهرت التفسيرات المبتدعة.

وفي القرن الرابع الهجري صنف ابن جرير كتابه (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، ويعد هذا التفسير أعظم التفاسير المؤلفة، وهو إمام المفسرين؛ لأن آلات العلم كانت عنده، فنجد: الفقه، العقائد، التاريخ، الأصول،

القراءات، النحو، وكان مجتهدًا غير مقلد، ولذلك كان له أصحاب يقال لهم: (الجريرية)، ولذلك صنف تفسيره، وجعله جامعًا لما قبله بما صنف، وهذه نقطة مهمة.

س ٦: كيف انتشرت كتب التفسير؟

الجواب: ذكرنا أن ابن جرير لمّا ألّف تفسيره على هذا النحو، وضم فيه كثيرًا من العلوم أثر في العلماء الذين جاءوا بعده، فحاولوا أن يفصلوا، ويستقلوا بتأليف كتب فيما ذكره في كتابه.

السبب في ظهور المدارس ظهور التعقيب للمدارس المختلفة، فبعد القرن الثالث ظهر الحماس للمدارس المختلفة في الأفكار، والمذاهب، فمثلًا: في المدارس الفقهية ظهر التعصب للمدارس الفقهية، فالحنفية تعصبوا لآرائهم، والتعصب يسبقه مرحلتان: الانتماء، ثم التحمس، ثم التعصب له، فظهر في القرن الرابع الهجري في المدارس الفقهية، وهذا أثرٌ صار في كتابات تفسيرية مختلفة، فظهر للحنفية (أحكام القرآن) للجصاص، وللمالكية (أحكام القرآن) للقرطبي، وابن العربي، والشافعية (أحكام القرآن) للشافعي، والحنابلة ظهر لهم (أحكام القرآن) للحنبلي.

هناك نوع آخر، وهو التعصب للمدارس النحوية، فكانت هناك مدرستان: الكوفة، والبصرة، ثم بعد ذلك في القرن الرابع ظهرت مدرسة بغداد في النحو، والمدرسة الأندلسية، هذه المدارس أثَّرت في ظهور كتابات في القرآن عن طريق إعراب القرآن مستقلة، أو تفسيرية مبنية على الإعراب الذي يوضح المعنى، وإعراب القرآن مضمنًا بالتفسير؛ لأنه يوضح القرآن مثل: (إعراب القرآن) للنحاس، و(إعراب القرآن) للعكبري.

ظهرت الآراء والمذاهب المختلفة العقدية، فظهرت المعتزلة، وظهرت لهم تفاسير مثل: (الكشاف) للزمخشري، أيضًا ظهرت الأشعرية، وقوي مذهبها، وألّفوا في التفسير مثل: (مفاتيح الغيب) للرازي، وتفسير أبي السعود، وأيضًا الماتريدية ظهرت لهم تفاسير، فظهر: (تفسير النسفي)، و(تفسير الآلوسي)، و(تفسير أبي السعود) في بعض الأشياء، والرافضة ظهرت لهم تفاسير مثل: (تفسير الطوسي)، و(الطبرسي)، والصوفية ظهرت لهم تفاسير، منهم الغلاة، ومنهم غير الغلاة، وكل طائفة لها تفاسير مثل: (تفسير القشيري)، و(التفسير الصوفي) للقونوي. فالمدارس المختلفة ظهر من يتعصب لها، والقرآن وسيلة التأثير في اتباع أي مذهب، فالتعصب أدى لكثرة التفاسير.

هناك سبب آخر، وهو سبب نفسي، وهو أن من فسر القرآن أراد بتفسيره القرب إلى الله، ولا شك أنه من أعظم القرب إلى الله ﷻ، ولذلك تنافس فيه العلماء، ولهذا أكثر ما أُلف في التفسير، ولذلك نص كثير أنهم أرادوا بتفسيرهم القربة إلى الله، ولكن هل إرادة القربة وافية في أن تكون التفاسير على طريقة واحدة؟ نقول: لا؛ لأن من يكتب التفسير سيكتب من أشياخه، وما قرأه من الكتب، فصار عند هؤلاء خليط من الآراء والأقوال المختلفة، فمصادر التفسير عنده مختلفة، لم يرد نصرة شيء معين، ولذلك تجد تفاسير هؤلاء ليست مركزة في شيء معين، مثل: تفسير (حدائق ذات بهجة) الذي يذكر أنه في أحد خزائن الكتب في ألمانيا، يبلغ مائة مجلد، فنجد في تفسيرهم آراء أثرية، وبديهية مثاله: (تفسير الماوردي) الذي أورد كثيرًا مما يعتقده من الاعتزاليات، وأورد أقوال السلف، ابن كثير ضمَّن تفسيره علمه،

ولذلك أصبح بديعًا، فلو درست منهج هذه المدرسة، فمن الصعب دراسته؛ لأنه جَمع فيه كل ما في جعبته حول الآيات، وهذا سبب في إظهار عدد من التفاسير.

طبقة الصحابة نقل عنهم التفسير، فمنهم المقل، ومنهم المكثر فيه، وأكثر من نقل عنهم: عليّ، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبيّ، وعائشة، وغيرهم نقل عنه، ولكنه قليل بالنسبة لهؤلاء؛ كأبي بكر، وعمر رضي الله عنهم.

ولا شك أن الصحابة أولى الناس بفهم القرآن وتفسيره، ولذلك كان من الواجب النظر في تفسير الصحابة رضي الله عنهم، وتبيين خصائصها ومميزاتها وما إلى ذلك.

س ٧: مامميزات وخصائص التفسير المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم؟

الجواب: تفاسير الصحابة رضي الله عنهم تميزت بقلة الألفاظ وكثرة المعاني، ومعنى ذلك أنه يفسر الآية بكلمتين أو ثلاث، تكون ألفاظها قليلة، ولكن معانيها كثيرة تناسب الآية، ولهذا يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتاب (فضل علم السلف على الخلف): كلام السلف قليل كثير المعنى، وكلام الخلف كثير قليل المعنى[(١)]. ولذلك يقول شيخ الإسلام: أصح التفاسير تفاسير الصحابة رضي الله عنهم لإيجازها[(٢)].

مثال تفسير الصحابة رضي الله عنهم: قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢] تُدخل فسروها بأنها بمعنى: تخلِّد،

(١) انظر: فضل علم السلف على الخلف (ص ٦٠ - ٦١).

(٢) انظر: مقدمة التفسير ضمن مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٦٣).

ولذلك يقول قتادة: أن تدخل مقلوب تخلّد، وقد استدل بها المبتدعة على أنها دليل على نفي الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأن الشفيع نصير.

٢ - أن تفاسيرهم سلمت من البدعة ومن مخالفة السنة، فهم قدوة الأمة في التوحيد والعقيدة، فإذا اعتمد المسلم عليها، فهي تحوي صوابًا بحتًا.

٣ - تفاسيرهم يكثر فيها اختلاف التنوع، ويقل فيها اختلاف التضاد، فاختلاف التنوع أن تتنوع العبارة، ولكن تدخل في الكلام المفسر كقوله سبحانه وتعالى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١]، فسرت الحسنة بأنها: الإمارة، الإمامة، العز في الأرض، بأنها الزوجات؛ فاختلفوا فيها، ولكن الكل مراد[١]، وكذلك من جهة المشترك الذي يقصد به معنيان فأكثر: ﴿عَسْعَسَ﴾ قيل بمعنى: أقبل، وقيل بمعنى: أدبر[٢]، فهل هذا الاختلاف يعني تضادًا؟

نقول: لا بل اختلاف في تنوع؛ لأن ﴿عَسْعَسَ﴾ لها معانٍ مشتركة، كذلك لفظ القروء تطلق على: الطهر، وتطلق على: الحيض، ففسرها الحديث بالحيضات، والشافعي فسرها بالطهر بالرجوع لأصل اللغة[٣]؛ فالمقصود أن كلمات الصحابة يقل فيها اختلاف التضاد؛ لفائدة منها معرفة أن الصحابة فسروا الآية ببعض ما تشتمل عليه، ففسروا العام بأفراده للحاجة إليه.

٤ - أنهم أهل اللغة، الذين كملت لهم أدوات الاجتهاد في التفسير

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٢٣)، وزاد المسير (٢/ ٥٦٠)، وابن كثير (٤/ ٤٩١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٥٩)، وزاد المسير (٤/ ٤٠٨)، وابن كثير (٨/ ٢٣٧).

(٣) انظر: تفسير الشافعي (١/ ٢٥٠)، والطبري (٤/ ٨٧)، وزاد المسير (١/ ١٩٨)، وابن كثير (١/ ٦٠٧).

وغيره، فإذا فسر الصحابي آية، فإما أن يكون سمع تفسيرها من الرسول ﷺ، أو يكون اجتهد في تفسيرها، أو نقلها عن صحابي اجتهد في تفسيرها، والمنقول مقبول، وإن اجتهدوا فيه، فاجتهادهم كمل فيه أدوات الاجتهاد، فهم أهل اللسان، فأدوات الاجتهاد: معرفة أسباب النزول، ومعرفة اللغة ... إلى آخره، ولا شك أن الصحابي حين يفسر لا بد له من مراجع.

س ٨: ما مصادر التفسير عند الصحابة ﵃؟

الجواب: مصادر التفسير عند الصحابة ﵃:

١ - القرآن: فإنهم فهموا القرآن بالقرآن، ويعنى به: المنزل من عند الله، المشتمل على الأحرف السبعة، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، فالله جعل القرآن متشابهًا، أي: يشبه بعضه بعضًا، ففي مواضع أجمل بعض الأخبار، وفي بعضها فصَّل.

٢ - السنة: ونعني بها ما يشمل السنة القولية والعملية، فقد يكونون سمعوا من الرسول ﷺ تفسيرًا مثل: قوله ﷻ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: اليهود والنصارى[1]، وقد يكون مما شاهدوه من الرسول ﷺ مثل: قوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فقد حصل بالقول وبالعمل.

٣ - العلم بأسباب النزول: فشاهدوا النزول، والعلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، وهذا يأتي في تفسير ابن مسعود ﵁ الذي سيأتي.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٨).

٤ - اللغة: فهم أهل اللسان، ونعني بلسان العرب ما يشمل المفردات، والنحو، والاشتقاق، والمعاني، والبلاغة، وما يشمل أصول الفقه، لأن مباحث أصول الفقه هي لغوية؛ كالمطلق والمقيد، والعام والخاص، فيفسر ويرجع في تفسيره إلى اللغة.

٥ - العلم بأحوال العرب، واليهود، والنصارى، والناس، ولا شك أن القرآن نزل وفيه أحوال الناس المعادين للرسل وغير المعادين؛ فمن علم أحوال الناس كان تفسيره أصوليًا.

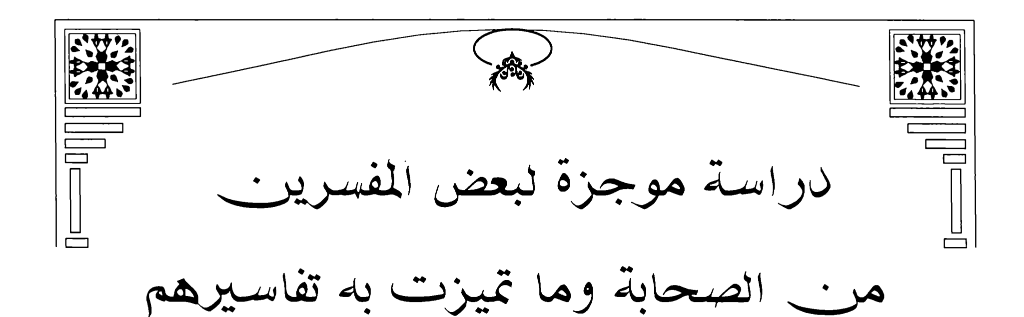
٦ - الأخذ عن أهل الكتاب في الإسرائيليات.

س ٩: لماذا أخذوا عن أهل الكتاب؟

الجواب: لأن الرسول ﷺ قال: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولا حَرَجَ**»[1] فكونه أذن بالتحديث، فالسماع من باب أولى، فنجدهم حدثوا عن أشياء قبل البعثة، فأخذوا ذلك عن أهل الكتاب.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



دراسة موجزة لبعض المفسرين من الصحابة وما تميزت به تفاسيرهم

اشتهر بالتفسير مجموعة من الصحابة رضي الله عنهم ومنهم: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

١ - تفسير عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وهو من الذين أسلموا قديمًا، فهو من السابقين للإسلام، وممن سمع القرآن أول ما أنزل، وهو القائل: **«لَوْ أَعْلَمُ آية من القرآن عند أحد يعلم عنها ما لم أعلم تبلغه المطي لرحلت إليه»**(١)، وهو أول من جهر بالقرآن بين ظهراني المشركين، قال عنه الرسول ﷺ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»**(٢)، وقال عنه: **«رَضِيتُ لأُمَّتِي بِمَا رَضِيَ لَهَا ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ»**(٣)، فقد أثنى عليه الرسول ﷺ، وحث على الأخذ منه، فهو بحر علم، وقضاء، وفتيا، فهو من المشهورين بالتفسير، وكان له تلاميذ، وتكونت مدرسة بالكوفة تتلمذ لابن مسعود فيها.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٣٥)، ومقدمة ابن كثير (١/ ٥٤)، والدر المنثور (٦/ ٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٧)، والبزار (١/ ٦٦)، والطبراني (٩/ ٦٧)، وأبو يعلى (١/ ٢٦)، وابن حبان (١٥/ ٥٤٢) من حديث أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٤)، والطبراني(٩/ ٨٠)، والحاكم (٣/ ٣٥٩).

ترجمة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه

هو عبد الله بن مسعود الهذلي، من قبيلة هذيل، التي تسكن قرب الطائف والتي تميزت بلغتها الفصيحة، توفي والده وهو صغير، وأمه هذلية، ووالده كان في حلف مع بعض القرشيين، وأخوال أم عبد الله من قريش، فلمّا توفي زوجها، أخذته إلى مكة وهو صغير، وكان خيرًا لابن مسعود رضي الله عنه، فأخذ بقوام العيش، وعمل برعي الغنم لبعض القرشيين، وهو: عقبة بن أبي معيط وكان وصفه: قصير القامة، دقيق الساقين، وفي ساقيه حموشة - يعني: خشونة - ولذلك كان يغطي ساقيه باللباس، وربما طال لباسه، وأتى رجل إلى عمر رضي الله عنه، وعنده ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: يا ابن مسعود ارفع إزارك، فبلغ عمر رضي الله عنه، فأدبه، وقال: أترد على ابن مسعود؟، ومرة كان في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فصعد شجرة، فظهرت دقة ساقيه بسبب الريح، فضحك بعض الصحابة رضي الله عنهم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَضْحَكُونَ لَرِجْلُ عبد اللَّهِ أَثْقَلُ في الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أُحُدٍ»**[1]، لونه يميل إلى السمرة، وكان سبب إسلامه - كما قَالَ -: كُنْتُ غُلاَمًا يَافِعًا أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِى مُعَيْطٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بَكْرٍ، وَقَدْ فَرَّا مِنَ الْمُشْرِكِينِ، فَقَالاَ: يَا غُلاَمُ، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ لَبَنٍ تَسْقِينَا. قُلْتُ: إني مُؤْتَمَنٌ، وَلَسْتُ سَاقِيَكُمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: **«هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ، لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ»**. قُلْتُ: نَعَمْ. فَأَتَيْتُهُمَا بِهَا، فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، وَمَسَحَ الضَّرْعَ، وَدَعَا فَحَفَلَ الضَّرْعُ، ثُمَّ أَتَاهُ أبو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٤)، وأبو يعلى (١/ ٤٠٩)، والطبراني (٩/ ٩٥). قال الهيثمي (٩/ ٢٨٨): رجالهم رجال الصحيح غير أم موسى وهي ثقة. والضياء (٢/ ٤٢١) وقال: إسناده حسن.

فَاحْتَلَبَ فِيهَا، فَشَرِبَ، وَشَرِبَ أبو بَكْرٍ، ثُمَّ شَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: «**اقْلِصْ**» فَقَلَصَ، فَأَتَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ. قَالَ: «**إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ**»[١]، فكان بداية لإسلامه، كان سادس ستة، وقيل: هو العاشر المهم أنه من السابقين الأولين إلى الإسلام، ولمّا اشتد أذى المشركين على المسلمين، استأذن بالهجرة إلى الحبشة، وكان أول من هاجر، وقصته أنه شاع أن المشركين أسلموا، فعادت طائفة إلى مكة، فلما علموا، هاجروا الهجرة الثانية إلى المدينة، ولمّا علم بخروج وذهاب الرسول إلى المدينة، قدم إليها قبل بدر، فلما أتى الرسول ﷺ وهو يصلي، فرد عليه بالإشارة، فلما قضى الصلاة قال: «**إن الله يحدث في أمره ما شاء وقد حرم الكلام في الصلاة**»[٢].

شهد مع الرسول ﷺ الوقائع كلها، وأثنى عليه الرسول كثيرًا، ومنه قوله: «**تَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابنْ مَسْعُودٍ**»[٣]، كان له في الصحابة المقام العظيم، فهو صاحب النعلين والوسادة[٤]، فهذا يبين شدة قربه من الرسول ﷺ، فهو حري أن يعلم القرآن والسنة، وكل ما يحتاجه المفسر، وبعد وفاة الرسول ﷺ أرسله عمر رضي الله عنه إلى الكوفة معلمًا وهاديًا، فبقي فيهم، وأنشأ هناك مدرسة أهل الكوفة التي تمثل رأيه في الفقه والتفسير، وعاش بها حتى قبل وفاته، ثم هاجر إلى المدينة في قصة مع عثمان رضي الله عنه، وتوفي هناك.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٢)، وأبو يعلى (٨/ ٤٠٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٢١٧)، ومسلم (٥٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٠٥)، والحاكم (٤٤٥٦).

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٧٤٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

مصادر التفسير عند ابن مسعود رضي الله عنه

يشارك الصحابة فيما سبق، ولكن تميز بشيء فاق به غيره، وهو: عنايته بأسباب النزول، وقد ثبت قوله: «**ما من آية نزلت إلاّ وأنا أعلم أين نزلت، ومتى نزلت، وفيما نزلت**»[١]، أمثلة لذلك: تفسير للقرآن بالقرآن، مثاله:

عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، قال ابن مسعود: هي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]، كذلك تفسيره في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٣]، فسرها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]، ففسرها بالمسلمين والمشركين في سورة الأنفال، كذلك تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٣-٤٤] ما هو القول اللين؟ فسره بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩)﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩].

أما تفسيره القرآن بالسنة:

فقد نقل عنه تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فسرها بالعصر، وفسر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]: أن المرأة لا تخرج فيستشرفها الشيطان.

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٩).

أسباب النزول:

حيث يقول ووالله الذي لا إله غيره. . . إلى آخره سبق.

أمثلة: قوله ﷻ في قصة صاحبي نجران: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦١]، قال أحدهما لصاحبه: والله لئن كان نبيًا حقًا، فلا نفلح نحن ولا عقبنا، فقد أرجعها ابن مسعود إلى ما حصل من وفد نجران، وكذلك لمّا أخر الرسول ﷺ مرة صلاة العشاء، وانتظره الناس، فقال الرسول ﷺ: «**أما إنه ليس من أهل هذه الأديان من يذكر الله هذه الساعة غيركم**»، فنزل قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥][(١)].

الاجتهاد والأخذ عن الإسرائيليات: يراجع تفسير ابن مسعود رضي الله عنه، تحقيق محمد أحمد العيسوي.

طرق التفسير عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

فالتي نقل بها التفسير كثير، أبلغها إلى **٦٢٠** طريقًا، والمهم ما كثر دورانه في التفسير، وهاهي الطرق:

١ - طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن ابن مسروق، عن ابن مسعود وقد اعتمد عليها البخاري، والأعمش سليمان بن مهران الإمام الثقة، ولكنه مدلس.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٤)، والنسائي (١١٠٧٣)، وأبو يعلى (٥٣٠٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٢٦).

٢ - الأعمش عن أبي وائل، عن ابن مسعود، وقد اعتمدها البخاري.

٣ - مجاهد عن أبي معمر، عن ابن مسعود، ومجاهد بن جبر صاحب ابن مسعود، ذكرها البخاري في صحيحه، وكلها مشهورة عن ابن مسعود.

٤ - كثرت في التفسير عن ابن جرير، وابن كثير: طريق السدي الكبير إسماعيل بن عبد الرحمن، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود.

- السدي جمع تفسير ابن مسعود وابن عباس، وأدخل كل تفسير في الآخر.

- أحيانًا يروي ابن جرير الرواية بالتفصيل، وتكون طريق ابن مسعود بينه، وإسماعيل هذا صاحب كتاب، ويروي عنه أسباط بن نصر، وهو ليس بقوي في الحديث، ولكن روايته للتفسير كتابة؛ فهذه الرواية وإن كان فيها من هو صدوق، فهي مروية كتابة، فهي صحيحة.

س ١٠: ما فائدة تعدد الروايات؟

الجواب: إذا حصل تضارب في الروايات، فإنها ترجح القوية على الضعيفة.

تفسير عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما

ترجمة ابن عباس رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن العباس، والعباس عم النبي ﷺ، وأسلم قديمًا أي: العباس في مكة، ولما صار حصار المسلمين في شعب أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة، أتى النبي ﷺ، فقال: إن أم الفضل استملت على ولد،

فقال: «**لعل الله أن يبارك لكما فيه**»، وولد ابن عباس رضي الله عنهما في تلك السنة، وكان عند وفاة النبي ﷺ قريبًا من ثلاثة عشر عامًا أو أربعة عشر؛ جاء في حجة الوداع أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَى حِمَارٍ أَتَانٍ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الاِحْتِلاَمَ**»[١] الحديث، يعني: أن ميلاده في الشعب صحيح، فيكون عمره عند وفاة النبي ﷺ أربع عشرة سنة، ولما صارت بدر كان ممن حضر، ومن المعلوم أنه لم يرد المشركون الحرب تلك السنة، وكذلك المسلمون، وكذلك كان العباس رضي الله عنه معهم، فأمر الرسول ﷺ بالكف عنه، وعدم التعرض له، ولما كان فتح مكة هاجر العباس رضي الله عنه، ومعه ابنه وأهله إلى المدينة، وكان عمر ابن عباس رضي الله عنهما: إحدى عشرة سنة، وكان له قرابة أخرى أن ميمونة رضي الله عنها خالة له، وهذا هيأ له أن يكون في بيت النبوة، يبيت عنده، ومن ذلك أنه بات مرة عند ميمونة رضي الله عنها، وقام النبي ﷺ من الليل يريد التوضؤ، فقام، وقرب له الوضوء، فدعا له النبي ﷺ، فقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ**»[٢]، أو: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ**»[٣]، وأمّا لفظه: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[٤] ذكرها البغوي فقط، والحميدي، وليست في الصحيحين ولا الكتب الستة.

صحب النبي ﷺ، وكان قريب الصلة منه، ولمّا توفي النبي كان ملازمًا للصحابة رضي الله عنهم قريبًا منهم، قال في ذلك: « . . **كان لي صاحب من الأنصار**،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦، ٤٩٣، ٨٦١، ١٨٥٧، ٤٤١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥، ٧٢٧٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣١٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٠)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٣).

فقلت له هيا نطلب العلم من أحد الصحابة، فقال: أتظن الناس بحاجة إلى العلم، فعكف على العلم»، وكان كثير الصلة بعمر رضي الله عنه، وكان معجبًا به لما آتاه الله من فطنة وفهم، وكان يأنس به، ذكر أنه لم يُمكن من سؤال عمر رضي الله عنه عن المرأتين اللتين تظاهرتا، حتى وجد فرصة في منصرف عمر رضي الله عنه من الحج، قال: فسألته، فقال: هما: حفصة وعائشة رضي الله عنهما[(١)].

وكان عمر يحضره في مجالس أشياخ بدر، فكان الصحابة يعتبون عليه، ومن ذلك سألهم مرة عن تفسير سورة النصر، فلم يدركوا معناه، فسأل ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: هو أجل رسول الله ﷺ نعاه الله، فقال عمر: لا أعلم إلاّ ما علمت، أراد بذلك نعته رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه - وهو على علم - قال عن ابن عباس رضي الله عنهما: **«نِعْمَ تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ»**[(٢)].

قال العلماء: كيف بما حصله ابن عباس بعد وفاة ابن مسعود رضي الله عنهما فلا شك أنه يدل على أن ذلك من صحبته للصحابة رضي الله عنهم، وقد صحب عليًا رضي الله عنه، وكان معه في جهاده وقت الخلافة، وكان أميرًا له على البصرة، وكان في خلافته يغشى الناس ويعلمهم، ويفقههم في شتى العلوم، صار بينهم خلاف فاستأذن ابن عباس رضي الله عنهما ألّا يبقى في البصرة، وأن يذهب إلى مكة فأذن له، فانتقل إليها، ففي مكة انتشر علمه، وكان عمره أربعين سنة، كانت سن النضوج، ومما ذكر أنه كان يغص سوقه إلى بيته بالناس، فكان يرتب الناس،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٨٨)، وابن كثير (٤/ ٤٩٥)، والبخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١١١)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦١٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ويقول لغلامه: ائذن لمن يسأل عن التفسير، فاستأذن لهم فأذن لهم، ثم من أراد أن يسأل عن الفقه، ثم التاريخ، ثم أشعار العرب.. وهكذا، وهذا يدل على أنه وعاء للعلم، فهم يرتوون من علمه، وهذا يؤهله لأن يكون إمامًا، بل ترجمانًا للقرآن، مفسرًا للقرآن، مكث في مكة ينشر العلم، حتى حصلت الفتنة بين ابن الزبير والأمويين، ثم تركها واتجه إلى الطائف، وتوفي بها سنة ثمان وستين من الهجرة، عمي في آخر عمره، وقبره هناك، ولما كثرت البدع، وزين الشرك للناس، جعلوا القبر في المسجد، ولمّا أتت الدولة السعودية، فُصل بينهما كما هو حاصل الآن.

أسباب نبوغه رضي الله عنه في التفسير

١- دعاء النبي ﷺ له، فقد دعا له عدة مرات فقال: «**اللهم فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[(١)]، «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ**»[(٢)]، «**اللهم عَلِّمْهُ الْكِتَابَ**».

٢- كثرة تلمذته للصحابة رضي الله عنهم، فقد أخذ منهم، واستفاد من علومهم.

٣- سعة ابن عباس رضي الله عنهما في علمه بالسُّنة، فإن ابن عباس رضي الله عنهما روى أكثر من ألف حديث، ومن المعروف أنه ما روى بالسماع إلاّ أربعة أحاديث، وأوصلها ابن حجر إلى اثني عشر حديثًا، ومعنى ذلك أن يكون أكثر ما رواه من الأحاديث عن الصحابة، ومراسيل الصحابة مقبولة؛ فنبوغه في التفسير بهاتين المسألتين. فأخذ من الصحابة رضي الله عنهم.

٤- سعة علومه بلغة العرب، فهيأت له الاجتهاد، وقوة الاستنباط فيه.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٥٦).

من الأخبار المعروفة أن ابن عباس رضي الله عنهما ترك مكة هروبًا من الفتنة، ومن المشهور أنه ترك مكة من أجل مضاعفة السيئات، وهذا التعليل، والمسألة مختلف فيها؛ لأن أهل العلم منهم من يقول: السيئة تضاعف، ومنهم من يقول: لا تضاعف، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فهذه آية مكية في سورة مكية، ولذلك قال ابن القيم: أن السيئة لا تضاعف، فالعقوبة تختلف، لكن السيئة واحدة. فالذي يضاعف العقوبة[١].

مصادر التفسير عند ابن عباس رضي الله عنهما

مصادر التفسير عند ابن عباس رضي الله عنهما هي مصادر التفسير عند الصحابة:

١ - تفسير القرآن بالقرآن: ويدخل فيه القراءات، ومثاله: أنه قرأ قوله سبحانه وتعالى ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فقال: إن فرعون لم يعترف أن له آلهة، فقال في قراءتها: ﴿ويذرك وَإِلَهَتَكَ﴾ أي: عبادتك[٢]، كذلك عند قوله سبحانه وتعالى في سورة طه: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ فسرها ابن عباس رضي الله عنهما أنه: كل ما حصل لموسى عليه السلام من أنواع الابتلاء منذ رميه في التابوت إلى وفاته، وأخذه من القرآن في حديث الفتون، فهذه كلمة مجملة فسرها بالقرآن[٣].

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٥٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٨).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠/ ١٧٢)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ١٠) والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٠).

٢ - السنة: الطرق التي نقل بها التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا شك أنه نقل بالأسانيد، وهي في التفسير كثيرة، كلها قد سبق لها أمثلة، منها صحيحة ومنها ضعيفة.

- أصح الأسانيد عنه في التفسير: الصحيفة الصادقة صحيفة عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعليّ لم يدرك ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن روى الصحيفة عنه(١)، وقيل: إنها منقطعة، قال أحمد: إن في مصر صحيفة لو رحل إليها رجل ما كان كثيرًا(٢)، واعتمدها البخاري وعلقها بصيغة الجزم.

قال ابن حجر: وثبت أن الواسطة الذي أخذ عنه عليّ بن أبي طلحة، ومجاهد ابن جبر، فإذا دخلت الواسطة، فلا مدخل للطعن، هذه أصح الطرق المشهورة(٣).

- أوهى الطرق عن ابن عباس رضي الله عنهما: التي يرويها محمد بن مروان السدي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. ومحمد بن مروان كان متهمًا بالكذب، وكذلك الكلبي؛ ومن المصيبة أن هذه الطريق اعتمدها الفيروزأبادي في كتابه: (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) وهذا باطلٌ لا يجوز؛ لأن هذه الرواية معلومٌ أنها مكذوبة، ولذلك نزه الطبري تفسيره عنها، وابن أبي حاتم.

---

(١) انظر: كتاب موضح أوهام الجمع والتفريق للخطيب البغدادي (١/ ٣٥٢ وما بعدها).

(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٣/ ١٠٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٨٥)، وفتح الباري (٨/ ٤٣٨)، والإتقان في علوم القرآن (٤/ ٤٩٦).

(٣) انظر: الأمالي المطلقة (١/ ٦٢).

تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما ومدرسته في التفسير

وكان له تلاميذ، من أشهرهم: مجاهد، وسعيد بن جبير، وطاووس بن كيسان، وعكرمة، فكونوا مدرسة، وكان لابن عباس طريقة في التفسير، تمثلت في تلامذته، وكانوا يعتنون به، قال العلماء إذا جاءك التفسير عن تلامذة ابن عباس، فحسبك به، لاسيما مجاهد. إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فحسبك به؛ لأنه عرض القرآن من أوله إلى آخره ثلاث مرات على ابن عباس رضي الله عنهما.

مميزات مدرسته

وقد تميزت مدرسته بكثرة الاجتهاد، وصار المنقول عن تلامذته كثيرًا فيه اجتهادات.

بحث: وهو كثرة استشهاد ابن عباس رضي الله عنهما بالشعر، ولا شك أن الاستشهاد به لم يكن مألوفًا عند العرب، ولكن المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما كثير من تفسير معاني القرآن به، وقد اختلف فيه:

القول الأول: قيل لا يجوز؛ لأن القرآن حق في نفسه، والشعر نفاه عن نبيه، والشعراء ليسوا بحجة على القرآن، وإذا جعلناه عمدة، يكونون حجة على القرآن، وهذا من هذا الوجه صحيح، لكن ابن عباس رضي الله عنهما أراد أن هذه الكلمة مستعملة في لغة العرب بهذا المعنى؛ كما في أسئلة نافع بن الأزرق حيث سأله: ما العزون؟ قال: الجماعات المتفرقة، قال: وهل تعرف

العرب ذلك؟ قال: نعم:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا[١]

القول الثاني: قيل أنه يجوز، وذلك بإيراد الأشعار في التفسير للدلالة على صحة المعنى المفسر، وهذا صنيع كثير من المفسرين كابن جرير، والطبري، وهذا ما صنعه ابن عباس رضي الله عنهما، من أشهر ذلك الأسئلة المعروفة بأسئلة نافع بن الأزرق عن ابن عباس، فقد كان هو وصاحبه في فناء الكعبة، ونافع خارجي، فقال لصاحبه: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن، نسأله عن مصادق أشعار العرب؟

ثم بدأ بالأسئلة وقد رواها الطبراني[٢]، وابن الأنباري في (الوقف والابتداء)، والسيوطي في (الإتقان)، وجمعها من المعاصرين محمد فؤاد عبد الباقي، وفيها دراسة بيانية حول أسئلة نافع، وأجوبة ابن عباس رضي الله عنهما، وشرح عليها أبو تراب الظاهري، وقد طبع بهذا الاسم (شواهد القرآن).

أمثلة منها:

سأله عن قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، قال: يا ابن عباس رضي الله عنهما ما الوسيلة؟ قال: الحاجة، قال: أو تعرف العرب ذلك؟، قال: نعم أما سمعت قول الشاعر:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي[٣]

---

(١) سبق عزوه (ص١١).

(٢) أخرجها الطبراني (١٠/ ٢٤٨).

(٣) سبق عزوه (ص ١٠).

وسأل عن العزين كما سبق.

وقد أخذ تلامذة ابن عباس رضي الله عنهما عنه الاجتهاد، وهو قسمان:

الأول: اجتهاد يصاب فيه، والثاني: اجتهاد يُخطأ فيه، بخلاف تفسير الصحابة، ومنه تفسير مجاهد: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء٧٩] هو أن يجلسه معه على العرش، وهذا الاجتهاد غلط من حيث تفسير الآية؛ لأنه ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ جعل المقام المحمود هو: الشفاعة[(١)]، هذا من الاجتهادات غير الصائبة؛ لأنها معارضة بتفسير صحيح عن الرسول ﷺ، ومنها ما فسر به الحسن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ [الرعد: ٤]، فظاهرها في دلائل الربوبية، فقال الحسن: هذا مثل ضربه الله للوحي النازل على القلوب، فالقلوب واحدة، والوحي واحد، ولكن تختلف في قبولها له وتأثرها به، فمنها من يقبل، فيعمل، ومنها من لا يتأثر، ولا يعمل، وهذا اجتهاد صحيح.

تفسير ابن جرير الطبري

إمام هذه المدرسة، وأكبر كتاب فيها كتاب ابن جرير: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

ترجمة ابن جرير الطبري:

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري نسبة لطبرستان، ولد هناك سنة **٢٢٤**هـ، وكان بيته بيت غنى في المال، ولذلك اهتم به والده في العلم، وتيسرت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٨).

له سبيله، ووجهه لحفظ القرآن، وطلب العلم، وهو في السابعة، وأمَّ الناس، وطلب العلوم الابتدائية، حتى بلغ من العمر ستة عشر عامًا، فطلب منه والده أن يرحل في طلب العلم، ويسر له ذلك، ودخل بلادًا كثيرة، وأخذ عنهم الحديث، حتى كان من رحلته أنه دخل بغداد سنة ٢٤١هـ بعد وفاة أحمد، ولم يحصل له اللقاء به، في بغداد صحب أصحاب الشافعي، وتتلمذ لهم، حتى صار شافعيًا في أوّل عمره، وأفتى به هناك، تميز بالذكاء، والحفظ، وسرعة الكتابة، وكثرة التجوال، والصبر على ذلك، أيضًا دخل الشام، ومصر، وبلادًا كثيرة.

ومن أخباره في رحلته أن رجلًا أتاه وهو في الشام، وقال له: إنّ لديّ سؤالًا في العروض، فقال - ولم يكن يعرف هذا العلم -، فقال له: إن عليّ اليوم قولًا ألاّ أتكلم في العروض، يوهم أنه حلف، فذهب وأخذ كتبًا في العروض، ودرسه تلك الليلة، حتى أدرك هذا العلم، فلما أتاه الرجل في الصباح أجابه بأحسن جواب.

هذا يدل على ملكة حفظه، دخل مصر، وكان آخر مقامه بها، وكثر تلامذته هناك، وصار له مذهب وأتباع يسمون الجعفريون، ولم يستمر هذا المذهب، بل اندثر.

ألّف مؤلفات كثيرة في فنون كثيرة: في التوحيد رسائل، والتفسير، والقراءات، وألّف في الفقه، كتب في الخلاف والوفاق، مثل: كتاب (خلاف الفقهاء)، أيضًا (علل الحديث)، وأسماه (تهذيب الآثار) لم يتمّه، قال العلماء: لو أكمله، لما احتاج العلماء إلى غيره، وفي التاريخ له الكتاب المشهور، وهو رأسهم.

ذكر عن نفسه أشياء فيما حباه الله به، فمما ذكره أنّ قال: مرّت عليّ (٤٠) سنة أكتب كل يوم (٤٠) ورقة، فتكوّن (٦٠٠,٠٠٠) ستمائة ألف ورقة تقريبًا، ولهذا قالوا: لما أراد أن يكتب التاريخ، قال لتلاميذه: هل تنشطون لكتابة تاريخ العالم، فقالوا قدر كم؟ فقال (٣٠,٠٠٠) ألف، فاختصره في العشر (٣) آلاف.

كذلك قال في التفسير، فقالوا: قدر كم؟ قال: (٣٠,٠٠٠) فقالوا: هذا مما تموت فيه الهمم، فاختصره في نحو ذلك.

ولهذا أجمع عليه أنه إمام المفسرين، وكتابه أعظم الكتب المؤلفة في التفسير، تجد له ترجمة في كتاب (ياقوت الحموي)، و(المنتظم لابن الجوزي)، توفي رحمه الله وقد بلغ (٨٦ عامًا، سنة ٣١٠هـ، ورثاه العلماء والأدباء حتى قال ابن دريد رثاءً له:

مَا زِلْتَ تَلْهَجُ بِالتَّارِيخِ تَكْتُبُهُ ... حَتَّى رَأَيْنَاكَ فِي التَّارِيخِ مَكْتُوبًا

وهذا البيت ينسب لابن دريد، ولكن الصحيح أني لم أجده في ديوانه.

ثناء العلماء على تفسيره

كان زميل ابن جرير محمد بن إسحاق بن خزيمة استعار منه نسخة من تفسيره، فلما قرأه قال: (**ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير**)[١].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١١/ ١٤٦)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٥١)، وطبقات المفسرين للسيوطي (١/ ٩٧).

وأبو إسحاق الإسفرائيني قال فيه: (**لو كان تفسير ابن جرير في الصين، ورحل إليه رجل، ما كان ذلك كثيرًا**).

وقد بلغ من العناية حتى قيل فيه هذا المقال، حتى أن المفسّر إذا فسّر، ولم يطلع عليه، لم يعدّ مفسرًا.

اسم الكتاب: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وبحسب النسخ الموجودة ذكر فيه أنه قُرئ على أبي جعفر سنة **٣٠٦هـ**، فيكون ابتدأ إملاء الكتاب سنة **٣٠٦هـ**، فيكون تأليفه بعد سن الثمانين، فمعنى ذلك أنه تم حفظه وإدراكه.

أول ما طبع في المطبعة الميمنية في مصر، وكانت عن نسخة خطية مشوشة مجلوبة من أمراء حائل، ولكن لم تعارض بغيرها، وما لبث أن طبع بعدها في (بولاق) نسخة معتمدة، عرضت على عدة نسخ. المقصود أن هذه النسخ مرجعها (لبولاق)، حققه محمود شاكر، ولم يصل إلا إلى سورة الرعد تحقيقًا ممتازًا.

س ١١: هل نص ابن جرير في كتابه على خطة له؟

الجواب: لم يذكر في مقدمته منهجًا يعتمد، بل أورد أشياء متنوعة؛ كما سيأتي بأن مقدماته لمؤلفاته، يسمي: المقدمة رسالة، فمقدمة التفسير هذه، وأمثالها يسميها رسالة، فإذا وجدت رسالة التفسير، وهكذا، فمعناه: مقدمته، هذا مصطلحٌ له رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

خصائص تفسير ابن جرير

١ - خطبة الكتاب:

خطبة الكتاب: بعد الثناء والحمد، ثم ذكر صفات القرآن، ثم قال: إن أحق ما صرفت إليه العناية ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى. . . إلى آخره، وهذه الخطبة اشتملت على أشياء:

١ - أن صرف الهمة إلى التفسير ومعاني القرآن واجب.

٢ - أن معرفة التفسير هي صواب القول في المحكم والمتشابه، والظاهر والباطن، وتفسير المشكل.

٣ - دل بهذه الخطبة على أنه منشئ كتابه، قال: بأوجز ما كان من الإيجاز، وأخصر ما كان من الاختصار، فوصف كتابه بأنه مستوعب لما للناس به حاجة، أيضًا ذكر وصفًا له، فقال: مخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه الأمة، فيذكر ما اتفق عليه أهل الحجة من التفسير، وما اختلفوا فيه، فيذكر الإجماع، ويذكر اختلاف أهل التأويل، وهذا شرطه في المقدمة، ثم شرط على نفسه بأنه عند الاختلاف يبين الصحيح ويختاره، وينقله عمن أثره عنه، وينقل الأخرى، ويذكر عللها وأصولها، وهذا الشرط التزم به.

٢ - قدم لكتابه بمقدمة، هذه المقدمة اشتملت على فصول مهمة، فذكر تراجم تتعلق بالبيان.

فأولًا: قال: القول في البيان عن اتفاق معاني القرآن، ومعاني منطق من

نزل منه القرآن، فذكر المقدمة، وأبان فيها على أن معاني القرآن متفقة مع معاني لسان العرب، ولكن تميز القرآن بأنه كلام الله الذي لا يمكن معارضته، وما هذه الأشياء التي باين بها سائر الأمم، فبحث نزوله باللسان العربي ووجوه الإعجاز فيه.

ثانيًا: ثم قال القول في الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب، وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم، وهي المسماة الكلمات التي قيل: إنها أعجمية ووجدت في القرآن. فيرى أنه ليس في القرآن كلمات أعجمية، فعنده أنها جاءت في لسان العرب، ولسان الحبشة، فاتفق الاستعمال، وليس أن العرب أخذوها من تلك الأمم، وذكر: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: ٦] إذا قام الرجل من الليل بلسان الحبشة.

القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب بحث هذا في صفحات، وبحثَ فيه مسألة إنزال القرآن على سبعة أحرف، ورأى ابن جرير فيه من (صفحة ٢١ - ٦٨) في بحث الأحرف واللغات، القول في بيان قوله ﷺ: «**نَزَلَ الْقُرْآنُ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»، القول في الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن، هذا القول بمثابة قواعد وأصول التفسير.

ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في القرآن بالرأي.

ذكر الأخبار التي رويت في الحض على التفسير ومن يفسره.

ذكر الأخبار التي غَلِطَ فيها منكرو القول في تأويل القرآن.

ذكر الأخبار عن السلف فيما كان محمودًا علمه بالتفسير، ومن كان

مذمومًا علمه به، ساق نعم ترجمان القرآن ابن عباس، وذكر مجاهد القول في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه.

طريقته في التفسير

٣- أنه لو أورد الآية أو بعض الآية يذكر تفسيرها حسب ما يراه، وبحسب ما ترجح لديه منه أقوال المفسرين الذين نقل عنهم تفسيرهم للآية.

قد يذكر المعنى الإجمالي، ثم يردف بذكر من قال بقوله، أو أردفه بذكر الأدلة على قوله من كلام المفسرين.

ثم إذا كان في الآية خلاف، فإنه يذكر قوله، ثم يقول: وبنحو الذي قال أهل التأويل قلنا، ثم يذكر الآثار المساندة لقوله، ثم يذكر الأقوال الأخرى، ويذكر أدلتها مستندة.

أحيانًا لا يذكر التفسير الإجمالي في البداية، وإنما يقول اختلف أهل التأويل في تفسير قوله ﷻ: ﴿...﴾، ثم يذكر أقوالهم.

أمثلة لطريقته، أو أمثلة للاتفاق:

عند قوله ﷻ: ﴿وَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، القول في تأويل قوله ﷻ قال أبو جعفر: وإياي فاخشون، ذكر أقوالًا، ولم يذكر خلافًا.

مثال على ذكر الخلاف:

القول في تأويل قوله ﷻ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، قال: أجمعت الأمة من أهل التأويل أن الصراط الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ...، ثم قال: وقد اختلفت...، وذكر قول عليّ، وذكر قولًا عن جابر بن

عبد الله ﷺ، وذكر ابن عباس ﷺ: أنه الإسلام، ثم قال في آخره: وإنما وصفه الله باشتقاقه؛ لأنه مستقيمٌ، لا اعوجاج فيه.

إذًا فابن جرير يذكر الاختلاف وما يرجحه في ذلك.

٤ - أن كتابه موسوعة كبيرة في الآثار والأحاديث:

فتحت كل آية يورد ما يتصل بمعنى الآية منها، وهذا يحتاج إليه مخرج الحديث كثيرًا؛ لأنه يأخذ من هذا الكتاب ما يتعلق بالتفسير، بالفقه، . . . إلى آخره.

فمثلًا: أورد الكلام على قص شعر اللحية والأخذ منه، أوردها في تفسير سورة الحج عند قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]؛ لأن ابن عمر كان يأخذ ما زاد على القبضة، ويحتج بالآية، فهو يورده - أيضًا - فيما يتصل بموضوع الآية إن كان يخدم الآية.

٥ - تقريره في هذا الكتاب عقيدة السلف، وتفسير آيات العقائد والأديان، فكتابه سلم من البدع في العقيدة، فهو إمام أهل السنة، ولهذا جاء في كتابه الرد على المخالفين في العقيدة الذين حملوا آياته على غير ما حمله السلف، ففيه الرد على الجهمية، والقدرية، ونفاة الصفات، والمخالفين في الصفات.

مثاله: رد على القدرية في الجزء الأول (ص ١٩٥، ١٦٨، ١٦٢)، و(ص٣٦٣، ٣٦١) إلى آخره، كلها ردود على القدرية، كذلك رد على المخالفين في الصفات (ص ١٨٩، ٣٠١، ٣٠٦)، وقال: هنا في هذا الموضع ما نصه (اختلف في استهزاء الله الذي قيل فاعله في المنافقين،

فقيل: توبيخهم، . .) ورد على هؤلاء بكلام مفصل (ص٣٠٥)، وكذلك رد على الجهمية (ص٢٧٢)، ورد على منكري الاستواء (ص٤٣٠).

٦ - جعل كتابه مشتملًا على ردود أصحاب الشبهات الذين يطعنون في القرآن، وفي معانيه، وفي تركيبه، وفي القراءات.

فردّ عليهم، وكذلك أورد الإشكالات على الآيات، وردّ على أهلها.

مثاله: (ص١٩٤)، قال: (مسألة في رده على أهل الإلحاد الطاعنين في القرآن)، وكانت هذه المسألة في (الفاتحة)، وهي أنهم قالوا: إذا كانت أم القرآن، وقد جمعت معاني القرآن، فقد جمعت على تكرير، فيغني عنها ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ فإثبات: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يقتضي أنه رب العالمين، وأنه الرحمن الرحيم وأن ما قبلها تكرار ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تعني: عما بعد، فإذا لم يعبد غير الله، فقد هدي الصراط المستقيم، وخالف المغضوب عليهم).

٧ - اشتمال القرآن على الآيات المتنوعة (السبعية) وغيرها.

وطريقته أنها منسوبة إلى أصحابها، أحيانًا منسوبة إلى الأنصار كثيرًا، فيقول: قرأ المكيون بكذا، والمصريون بكذا، وله موقف منها: أنه إذا أورد القراءات، تارة يرجح، فيقول: هذه أرجح من هذه، وهذه أصح من هذه.

أيضًا يصحح الجميع، أي قراءة قرأ بها القارئ أصاب، وتارة يخطِّئ القراءة، يقول: الصحيح القراءة الأخرى، فيقول: هذه القراءة غلط، ولا تصح القراءة بها.

٨ - اعتنى في كتابه باللغة العربية ومباحث النحو، ويشمل النحو

والتصريف، ويورد أقوال النحاة، وذلك إذا كان التفسير يتطلّب ذلك، وينسبها إلى أصحابها، ويرجح تارة، ولا يرجح مدرسة معينة، بل يرجح ما أدى إليه اجتهاده، ويورد الدليل، فانظر إلى قوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، والتصريف عند قوله ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

٩ - إيراده للمباحث الفقهية المتعلقة ظاهرًا بالآيات، فلا يورد مثلًا البحث الفقهي هكذا، بل كل ما يتعلق بالآية، وذلك أحيانًا، وليس دائمًا.

١٠ - إيراده للإسرائيليات، وهي: آثار بني إسرائيل، التي أخذت عن بني إسرائيل من ناحية قصص الأنبياء، ينقلها بكثرة، وهذه سنة العلماء الذين كتبوا في التفسير؛ لأن النبي ﷺ قال: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولا حَرَجَ**»(١) والتي يوردونها ما فيها الاحتمال، وأما ما عُلم كذبه، فلا يذكره، ولا يجوّز ذكرها، وقد شاع في هذا العصر ردّ الإسرائيليات من التفاسير التي تتعرض لها.

١١ - اهتمامه البالغ باللغة العربية، وبيان معاني الآيات من جهة اللغة، وذلك بتحليل اللفظة، وبيان اشتقاقها، وذكر الأشعار الدالة على ذلك المعنى، فمثلًا قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، الند: المثيل والنظير، قال حسان رضي الله عنه:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ(٢)

---

(١) سبق تخريجه (ص١٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٦٣)، والقرطبي (١/ ٢٣٠)، والعقد الفريد (٥/ ٢٦٠)، ولسان العرب (٣/ ٤٢٠).

١٢ - عنايته بأسباب النزول، أو كثرة إيراده لأسباب النزول، وإيراده ليس دائمًا، ولكن إذا دعت الحاجة لذلك، وذلك في ثلاثة أحوال:

١ - أن يكون في ذكره إيضاح لمعنى الآية.

٢ - أن يكون في ذكره ترجيح بين الأقوال التي يوردها.

٣ - أن يكون فيه ذكر لما له صلة بالآية، من ذكر قصة أو خبر، يكون العلم به من تمام الآية.

موقف ابن جرير من القراءات

س ١٢: ما السبب في موقف ابن جرير من القراءات، وترجيح بعضها على بعض، أو تغليط بعضها؟ذكرنا أنه يقول: وهذه القراءة لا أجيز القراءة بها، أو يقول: وهذه القراءة لا تصح القراءة بها، أو يقول: وهذه القراءة غلط، أو يقول: وكلا القراءتين صحيحة، فكيف توجّه هذا؟

الجواب: إن ابن جرير نظر إلى المعنى، وإن القراءة المأثورة هي من حرف يوافق رسم المصحف، لكنه لا يناسب المعنى، فبعضها يكون أولى من بعض؛ لأن معناه أولى، وبعضها لا يستقيم المعنى بها عنده، فإن كان يستقيم المعنى عنده بها صححها، وإن كانت لا تستقيم غلّطها، والسبب في قوله: تستقيم أو لا تستقيم؛ لأنها دخلت بعض الأحرف السبعة فيما دلّ عليه حرف قريش، لكن بعض الكلمات لا تناسب حرف قريش فيما بقي من الآية، ولهذا يغلط ابن جرير.

تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ

اسمه (تفسير القرآن العظيم).

مؤلفه: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو إمام معروف، فقد فسر القرآن في المسجد على الناس، قالوا لمّا بلغ قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، ابتدأ تدوين التفسير، ففسره إلى آخره، ثم رجع إلى أوله، وفسره إلى هذا الموضع، ثم رجع من أوله للمراجعة، ولذلك تختلف النسخ الخطية، فلا غرابة في اختلاف النسخ؛ لأنه راجع الأول، فلا بد أن تكون نسخت نسخًا قبل المراجعة وأخرى بعدها.

طبع عدة طبعات، وهي ما بين جيدة ومتوسطة، ومن أحسنها التي طبعت في مصر (دار الشعب) اعتمد على نسخة أزهرية حققها ثلاثة أساتذة.

خصائص تفسير ابن كثير

١ – أنه تلميذ ابن تيمية، فقد نشأت له مدرسة في التفسير، فابن كثير تأثر بمدرسة شيخ الإسلام، فهو يعتني بالآيات المشكلة، ولهذا اعتنى بها أيضًا ابن كثير، وله كلام طيب في تفسيره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥]، فقد تكلم عليه شيخ الإسلام، وكذلك ابن كثير بكلام نفيس، يعني: هل كان إبراهيم ناظرًا أو مناظرًا؟[١]

٢ – قدم لتفسيره بمقدمة مهمة، وهذه المقدمة في أكثرها لخصها من مقدمة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٣).

التفسير لابن تيمية، فاشتملت مقدمته على المسائل:

وجوب العناية بالقرآن، والعناية بتفسيره، وأنه من أشرف العلوم.

ذكر المفسرين من الصحابة ﷺ، وفضّل مدرسة الصحابة ﷺ، وذكر التفسير بالأثر، والرأي، وأن تفاسير الصحابة ﷺ هي أسلم من غيرها، وذكر اختلاف التنوع، واختلاف التضاد، وذكر كلمات تتعلق بعلوم القرآن، وفي آخرها ذكر الكلام على الإسرائيليات، وأنه أوردها السلف، وقسمها من حيث الرواية إلى أقسام، فقال: منها ما جاء شرعنا برده، ومنها ما جاء بمثله، ومنها ما لم يأت شرعنا برده ولا قبوله، فهذا هو الذي قال فيه ﷺ: **«مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ، ولا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُ»**(١).

الأثر عن ابن كثير، وابن جرير: قال ﷺ: **«حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولا حَرَجَ»**(٢)، التزم به إلاّ في سورة (ق)، فقال: قيل: هو جبل محيط بالأرض من كل جهاتها، وما وراء التقاء بقية الفلك كما هو تصور الأولين، وذكر الإسرائيليات في هذا الموضع، وقال: هذا مما ترده العقول، وتحيله، وليس من قبيل ما لا يصدق ولا يكذب.

إذًا القسم الثالث، وهو ما لم يأت شرعنا برده ولا قبوله ينقسم عند ابن كثير إلى قسمين:

الأول: مالا تحيله العقول، فهذا من قبيل مالا يصدق ولا يكذب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٤) من حديث أبي نملة الأنصاري ﷺ.

(٢) سبق تخريجه (ص١٨).

والثاني: ما تحيله العقول، فإنه يرد.

هذا ما ورد في المقدمة، فقد جعلها تأصيلًا لتفسيره.

٣ - هذا التفسير من قمة التفاسير، فهو من مدرسة التفسير بالمأثور، بل هو من أعلاها؛ لأنه اعتمد على الأثر، فقد ذكر في المقدمة أن أعلى ما يفسر به القرآن بالقرآن، والسنة بالأثر عن الصحابة، والتابعين، فهو يورد في الآية جميع ما فسره الرسول ﷺ، وما فسره الصحابة والتابعون.

فهذا الكتاب نقل لمدرسة التفسير بالأثر، ولكن إذا نقل عن الرسول ﷺ، يذكر الأسانيد والتخريج، فيقول: قال أحمد، ويذكر الإسناد، ويذكر من خرّجه: كأحمد، والنسائي، والترمذي... إلى آخره، وهذا كثير وغالب، ولكن ليس قاعدة مطردة، وإذا أتى إلى أحاديث وآثار الصحابة والتابعين ينقلها دون إسناد، وهو محمول على أنه إمّا صحيح، وإمّا مردود.

في كتابه يأتي بالأحاديث والآثار قليلًا المتصلة بموضوع الآية؛ فالآية - مثلًا - في تحريم الميسر يذكر الأحاديث الدالة على التحريم، وكذلك في بر الوالدين، فلا يذكر الأحاديث المتعلقة بمعنى الآية، بل أيضًا المتعلقة بموضوع الآية.

س ١٣: كيف يتعامل مع الأحاديث والآثار؟

الجواب: طريقته: تارة يذكر هذه الأحاديث بدون فصول، وتارة في فصول، فيقول: فصلٌ في حُسن الخلق؛ كما ذكر في سورة لقمان.

- اعتنى عناية بالغة بتحرير الأسانيد، والطرق، والتخريج، ويحكم على الأحاديث، ويذكر ما منها غريب ومتفرد به، وما ليس كذلك.

- إذا أورد الأحاديث، فإنه يحكم عليها كثيرًا، وتارة يكون بالصحة والحسن، ويذكر العلة في ذلك، ويورد أحاديث، ويستغربها، وتارة يورد، ولا يحكم، فقد تكون صحيحة، وقد تكون مما ضعفُه محتمل.

فإذًا تميز تفسيره بأنه معتنٍ جدًا بالحديث.

٤ - اعتناؤه بالمسائل الفقهية في ذكر كلام العلماء، واختلاف الأئمة: فهو يورد كلام الأئمة في الفقه، إذا كانت الآية في مسألة فقهية، أو تدل على حكم فقهي، مثل: إن كانت في الصيام، يذكر ما يتعلق بأحكام الصيام، وكذلك الحج، وكذلك المحرمات في النكاح، فيذكر ما يتعلق بها من الأحكام؛ لأن الآية فيها نصه. مثال ما تدل عليه قوله ﷻ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، فإن الآية دلت على أن الربيبة إذا كانت في حجر الزوج، فتحرم على الزوج أن يتزوجها، هذا ظاهر الآية، فهل هذا مقصود، أم أن كل بنت امرأة تزوج أمها تحرم عليه، ولو لم تكن في حجره؟

الجمهور على تحريمه، وأن ذكر الحجر خرج مخرج الغالب، ثم ذكر مذهب الظاهرية، وذكر قول عليّ، وقول شيخ الإسلام فيها.

وتارة يوردها على شكل فصول، إذا طال المبحث، فيقسمها؛ لتكون أخف.

٥ - لم يعتنِ ابن كثير رحمه الله بذكر القراءات في هذا الكتاب، فقد فسّر كتابه على غير قراءة حفص؛ على قراءة أبي عمرو؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، فهو فسر على هذه القراءة، ولا يورد القراءات

بالتزام، فربما ذكرها، وربما لم يذكرها، والأكثر عدم ذكرها، ويوردها إن كان لذكرها أثر في تفسير الآية.

٦ - لم يعتنِ في كتابه بذكر المباحث العربية، لا من جهة الاشتقاق، ولا الشواهد، ولا التصريف، ولا المعاني، ولا البيان، ولا النحو. لم يعتنِ بها، ولكنها ليست ظاهرة في كتابه، وربما ذلك للتدليل على صحة التفاسير المنقولة في ذلك، أو لبيان أهل التفسير، فلو قارنت بينه وبين القرطبي، لوجدت اختلافًا، فهذا يهتم بمباحث اللغة، وابن كثير على عكس ذلك.

٧ - عنايته بذكر اختلاف التنوع، وذلك إذا أورد الأقوال، فيحمل بعضها على بعض، إذا كانت ملتقية، ولم يظهر ذلك، وبهذا تبع لشيخ الإسلام.

٨ - في العقيدة يعد هذا التفسير من أصول تفاسير السلف؛ لأنه قررها في الإيمان، والصفات، والقدر، والإيمان باليوم الآخر، ومسائل الغيبيات، والرسل، . . . إلى آخره، فهو يمثل طريقة السلف في طريق الاعتقاد، ووجه ذلك، وتقريره.

قيل: إن ابن كثير في الصفات ربما جنح إلى التفويض أو التأويل، هذا ذهب إليه؛ كما في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١]، أي: قصد، هذا يدل على أنه يفوض أو يؤول.

ونقول: هذا باطل، حين يورد هذا إنما يعني: دلالة الآية في ذلك، ولا يعني به ذكر . . . ، فقد قرر الصفة في محله، فيكون معنى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: علا وارتفع إليها قاصدًا، فابن كثير قال: أنه قصد ليبين

التفسير بالتضمن، التفسير باللازم، وأمّا المؤول، فلا يعرف التضمين، فلنفرق بينهما، موضع الاستواء إن أَوّله، دل على أنه مؤول، وفسر في موضع بالمعنى المتضمن. . . ، في مسألة توحيد العبادة، فقد فسرها تفسيرًا صحيحًا، في العقيدة، وفي الإيمان على طريقة السلف، تفسير قوله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] بين الربوبية وبين الألوهية، فيستعمل كلًا منهما، ويكثر، لا كما قال بعضهم: أن أول من استعمله ابن تيمية رحمه الله.

٩ - مباحث تاريخية: في قصص الأمم السابقة، وبعض الأخبار وبعض السير. . .

١٠ - هذا الكتاب ضمنه مؤلفه كثيرًا من مباحث علوم القرآن: العناية بأسباب النزول، والمحكم والمتشابه، والمشترك، والعام والخاص، والأحرف ودلالتها.

الفرق بين ابن جرير وابن كثير في الآثار

س ١٤: هل تفسير ابن كثير اختصار لتفسير ابن جرير؟ هذه عبارة مشتهرة، فما مدى صحتها؟

الجواب: قيل ذلك لمّا رأوا أن ابن جرير يُصدِّر بالتفسير الإجمالي، ثم يتبع بالآثار مسندة، ويذكر آراءه في التفسير، وابن كثير يتبع هذه الطريقة،

فنظروا إلى هذه الطريقة، فقالوا: إنه لم يورد أسانيد، فصار مختصرًا له، ويعتني باختيارات ابن جرير، فيوردها في تفسيره، وهذا الذي ذكروه ليس بصحيح ولا دقيق؛ لأن ابن كثير لا شك أنه اعتمد تفسير ابن جرير مرجعًا أساسيًا، ولكنه لم يختصره ألبتة، بل استفاد منه؛ كما استفاد من غيره، وقد خالفه في أشياء زادها عليه، ومنها:

- أنه أورد آثارًا وتفسيرات عن السلف ليست في تفسير ابن جرير.

- أنه اعتمد على تفاسير كثيرة، ومنها: ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والمسانيد، والصحاح، والسنن، ونقل منها كثيرًا من جهة الآثار والأحاديث وهذه ليست في ابن جرير.

- أن ابن كثير حكم على الأسانيد، وذكر الروايات والطرق وأعلها، ويذكر الأحاديث في موضوع الآيات، ومباحث كثيرة متعلقة بالسنة لم يوردها ابن جرير أصلًا.

- أن فيه الحديث عن مسائل فقهية وعقدية لا توجد في تفسير ابن جرير.

- أن ابن كثير تعقب ابن جرير في مسائل كثيرة، فيذكر رأيه، ثم يتعقبه، ويكون في الغالب، ومثاله: قوله ﷻ: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤] تعقب ابن كثير تفسير ابن جرير هنا، وكذلك عند قوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ من الذين غلبوا على أمرهم المشركون أم ملوك ذلك الزمان؟ اختار غير ما اختاره ابن جرير، أنهم الكبراء من القوم، وأهل النفوذ. فهذا القول مردود بأدنى نظرة في تفسير ابن كثير.

- رد ابن كثير على كثير من التفاسير التي غلطت، ونقل منها فوائد، فنقل عن (الكشاف) و(الرازي)، ورد عليهم في مواطن، وهذه التفاسير المتأخرة ليست في تفسير ابن جرير.

تفسير الدُّر المنثور

مؤلفه: أبو الفضل جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، أحد كبار العلماء الذين اعتنوا بالتصنيف، عُدّ له أكثر من خمسمائة مصنف، منه ما هو في ورقة مثل: (المصابيح في صلاة التراويح)، و(بذل العسجد في سؤال المسجد)، ومنها ما هو مصنف في كتب، ومنها ما اختص بعلوم القرآن (كالإتقان)، وله في التفسير كتاب مشهور جدًا، وهو (الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور) مطبوع سابقًا في ستة مجلدات، ومؤخرًا في ثمانية مجلدات، ذكر في مقدمته: أنه اختصره من كتاب له سماه (ترجمان القرآن)، قال لمّا أنهيته، طالت الأسانيد، فرغبت أن أختصره، فسميته: (الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور)، قال بعض الناس: إنه ليس له وجود، أي: كتاب (ترجمان القرآن)، وهل كان مسودًا عنده، ولمّا انتهى منه اختصره؟ وقد ذكر في موضع من (الإتقان)، قال: وقد أتممت (ترجمان القرآن) في أربعة مجلداتٍ ضخام.

ومن اللطائف في ترجمته أنه ولد في المكتبة، ولدته أمه بين الكتب، فأصابها الطلق، وهي في مكتبة والده، ومات في مكتبة، تولى القضاء، وأتت المناقضات، فاعتزل في بيته، وتركه، وأخذ يؤلف، ويُخرِّج. . .،

بعضهم يسميه الخيوطي، بمعنى أن ما يورده كالخيوط لا تفي.

فائدة: ولذلك بعض المعلومات تحسن في النظر، ولا تثبت في اليد، ومثَّلها بعض أهل العلم بالزهرة اليابسة، تروق لك منظرًا، ومنها بعض تعليلات أهل العلم؛ كقولهم لماء العيون: كلها حلو إلا ماء زمزم، هذا خير أهل العلم.

وسئل: لماذا يطوف الناس حول البيت، يجعلونه عن يسارهم؟

ومن الأجوبة عليه أن بيت المحبة القلب، وبيت المحبوب هو البيت، ومن أجوبة أهل العلم للسؤال الأول؛ لأن مكة عين الأرض، والكعبة سواد العين، وماء زمزم دمعها، والدمع مائع، فالسيوطي له هذا الكتاب العظيم.

خصائص تفسير الدُّر المنثور

١ - فيه من ذكر التفاسير بالمأثور ما ليس في غيره، حتى لا يوجد تفسير بالمأثور إلاّ وهو فيه، فكل ما نقل عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين موجودٌ فيه.

٢ - أَنه خرَّج هذه الأقوال، ونسبها إلى مصادرها، فيقول: أخرج ابن جرير، والحاكم، وابن الضريس عن ابن عباس، ويسوق القول، فلا يذكر إسنادًا، ولكن يخرج، وكذلك قوله: أخرج البخاري في قوله: ومن يحاسب نفسه، ذلك العرض.

٣ - في كتابه لم يورد رأيًا له بعد الخطبة، فليس فيه بعد الخطبة إلَّا سرد الروايات. وطريقته أنه يذكر الآية إن كانت قصيرة، أو بعضها إن كانت

طويلة، ثم يورد الأخبار عن السلف في تفسير الآية، دون أن يدخل كلامًا من عنده.

٤ - لم يحقق الكلام في الأحاديث، فأورد أشياء كثيرة، فمنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو موضوع، ومنها ما هو منكر، وما هو مضادٌ للعقيدة، وما هو ضعيف جدًا، فهو حاطب ليل.

٥ - ليس في هذا الكتاب ذكر لمباحث لغوية، ولا نحوية، ولا تاريخية، ولا فقهية، وإنما فيه الآثار فحسب.

س ١٥: كيف نستفيد من كتب التفسير بالمأثور؟

الجواب: الترتيب كالتالي:

١ - تراجع (الدُّر المنثور) أولًا؛ لأن فيه حصر للروايات عن السلف، فتحصر الروايات منسوبة إلى السلف، وتذكر من روى هذه الرواية بجانبها؛ لأن السيوطي ما دقق في الروايات، ثم ترتيبها.

٢ - ثم تأتي إلى تفسير ابن كثير؛ فقد ذكرنا أنه يورد الآثار بلا أسانيد، ولكن يورد الأثر إلاّ إن كان مقبولًا عنده، فما أورده من هذه ابن كثير، نكتب عنده أورده ابن كثير.

٣ - مراجعة ابن أبي حاتم، فما ورد فيه، فهو صحيح؛ لأنه شرط على نفسه ألا يورد إلَّا الصحيح.

٤ - مراجعة الأصول، فإن كان الحديث رواه ابن جرير، فنرجع إلى تفسيره. . . إلى آخره، فننظر في الأسانيد، فما كان صحيحًا يقبل، وما كان

غير صحيح، يرد على شرط أهل التفسير.

٥ - ينظر في هذه الروايات عن الصحابة والتابعين: هل تكررت عن الصحابي روايتان؟ فإن كانت رواية واحدة، فيكون هو قول المفسر، فإن كان هناك قولان، فينظر فيهما، فإذا كانت متفقة، فيها اختلاف تنوع، جمعنا بينهما، أو أحدهما مختصرًا، والآخر مفسرًا، وأمّا إن كانا متعارضين، أحدهما يعارض الآخر، وكلًا منهما نُقل عن ابن عباس، فننظر في أصح الروايات إسنادًا، فما كان أصح يقبل، والآخر يقال: أنه ليس قول ابن عباس، فإن كانت الرواية صحيحة، ولكنها موضوعة، فترد كرواية الكلبي عن ابن عباس، وكذلك إن كان في أحدهما انقطاع، تقدم الصلة.

دراسة التفسير بالرأي

تعريف الرأي: الاجتهاد والاستنباط، والتفسير بالرأي: الاستنباط والاجتهاد، وهو قسمان: محمود، ومذموم.

المحمود: الذي قاله المفسر، وعنده آلات الاجتهاد التي تؤهله للتفسير بالرأي التي ستأتي.

المذموم: الذي قاله المفسر بالرأي، ودليله فيه العقيدة التي يعتقدها المخالفة للسلف، أو الجهل وعدم العلم.

س ١٦: ما شروط جواز التفسير بالرأي؟

الجواب: شروط جواز التفسير بالرأي ما يلي:

١ - أن يكون متابعًا للسلف في العقيدة؛ لأنهم هم الذين فسروا القرآن

قبل فشّو العقائد المنحرفة، وهم المؤتمنون على القرآن، والعقيدة الصحيحة أساس في فهم القرآن.

٢ - أن يكون عالمًا باللغة من جهة النحو، ومن جهة المفردات، إمّا بالحفظ، وإمّا بالقوة القريبة، وتعني: المراجع، فيمكنه فهم كلام أهل النحو، أو أهل اللغة، وعنده فيه ملكة من جهة الحفظ، أو من جهة القوة القريبة أي: الكتب.

٣ - أن يكون عالمًا بأحداث العرب؛ لأن القرآن نزل والعرب لهم أحوال اجتماعية، واقتصادية، وقبلية، ولهم تنقلات وأوضاع لمن حولهم، فإذا فُهمت، استطاع فهم الآيات؛ لأنها نزلت في أُناسٍ عاشوا هذه العيشة.

٤ - أن يكون عالمًا بأصول الفقه؛ لأنها أساس الاستنباط، فأصل مبحث أصول الفقه لغوي: كالمجمل، والمبين... إلى آخره.

٥ - العلم بأسباب النزول، وعلوم القرآن بعامة؛ لأن العلم بالأسباب يورث العلم بالمعنى للآية، مثل: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٨٩] كيف تفسرها؟ فإن لم تعرف أسباب نزولها، وأحوال العرب، لم يُعرف تفسيرها.

٦ - أن يكون عند المجتهد معرفة قوية بأسانيد التفسير، وطبقات الرجال في التفسير؛ حتى لا يخالف تفاسير السلف في اجتهادهم، فإنه إذا خالف تفاسير السلف، فهو مخطئ؛ لأنه لا يمكن أن يحجب عن السلف، ويأتي لمن بعدهم، وهذا غير ممكن.

٧ - أن يكون حافظًا للقرآن، عالمًا بموارد موضوعات القرآن فيه، حتى

لا يجعل تفسيره لآية دون النظر في مثيلاتها في القرآن مثل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق: ١٠] فإذا فسرها بنظيره عرف أنه الذي يُعطى كتابه بشماله، وقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة: ٩٣] فيها إباحة الأطعمة والأشربة ما دام على العمل الصالح، فإذا عرف الحلال والحرام، علم تفسير الآية.

س ١٧: ما مدارس التفسير بالرأي؟

الجواب:

١ - **مدرسة التفسير العقدي**، وهي التفسير بالرأي المذموم مثل: تفاسير الرافضة، ومنه: تفسير (الطبرسي)، (والطباطبائي)، وتفاسير الصوفية، ومنه: (تفسير القرآن) لابن عربي الصوفي الطائي، و(حقائق التفسير) للسلمي، و(تفسير القونوي)، وتفاسير المعتزلة، ومنه: (الكشاف) و(مفاتيح الغيب) للرازي، وتفاسير الإسماعيلية.

٢ - **تفاسير لغوية ونحوية**: ومثاله: تفسير أبي حيان (البحر المحيط) و(إعراب القرآن) للنحاس، و(المفردات) للراغب الأصفهاني.

٣ - **تفاسير فقهية**، نظر أصحابها في الفقه، فجعلوا تفاسيرهم ممثلة في الأحكام الفقهية، أمثلتها (أحكام القرآن) للجصاص، ولابن العربي، وللقرطبي.

٤- **التفاسير الموسوعية**، ونعني: التي فيها علوم كثيرة متصلة بالتفسير وغير متصلة به، يمثلها كتاب (مفاتيح الغيب) لعز الدين الرازي،

و(روح المعاني) للألوسي، فهي من التفاسير الموضعية من الفقه إلى النحو، إلى الفلك، إلى آخره.

س ١٨: ما سبب نشوء هذه المدارس؟

الجواب: سبب نشوء هذه المدارس: ذكرنا في مقدمة الكلام على التفسير جوابه، ونعيده أن من أهمها التخصصات المختلفة التي نشأت في الأمة، فمنهم من تخصص في الفقه والنحو والعقيدة... إلى آخره. وأراد أولئك أن يفسروا القرآن، ففسروا النحو في إعراب القرآن، وهكذا، فكان لهذه التخصصات سبب في نشوء هذه المدارس.

س ١٩: عن الاختلاف في مسألة جواز التفسير بالرأي.

الجواب: العلماء اختلفوا: هل يجوز أن يفسر أحد القرآن برأيه، أم لا يجوز إلاّ بالنقل؟

على قولين:

القول الأول: ذهب إليه جمع من التابعين: الشعبي، وسعيد بن المسيب أنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه، بل لابد أن يكون بالنقل، وما عداه لا يجوز التفسير بالاجتهاد، دليلهم أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ في الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1] فدلّ على أن من فسر بالرأي، فذلك متوعد عليه، حتى لو فسر، فهو مخطئ، واستدلوا - أيضًا - بأن أبا بكر قال: «**أَيُّ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١، ٢٩٥٠)، وقال هذا حديث حسن صحيح والنسائي في الكبرى (٥/ ٣١)، وفي فضائل القرآن (ص١٣٥)، وأحمد (١/ ٢٣٣، ٢٦٩)، والرافعي في أخبار قزوين (١/ ٢٠١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لا أَعْلَمُ؟!». وعمر عندما جهل معنى الأب، قال: (إن هذا لهو التكلف يا عمر)[(١)].

القول الثاني: أن التفسير بالرأي جائز لمن اكتملت عنده الشروط السابقة، وهو قول جمهور أهل العلم، وأدلتهم: قال هؤلاء: إن الصحابة ﭫ فسروا القرآن بالرأي، واجتهدوا في ذلك، ولو كان ممنوعًا، ما أقدم

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٢٧١): (عن إبراهيم النخعي قال: قرأ أبو بكر الصديق: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾، فقيل: ما الأب؟ فقيل: كذا وكذا، فقال أبو بكر: إن هذا لهو التكلف أي أرض تقلني أو أي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم. وهذا منقطع بين النخعي والصديق، وأخرج من طريق إبراهيم التيمي أن أبا بكر سُئل عن الأب ما هو؟ فقال: أي سماء تظلني. فذكر مثله، وهو منقطع لكن أحدهما يقوي الآخر).
وإسنادها - أيضًا - صحيح عن عمر ﭬ: أخرجها ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٣٦)، في فضائل القرآن، من كره أن يفسر القرآن، برقم (٣٠١٠٥)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٨١)، فضائل القرآن، برقم (٤٣) عن يزيد بن هارون، قال أخبرنا حميد عن أنس أن عمر قال على المنبر: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١] ثم قال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.
وهذا إسناد متصل صحيح، وقد صح سماع حميد من أنس - وإن كان قد قيل في ترجمته: كان يدلس، وإنما سمع من أنس ثمانية عشر حديثًا - وقيل غير ذلك. والباقي دلسها عن ثابت، والجواب أنه وإن دلسها عن ثابت - إن ثبت ذلك - فإن الذي دلسه ثقة جبل من أثبت الناس في أنس وهو ثابت البناني ﭭ. هذا مع أن ابن عدي قال في الكامل (٢/ ٢٦٨): (وأما ما ذكر عنه أنه لم يسمع من أنس إلا مقدار ما ذكر وسمع الباقي من ثابت عنه فإن تلك الأحاديث يميزها من كان يتهمه أنها عن ثابت عنه لأنه قد روى عن أنس وقد روى عن ثابت عن أنس أحاديث فأكثر ما في بابه أن الذي رواه عن أنس البعض مما يدلسه عن أنس وقد سمعه من ثابت، وقد دلس جماعة من الرواة عن مشايخ قد رأوهم).

عليه الصحابة رضي الله عنهم، فقد بلغتهم الأدلة، ومع ذلك فسروا، وأيضًا: أن الرسول ﷺ لم ينكر على عدي بن حاتم رضي الله عنه حينما اجتهد في تفسير الخيط الأبيض، والخيط الأسود، وإنّما قال: **(إنما ذلك سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ)** وكذلك عمر رضي الله عنه سئل عن قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ ففسره بالشِّعر[١]، فقبل ذلك، وأيضًا سئل عمر رضي الله عنه عن قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فاجتهد فيها ابن عباس رضي الله عنهما بحضرة الأشياخ، فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم إلاّ ما علمت منها، وإن ذلك هي وفاة الرسول ﷺ[٢].

وأما الدليلان اللذان ذكرا، فهما حق، فأما قولهم من فسر القرآن، فقد أخطأ، فهو فيمن فسره بالجهل، ففسره برأيه، وليس عنده آلة الاجتهاد، - والصحابة رضي الله عنهم فسروا وعندهم آلات الاجتهاد - فأخطأ بتجرئه على القرآن دون حجة، وأما الحديث الآخر، فهذا الرأي فيه بمعنى الرأي المذموم، وهو الناتج عن الهوى، فله رأي في الآية مخالف للسنة، كما فسر المرجئة القرآن بآرائهم، وكذلك الخوارج، والقرآن حق كله، ونقض تفسيرهم المحكم من القرآن، ومن الناس من فسره بجهل، ومنهم من فسره بهوى، ولا شك أن القول الثاني واضح الاستدلال، وواضح الجواب، فهو الراجح الذي عملت به الأمة.

---

(١) سبق عزوه (ص ١٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٩).

تفسير (روح المعاني) للألوسي

س ٢٠: من مؤلف تفسير (روح المعاني)؟

الجواب: مؤلفه: شهاب الدين الألوسي الحنفي.

اسمه: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، طبع عدة طبعات، وهذه منقولة عن أصلٍ بخط المؤلف؛ لأنه عاش في القرن الثالث عشر الهجري، وتوفى ١٢٧هـ، وذكر عن نفسه أنه رأى وهو صغير أنه يطوي السماء بيده، فسأل عن ذلك، فقال أحد المفسرين إن هذا تفسيرٌ عظيم سيفسره، وذكر عن نفسه أنه لم يعرف لهو الشباب، قال: وقد فتح الله عليَّ بحل إشكالات في التفسير، ولم أجاوز العشرين، وكان عنده معلومات واسعة، فألف هذا التفسير، طبع في عشرة مجلدات، وطبع طبعة أخرى في ثلاثين جزءًا، ثم توالت الطبعات.

وصفه: كان يميل إلى الصوفية والطريقة النقشبندية، ولهم طريقة في التفسير، وهي أن في الآيات إشارات إلى حقائق الإيمان وما يصلح به قلب المريد والسالك، في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١] إشارة إلى الاهتداء، فكثر عندهم ذكر الإشارات في الآيات على ما يريدون، وهذا ما عرف فيما بعد بالتفسير الإشاري، فلها ظاهر، ومنطوق، ومفهوم، وإشارة، لا يعلمه كل الناس، وتصنيف هذا في التفاسير الإشارية، فإنه بعد تفسير الآية يقول: وفي الآية إشارة إلى كذا. التفسير الإشاري كثر عند طائفة من المفسرين المتأثرين بالصوفية، ذكر ابن القيم في

كتابه: (التبيان في أقسام القرآن) أن الأقسام جمع قسم، وتكلم عمّا في القرآن من القسم، وذكر أن التفسير الإشاري سواء من آي القرآن أو السنة يصح بأربعة شروط، وكأنه استقرأها:

١ - ألا يحوي على عقيدة باطلة، فإذا كانت العقيدة تردها دلائل الكتاب والسنة، فلا يجوز التفسير الإشاري.

٢ - أن يكون التفسير في نفسه صحيحًا.

٣ - ألاّ يلزم منه معنى باطل كقولهم: أن النفس لا تطيع حتى تعذب. وهذا خلاف ما جاء به الشرع.

٤ - أن يكون التفسير الإشاري في نفسه تحتمله اللغة، فما لَا تحتمله اللغة يكون تفسيرًا باطنيًا. مثاله: ما فسر به شيخ الإسلام ابن تيمية حديث النبي ﷺ: «**لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**»[1]، قال: ففيه إشارة على أن الملائكة لا تدخل قلبًا حلَّ فيه كلاب الشبهات، أو صور الشهوات[2]، وهذا صحيح مشاهد؛ لأن من شغل بالشهوات والشبهات لا يكون ميالًا لما تحبه الملائكة، أيضًا اللغة تحتمله. وما كان في تفسير (روح المعاني) ما هو مقبول، وهو قليل، وما هو مردود، وهو كثير؛ لأنه سار على طريقة الصوفية. فهذا تفسير موسوعي إشاري.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٨، ٣٢٢٦)، ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة رضي الله عنه.

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤١٨)، والمستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٧٠).

خصائص تفسير روح المعاني

س ٣١ : عن خصائص تفسير روح المعاني؟

الجواب:

١ - اهتم فيه مؤلفه بترتيب الكلام في الآيات، فهو كتاب مرتب، يأتي بالنحو، القراءات، اللغة، ثم يذكر المأثور، ثم الإشارات، فهو منظم مرتب، ليس فيه خلط.

٢ - عقيدة صاحبه في هذا الكتاب أنه ماتريدي، وهم أتباع أبي منصور الماتريدي، وهم الحنفية، ولكنه لم يلتزم بها، بل خالفها في أشياء كثيرة، وخاصة الصفات، فهو يميل إلي الإثبات، فهو أقرب ما يكون لطريقة السلف في جانب الصفات، أمّا في غيرها، فيمشي على طريقة الماتريدية، فمثلًا: حين تكلم عن الرحمة: هل هي مجاز أم لا؟ فرد كونها مجازًا.

٣ - ملأَ كتابه بالرّد على الرافضة، وهذا من أهم ما في هذا الكتاب، فما من آية استدل بها الرافضة على عقيدة الرافضة إلّا ورد عليهم، وهذا لأنه عاشرهم، فكانت ردوده دقيقة وموفقة، مثاله: قوله ﷻ: ﴿تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨] يستدل به الرافضة على أن التقية من الأصول، وقد رد عليهم في صفحات، كذلك عندما أتى في الكلام على زوجات الرسول ﷺ ردَّ عليهم، ولا يوجد كتاب يرد عليهم في التفسير إلّا هذا الكتاب.

٤ - عنايته في هذا الكتاب بالمفردات اللغوية: من حيث الاشتقاق،

والتصريف، ومن حيث المعاني، والشواهد عليه من أشعار العرب، وأيضًا عنايته بعلوم العربية: النحو، والبلاغة. فاهتم بالمباحث العربية، وهذه في الغالب تكون الأولى - أي: التحليلات اللغوية -، أما النحو والبلاغة، فهو يورد بحسب ورودها في الآية.

٥ - اهتمامه بالمسائل الفقهية، فقد أورد فيه البحوث الفقهية المتعلقة بالآية مثل: آية في الصيام، آية في الحج. . . ، ويذكر أقوال الأئمة، وأيضًا يورد أحيانًا مذهب الظاهرية، ويذكر الأدلة كثيرًا والترجيح بعبارة فائقة مختصرة، ولم يظهر تعصبه لمذهب دون مذهب.

٦ - في كتابه استفاد من كتاب (الدر المنثور) للسيوطي، لهذا نقل أقوال السلف في التفسير على طريقة السيوطي في (الدر المنثور)، وذلك في آخر الكلام عن الآيات، يقول: أخرج الحاكم. . . إلى آخره.

٧ - اعتنى بالقراءات المتواتر فيها والشاذ، وهذه القراءات لعلّ عمدته فيها كتاب (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي.

٨ - في كتابه إيراد مسائل كثيرة علمية وفلكية، وكانت تسمى في زمنه علم الهيئة، أي: الفلك، والنجوم، وأحوال الأرض، والفصول، وأورد أقوال علماء الهيئة، وما كان مخالفًا للنص الصريح ردّه، وما كان ليس كذلك أثبته، ولهذا صار تفسيرًا موسوعيًّا.

٩ - فيه عند ختام الآيات ذكر الإشارة، أي: إشارة الآية إلى المعاني الباطنية الصوفية، فيقول: ومما في الآيات من الإشارات، ثم يبدأ في ذكرها، وقد تقدم الكلام عنها.

١٠ - أنه يورد أخبارًا تاريخية وآثارًا إسرائيلية، ولم يتوسع فيها، فتخلص مما في الكتب المطولة من الإسرائيليات.

١١ - ذكر مقدمة له، ضمنها سبع فوائد متعلقة بعلوم بين يدي كتابه، وهي:

١- التفسير.

٢- التأويل.

٣- العلوم التي يحتاجها المفسر.

٤- جمع القرآن على الأحرف.

٥- كون القرآن كتاب الله.

٦- حقائق صوفية في التفسير.

٧- وجوه في الإعجاز، وغيرها..

١٢ - اعتنى بذكر مسائل كثيرة من علوم القرآن، ومن أبرزها: أسباب النزول، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأحرف المعاني، ووجوه الإعجاز، إلى غير ذلك...

هذه هي خصائص التفسير، بدون أمثلة، باختصار.

س ٢٢: نرجو أن تعطينا بعض الأمثلة من هذا التفسير.

الجواب: ذكر في خطبة الكتاب:

١ - حاله مع التفسير قبل سنّ العشرين.

٢ - السبب في تأليفه للتفسير ليلة الجمعة أن الله أمره بطي السماوات.

٣ - ذكر مقدمات التفسير أسماء كتاب الله، وذكر أنها ترجع كلها إلى القرآن والفرقان، وذكر عدة فوائد أخرى.

أمثلة على طريقته في تقريره للعقيدة في موافقة كلام السلف:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٩] قال: أي: علا إليها وارتفع من غير تكييف ولا تمثيل، وقيل: استولى وملك، وهو خلاف الظاهر لاقتضاء إلى بمعنى على، ولأن العرش مستولى عليه قبل خلق السماوات والأرض.

مثال لإيراده القراءات:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩] قال هنا: قرأ الحرميان وأبو عمرو (وما يخادعون) وقرأ باقي السبعة ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ وقرأ الجارود وأبو طالوت ﴿وَمَا يُخْدَعُونَ﴾، وما عدا القراءتان الأولى والثانية شاذة.

عند قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وهو شرعًا خروج العقلاء عن الطاعة، فيشمل الكفر وما دونه من الكبيرة والصغيرة، وهذا الكلام فيه نظر، قال: واختص في العرف والاستعمال بارتكاب الكبيرة، فلا يطلق على ارتكاب الآخرين إلا نادرًا، فسق الرطب إذا خرج من قشره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ الشاهد: حيث أورد كلام أهل الهيئة، لا يقال: إن أرباب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك، إن هي إلا سبع، وهل هي سماوات؟ لأنهم شاكون في النقص والزيادة، وأن ما وجود من. . . .

مثال الإسرائيليات: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، ذكر وهب بن منبه أن اسمه قابوس. . . . إلخ. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] قال: منع الشافعي ومالك قتل الحر بالعبد، سواء كان عبده، أو عبد غيره، ليس للآية، بل للإجماع والقياس، وأن الرسول ﷺ «**نهى عن قتل حر بعبد**»، ولأنه لا قصاص في الأطراف في العبد. . .، وقوله: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ المروي عن ابن عباس، والنخعي، والثوري أنه منسوخ . . . إلى آخره.

تفسير (مفاتيح الغيب)

س ٢٣: نرجو أن تعطينا نبذة عن تفسير (مفاتيح الغيب).

الجواب: مؤلفه: محمد بن عمر البكيزي الطبرستاني الرازي، معروف بابن خطيب الرازي؛ لأن والده كان خطيبًا، ولد سنة **٥٤٤** هـ، ت **٦٠٦** هـ، عاش **٦٢** سنة، عرف بأنه متكلم، أُصولي، فقيه، منجم، وكتابه (مفاتيح الغيب) المشهور أنه للرازي، وكل الدلائل دلت على أنه لم ينفرد بتأليفه، فقد ألف فيه أكثره، ولكنه لم يكمله، وكمله بعده القموبي، والخويني، لأنه في سورة الواقعة أحال على كلام الرازي في موضع سبق، فقال: وقد تكلم عليها الإمام في موضع سبق، وقد ألف الرازي من أوله إلى الأنبياء، وما بعده لا يجزم أنه عمل فلان، أو فلان وما حذوه، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر في (الدرر الكامنة)، وكذلك. . . (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون).

خصائص تفسير (مفاتيح الغيب)

س ٢٤: ما أبرز خصائص تفسير (مفاتيح الغيب)؟

الجواب:

١ - يفسر الآيات على شكل مسائل، وأحيانًا يورد معنى إجماليًّا، ثم يورد الكلام على الآية، فليس مطرد إيراده للمسائل.

٢ - اعتنى في كتابه بعلوم اللغة، ففيه مباحث من حيث المفردات، والتصريف، والإعراب، ويورد الشواهد على ما يذكر.

٣ - اعتنى بعلوم القرآن، يذكر أسباب النزول والمناسبات، وهو من أوائل من تكلم في المناسبات.

٤ - اعتنى بذكر اللطائف والنكات في التفسير التي تتعلق باللغة، والمناسبات، والعلوم المختلفة.

٥ - كتابه هذا عمدة في بيان العقيدة الأشعرية، فصاحبه متكلم أشعري، فقرر في كتابه ما يقرره الأشاعرة؛ ولذلك رد على المعتزلة، وكذلك رد على أهل السنة.

٦ - أورد في كتابه الشبهات في العقيدة، في النبوة، في القرآن، وتقريره لهذه الشبهات مفصلًا، يذكر الأقوال والأدلة، حتى تظن أن هذا القول اعتقاده، وأنه الحق، ثم يرد عليه؛ والسبب أنه أراد إظهار ما لديه من علوم، وإيراده لهذه الشبهة تارة، ويكون الرد مناسبًا، وتارة يكون قليلًا، فتقع

الشبهة، ولا يكون الرد مقنعًا، وأحيانًا يورد الشبهة، ويقول: الرد في موضع آخر، ولذلك قال العلماء المغاربة: يورد الشبهات نقدًا، ويردها نسيئة، وهذا من المآخذ عليه.

٧ - في هذا الكتاب إيراد لعلوم مختلفة مما لا صلة له بالتفسير، مثل: النجوم، والتنجيم، وإن وجد مناسبة تتعلق بالفلكيات والنجوم، أورد ما يتعلق بذلك من النجوم، وقد ألَّف كتابًا في النجوم أسماه: (السر المكتوم في أسرار الطلسمات ومخاطبة النجوم)، وهذا لا شك أنه مما لا يجوز أن ينظر فيها هذا النظر؛ لأن النجوم خلقت زينة، وليهتدي بها الناس، ورجومًا للشياطين، ومن ابتغى غير ذلك فقد أخطأ، وهذا يسمى علم التسيير.

٨ - في كتابه ذكر للقراءات، وهو صاحب آراء في القراءات والأحرف، فهو يوردها منسوبةً إلى أصحابها، وهذا ليس غالبًا، بل إذا احتاجه.

٩ - في كتابه ذكر للمسائل الفقهية والخلاف فيها، وهو شافعي المذهب، ينتصر لمذهبه، ويورده.

١٠ - فيه تحرير وذكر لمسائل أصولية مهمة، ولا غرابة، فمؤلفه عمدة في الأصول، له كتاب (المحصول) وغيره.

مؤلفات الرازي

س ٢٥: نرجو من فضيلتكم أن تلقي بعض الضوء على الرازي، وأبرز مؤلفاته.

الجواب: له في الكلام كتاب: (المطالب الإلهية)، في الأصول له كتاب (المحصول)، في النجوم له كتاب: (السر المكتوم في أسرار الطلسمات ومخاطبة النجوم)، وقد ألّفه لملك حران، وكانوا صابئة، وأراد أن يظهر بذلك علمه، فعلَّمهم كيف تنشأ الهياكل، وتؤثر فيما يكون - أي: النجوم - وهذا شرك، ذكر شيخ الإسلام أنه كفر بهذا الكتاب، وذكر ابن أبي أُصيبعة في كتابه (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) أنه وجد له وصية فيها توبة، ولذلك قال فيه شيخ الإسلام: فيه كل شيء إلا التفسير، وقال فيه ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان): جمع فيه كل غريب وغريبة.

أمثلة: قال ﷻ: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فيه مسألتان: أورد شُبهة: هل هو مصدق لكل ما في القرآن أم لا؟ وقد أجاب عليها، وأورد مسائل في النحو.

تفسير (البحر المحيط)

س ٢٦: عن أبرز التفاسير اللغوية أو النحوية، وما المقصود بها؟

الجواب: التفاسير اللغوية، والنحوية، ويقصد بها التي اهتمت بإعراب القرآن مفردة، ومنها: (الطارقيات) لابن خالويه، وصيغ باسم (إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم)، أيضًا كتاب (إعراب القرآن) للنحاس،

وكتاب (إملاء ما مَنَّ به الرحمن) للعكبري، هذه أفردت الإعراب، ومن الكتب التي جعلت الإعراب مقصودًا مع غيره كتاب (البحر المحيط) وغيره من الكتب التي ذكر فيها الإعراب مفصلًا، ولا شك أن تفسير أبي حيان اعتنى فيه بالنحو.

س ٢٧: عن أسباب ظهور هذه المدرسة؟

الجواب: لظهور هذه المدرسة أسباب:

١ - أن المؤلف في تلك الكتب الفن الذي غلب عليه النحو، فابن النحاس نحوي، والعكبري، وأبو حيان.

٢ - أن فهم الإعراب والنحو ينبني عليه فهم التفسير، فكثير من الأحيان يكون وجه التفسير مبنيًّا على فهم الإعراب، فنجد مثلًا في العكبري أن هناك خلافًا في الإعراب ينبني عيه خلاف في التفسير.

٣ - أن هؤلاء النحاة أرادوا تحقيق كثير من المسائل النحوية، والحجة فيها القرآن والقراءات المختلفة، فأرادوا تحقيق المسائل في ضمن تفسيرهم للقرآن.

س ٢٨: عن ترجمة أبي حيان الأندلسي؟

الجواب: هو أثير الدين محمد بن يوسف الحياني الغرناطي الأندلسي، ولد سنة ٦٥٤هـ، وتوفي سنة ٧٤٥هـ، عاش بين القرن السابع والثامن، أبو حيان قدم من الأندلس إلى مصر ودخل الإسكندرية، وهو مكثر من الشيوخ، قرأ عليهم القراءات، والفقه، وكان يميل إلى الظاهرية، وكان يقول عن سبب انتشار اسمه: وما نشر اسمي إلا غرابة اسمي، وظهر نبوغه

في الفنون كلها، من مشايخه المشهورين: ابن النقيب، وله تفسير اسمه: (التحرير والتحبير لأقوال أهل التفسير) في مائة مجلد، وقد استفاد منه أبو حيان.

لما أتى شيخ الإسلام إلى القاهرة، وصدع بالدعوة، أعجب به أبو حيان، ومدحه بأبيات، وكان مرة في مجلس شيخ الإسلام، فتكلم عن سيبويه، فقال ابن تيمية: هذه غلط، فقال: تقول أخطأ سيبويه؟. قال: نعم، في ثمانين موضعًا، فغضب، وخرج من مجلسه، ومزق أبياته التي مدحه بها، كان بينه وبين ابن هشام مناقشات، فابن هشام يسهل النحو، وأبو حيان يغلق النحو؛ لأنه ينحو منحى سيبويه، قوي العبارة.

س ٢٩: ما أبرز مؤلفات أبي حيان الأندلسي؟

الجواب: لقد ألف كتبًا كثيرة، ومنها:

١- هذا التفسير (تفسير البحر المحيط).

٢- وأيضًا كتاب اسمه (غريب القرآن)، أو (تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب).

٣- وله منظومة في القراءات على وزن الشاطبية، ولكنه أخلاها من الرموز، ولكن مع سهولتها لم يكتب لها القبول، فلم تحفظ، ولم تشرح شروحًا كثيرة، حتى الطباعة لم تُطبع.

٤- وكتاب (خلاصة البيان في البلاغة).

٥- أيضًا كتاب (شرح التسهيل في علوم النحو) التسهيل هذا لابن مالك، وقد كان سليم العقيدة، متبعًا لطريقة السلف.

س ٣٠: عن خصائص تفسير البحر المحيط؟

الجواب:

١ - قدم له بمقدمة ذكر فيها العلوم التي يجب على المفسر أن يعتني بها، فذكر:

١ - اللغة. ٢ - العقيدة. ٣ - التوحيد. ٤ - السنة. ٥ - علوم القرآن.

٦ - أصول الفقه. ٧ - القراءات. ٨ - التاريخ.

٢ - أنه وضع شرطًا له في هذا الكتاب، وقرر أن ترتيبه في الكتاب يكون على النحو التالي، وهذا يسمى منهجًا، فمنهجه - كما قال -:

* الكلام على مفردات الآية المفسرة، لفظةً لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والنحو، وذلك قبل التركيب، ويقصد به الصرف، ويذكر معانيها، وإن تكررت، فلا يعيد بل يحيل.

* يشرع في تفسير الآية، ويشمل نقاطًا:

أ - ذكر سبب النزول إن وجد.

ب - نسخها.

ج - مناسبتها وارتباطها بما قبلها.

د - حشد القراءات شاذها ومستعملها وتوجيهها.

هـ - نقل أقوال السلف والخلف في فهم معانيها، متكلّمًا على جليّها وخفيّها.

و - يبدي ما في الآية من غوامض الإعراب، ويذكر ما يتعلق بالبلاغة.

٣ - نقل أقوال الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما له تعلق بالآية، دون ذكر الأدلة، بل يحيل عليها.

٤ - ذكر القواعد النحوية، والإحالة عليها في كتب النحو، فلا يورد شرحها، ولا التقرير عليها، أو المسائل النحوية، ولكن ليس مطردًا، فقد يذكر إن كان في الحكم غرابة، فإنه يذكر الدليل عليه.

س٣١: هل أبو حيان يورد الأدلة النحوية؟

الجواب: القاعدة أنه لا يوردها، ولكن قد يوردها إذا كان ذلك القول مخالفًا لما ذهب إليه أكثر الناس.

٥ - أبعد في كتابه عن وجوه الإعراب البعيدة المتكلفة، التي لا تصلح للقرآن؛ لأن القرآن أحسن الكلام، وأحسن الحديث، فيحمل على أحسن تركيب، فلا يجوز أقوال الشعراء كالشماخ، والطرماح ويحملها على القرآن؛ فالقرآن هو أحسن الكلام.

٦ - ثم يختم الكلام في جملة من الآيات، التي فسرها إفرادًا وتركيبًا بما ذكر فيها من علم البيان والبديع ملخصًا.

٧ - ثم يتبعه بكلام منثور إجمالي لتفسير الآيات، ثم قال بعده: وسنقف على هذا المنهج إن شاء الله.

٨ - ربما أورد في كتابه بعض كلام الصوفية مما فيه مناسبة، أو بعض مناسبة لمدلول اللفظ، لكنه قال: تجنبت كثيرًا من أقاويلهم التي يحملونها

الألفاظ، وربما أورد بعض الكلام.

٩ - نزَّه كتابه عن أقوال الملحدين، الباطنيين، الإسماعيليين. . . ، وغيرهم.

١٠ - اعتنى في كتابه بصحة أسباب النزول، وما يورد من أحاديث الفضائل، وترك ما لا يصح، قال في مقدمة كتابه عن المفسرين: وكذلك ذكروا ما لا يصح من أسباب النزول، وحكايات في الفضائل، وإسرائيليات ولا ينبغي ذكر هذا في التفسير.

١١ - الكتاب فيه فوائد كثيرة متنوعة متعلقة بتجارب المؤلف، وآرائه في الحياة، وما مر عليه، ومن أمثلة ذلك: ما ذكره عند قوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝﴾ [الشعراء٥٧، ٥٨] الآية، أين هذه الكنوز؟ يقول: أهل مصر يعتقدون أن هذه الكنوز في جبل شرق القاهرة يقال له: المُقَطَّم، وهم لا يزالون يحفرون فيه، وذكر أيضًا أن أهل الأندلس لا يعرفون كتب المنطق، بل كانت تُدس، وأما في القاهرة، فهي موجودة في كل مكان من منطق، وفلسفة، فإذا أراد رجل من أهل الأندلس كتب لأخيه في مصر أن يعطيه كتاب في (المَفْعِل)، وذكر أنه رأى اليهود يهزون رؤوسهم عند قراءة التوراة، ذكره عند قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١].

١٢ - هذا الكتاب يعتبر من التفاسير التي سلمت من البدع في العقيدة، فهو سلفي المعتقد في الجملة؛ ولهذا كلامه في العقيدة جيد سواء في الصفات، أو توحيد العبادة.

١٣ - في هذا الكتاب بعد كثيرًا عما في كتب المفسرين من الإسرائيليات والأقوال الغريبة.

١٤ - في هذا الكتاب ردود على الزمخشري، وقد مدحه مرة، حتى بلغ به مكانًا عظيمًا، ثم نزل به تارات، حتى قال: إن هذا الرجل لا يدري ما الذي يخرج من رأسه، فهو يتعقبه في مسائل النحو.

س ٣٢: هل المدرسة الفقهية من مدارس التفسير بالرأي؟

الجواب: من المدارس المشهورة والمعروفة التي كثر تأليفها، وهي التي اعتنى فيها العلماء الذين ألَّفوا في التفسير بذكر أحكام القرآن، إما استيعاب كلها، أو بعضها، وأحيانًا ما تتصل به الآية، وأحيانًا ما نصت عليه الآية، ومن أوائلها ظهورًا:

مدرسة التفسير الفقهي الشافعي: وأول من ألف فيه: محمد بن إدريس الشافعي، وهذا كتاب مفقود، وكتابه (الأُم) ضمنه كثيرًا من أحكام القرآن، الذي حدا بالبيهقي جمع كتاب في أحكام القرآن حول ما ذكره الشافعي في (الأُم) وغيره من كتبه، وجمعه في مجلدين، وهذا كان في أوائل القرن الثالث.

وأيضًا: القاضي المالكي إسماعيل بن إسحاق صنف كتابًا في أحكام القرآن، ولكنه غير موجود، ولكن هناك كتبًا أخرى نقلت عنه؛ ككتاب ابن العربي، والقرطبي، ونقل عنه ابن حزم في (المُحلى)، وممن ألفوا مبكرين -أيضًا - في المذهب الحنفي القاضي أبو بكر الجصاص الحنفي، له كتاب

اسمه (أحكام القرآن) للجصاص، وقد قسمه إلى قسمين:

الأول: ذكر فيه أصول الاستنباط، وأصول الأحكام ما يعرف بأصول الفقه.

الثاني: ذكر فيه أحكام القرآن، وقد ذكر أنه لما فرغ من القسم الأول من هذا الكتاب، أتبعه القسم الثاني، كأنه ذكر أصول استنباطه للأحكام، وهذا كتاب مشهور وعمدة عند الحنفية.

ثم جاء البيهقي وجمع (أحكام القرآن) للشافعي، وجعل ترتيبه على الأبواب، لا على السور؛ كما فعل المزني في كتابه، وهذا من كتب الشافعية. ثم صنف بعده أبو بكر بن العربي كتابه المعروف (أحكام القرآن)، وهو مطبوع في جزأين، ثم طبع في أربعة مجلدات، وقد تكلم عن الآيات بكلام حسن، وأورد استنباطات من الآيات؛ كما ذكر عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، ذكر أن الله امتن بهذه الأشياء، ومنها ما هو نفيس، ومنها ما هو متوسط، ومنها ما هو دون ذلك، ومنة الله تكون بما هو مباح، ويكون استعمال النبيذ في الألبسة.

أيضًا: كتاب الكيا الهراسي، له كتاب في أربعة أجزاء اسمه (أحكام القرآن) وفيه ميزة أن مؤلفه استنبط من الآيات دون النظر إلى المذاهب، فتارة يوافق الشافعي، وتارة يخالفه، وقد ردَّ في كتابه على أبي بكر الجصاص.

وفي المذهب الحنبلي (تفسير الرسعني) عاش في القرن السادس الهجري، وابن العادل الحنبلي، ومن أكبر المؤلفات في أحكام القرآن،

وأحسنها كتاب (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله القرطبي، أثنى عليه ابن القيم وغيره، وهذا من الكتب المالكية، وقد طبع طبعات عدة، ومنها طبعة جيدة مدققة في طبعة (دار الكتب المصرية)، وهي معتمدة، وقد تميز بأنه فيه من العلوم المتنوعة، والأحكام، والفوائد ما لا يوجد في غيره، وقد صدر له فهرس بعنوان: (الكشاف التحليلي للمسائل الفقهية في تفسير القرطبي)، فقد أورد في مقدمته العلوم المتنوعة، التي أوردها القرطبي في كتابه، فذكر الأوائل مثل: أول من حضر، أول من كتب، أول من صلى. . . إلى آخره، وكذلك ضمنه الفروق المتنوعة، الفرق بين العلم والمعرفة، والمكفوف والأعمى. . . . إلى آخره، وكذلك في المسائل الفقهية قدم المسائل الفقهية، ففيه ما لا يخطر على البال.

س ٣٣: نرجو من فضيلتكم نبذة مختصرة عن القرطبي.

الجواب: هو أبو عبد الله بن أحمد فَرْح الخزرجي الأنصاري القرطبي الأندلسي، ممن رحل من الأندلس إلى مصر، وسكن بها حتى مات، وقد وصف بأنه من المتزهدين.

س ٣٤: ما أبرز مؤلفات القرطبي؟

الجواب: القرطبي له تآليف كثيرة منها:

١ - (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) ولكن فيه تأويلات.

٢ - كتاب (التذكار في أفضل الأذكار).

٣ - (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة).

٤ - (الجامع لأحكام القرآن) والذي نحن بصدده.

س ٣٥: من أبرز مشايخ القرطبي؟

الجواب: له مشايخ كثيرون، أشهرهم: أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي، أحد علماء الحديث وحفاظه، وهذا الشيخ هو الذي يكثر النقل عنه في كتب الحديث، وذلك أنه ألف كتابًا لخص فيه (صحيح مسلم) وشرحه بشرحٍ عظيم، سماه: (المفهم لما أشكل من صحيح مسلم)، وقد استقر القرطبي في مُنية الخصيب وتوفي سنة ٦٧١هـ.

س ٣٦: ما اسم كتابه، وما أبرز خصائصه؟

الجواب: اسم كتابه: (الجامع لأحكام القرآن والمبين عما تضمنه من السنة وآي الفرقان)، قوله الجامع: يوحي بأنه جمعها من مؤلفات متفرقة، وهذا الكتاب من الكتب التي وضع لها شروطًا، وقد نص عليها في المقدمة.

شروطه فيه:

١ - قال هو تعليقٌ وجيز.

٢ - يتضمن نكتًا من التفسير، يعني: أنه لا يطيل في التفسير، بل يذكر المهم.

٣ - يتضمن نكتًا من اللغات، يعني: تحليل الكلمة من جهة الصرف، والاشتقاق، والشواهد، وهذا مما تميز به، وفاق به غيره، اعتماده على ابن فارس في الاشتقاقات.

٤ - بعض نكت من الإعراب، يذكر المفيد منه.

٥ - يتضمن نكتًا من القراءات، والموجود في كتابه جميع القراءات

المتواترة، والشاذة، واعتمد على كتاب (المحتسب) لابن الجني، والظاهر أن المراد بقوله نكت منها.

٦ - الرد على أهل الزيغ والضلالات، والقرطبي كان أشعريًّا متكلمًا، فقد رد على (الحشوية)، وهذا اسم أطلقه المتكلمون على المجسمة، وقد يعنون أهل السنة والجماعة، وهم بريئون من ذلك، وأيضًا ردَّ على الباطنية، والرافضة، والصوفية؛ فقد ذكر الذكر المبتدع وغيره، مما هو شائع عند أهل التصوف.

٧ - ذكر فيه أحاديث كثيرة، تشهد لما ذكره من الأحكام، أو أسباب النزول، وشرطه في الأحاديث أن يضيفها إلى مصنفيها.

٨ - أنه خلص كتابه من كثير من القصص في التاريخ، والإسرائيليات إلاّ ما لا بد منه من فهم الآية.

٩ - جعل كتابه مضمنًا لتفسير آيات الأحكام وما فيها من الأحكام، جعل تفسيره للآي تارة على مسائل، وتارة بدون ذكر مسائل.

وشرطه في ذلك: أن الآية إذا تضمنت حكمًا، أو حكمين، فأكثر، فيجعل تفسيرها على شكل مسائل، وإن لم تتضمن أي حكم، فسرها سردًا بدون مسائل.

قدم لكتابه بمقدمة طويلة، تحتوي على كثير من علوم القرآن.

ومن تلك المسائل:

- باب ذكر جُمل من فضائل القرآن.

- باب كيفية التلاوة لكتاب الله.

- باب تحذير أهل القرآن من الرياء.

- باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ به، والمراتب التي ينبغي له الأخذ بها.

أمثلة على ميزاته: قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] ليس فيها مسائل.

قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] يقول: فيها ست وعشرون مسألة، ذكر بعض الإعراب، والتحليل اللغوي لكلمة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، فنلاحظ أنه ذكر ما يتعلق باللغات، وما يتعلق بالإعراب، وما يتعلق بالتفسير.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ذكر أقوال المتكلمين في معنى القدرة.

س ٣٧: عن تفسير (الكشَّاف) مؤلفه، وخصائصه؟

الجواب: تفسير مشهور وكبير، اسمه: (الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

مؤلفه: أبو القاسم جار الله محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، معتزلي العقيدة، وحنفي المذهب، ولادته **٤٦٧**هـ، ولقب بجار الله؛ لأنه كان يكثر الترداد على مكة، ويجاور بيت الله؛ حتى أنه ألف تفسيره في مكة، وكان معتزليًّا، يفخر بذلك، ذكر عنه ابن خلكان: إذا طرق على أحد بابًا،

قال: أبو القاسم المعتزلي، يدل عليه أنه في أول نسخة في كتابه قال: الحمد لله الذي خلق القرآن، توفي سنة ٥٣٣ هـ، عاش ٦١ سنة. هذا الكتاب صنفه مؤلفه للمعتزلة؛ لأنهم هم الذين طلبوا منه، فهو من تفاسير المعتزلة، واعتنى به العلماء لما فيه من الفوائد اللغوية، وقد ردوا عليه، ولكنه مليء بالاعتزاليات، حتى قيل: أنه لا يخرج منه الاعتزاليات إلاّ بالمناقيش.

س ٣٨: لماذا لا يجعل تفسير (أحكام القرآن) للقرطبي، أو تفسير الرازي من ضمن التفاسير بالمذموم.

الجواب: لأنها لم تشتمل عليه قصدًا، وإن كان من الرأي المذموم.

س ٣٩: عن سبب تأليف الكشاف؟

الجواب: **سبب تأليفه**: ما ذكره في أول الكتاب من قوله: ولقد رأيت إخواننا في الدين من أهل الفئة الناجية العدلية أن يجمع لهم كتاب فيه تفسير القرآن، فهذا التأليف بسبب طلب أهل الاعتزال، فهو ملتزمٌ في العقيدة بكلام أهل المعتزلة، ولذلك يُعنى به أهل اليمن؛ لأن فيهم كثرة زيدية، وهم أقرب للمعتزلة، فكتبه إملاءً سورة (الفاتحة والبقرة)، فطلب منه أحد أمراء مكة ما قد كتبه، فرأى أن يكتب تفسيرًا للقرآن كله، وكانت مدته في تأليفه مدة خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر، وقد مُدح كتابه مدحًا عظيمًا، ومن مدحه:

إِنَّ التَّفَاسِيرَ فِي الدُّنْيَا بِلَا عَدَدِ ... وَلَيْسَ فِيهَا لَعَمْرِي مِثْلُ كَشَّافِي

في كتابه ابتدأه بتقرير مذهب المعتزلة، فقال في أوله: الحمد لله الذي خلق القرآن، وقد اعترض عليه بسببها، فغيَّرها بقوله: الحمد لله الذي

جعل القرآن، وجدت منه نسخ في أوله: الحمد لله الذي أنزل القرآن، قال ابن خلكان: أن أصحابه هم الذين غيروه؛ لما رأوا فيه من الفائدة.

س ٤٠: ما خصائص تفسير (الكشَّاف)؟

الجواب:

١ - استخدامه لعلوم البلاغة: البيان، والمعاني، والبديع، وخاصة البيان، والمعاني في التفسير، ويطبقها على فهم آي القرآن، وهذا لم يسبق إليه، له كتاب (أساس البلاغة).

٢ - ملأ الكتاب بذكر أوجه الإعجاز اللغوي للقرآن، ومنها ما يتصل بالمباحث البلاغية، فجعل الإعجاز من مهمات تأليفه، والمعتزلة يعتنون بالإعجاز، ومنهم عبد القادر الجرجاني في (إعجاز القرآن)، والزمخشري يُبيِّن الإعجاز من جهة الألفاظ.

٣ - ذكره لكثير من الأشعار العربية والشواهد على معاني الألفاظ، مما لا يوجد في غيره، وقد خرجت هذه الأبيات في مجلد مفرد.

٤ - احتوى هذا الكتاب على مباحث متنوعة في النحو، وعلوم العربية مما تميز به الزمخشري.

٥ - صاغ كتابه صياغةً عجيبة من حيث الأسلوب، وحسن السبك، وهذا لا يقدر عليه كل أحد.

٦ - هذا الكتاب اعتني به من جهة ما أورده من الأحاديث، منها ما هو معروف، ومنها ما هو غير معروف، فخدم العلماء هذه الأحاديث، ومنهم الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف)، والحافظ ابن حجر في (تخريج

أحاديث الكشاف)، والزمخشري ليس من أهل الدراية في الحديث، فيورد أحاديث ضعيفة وموضوعة.

٧ - اعتناؤه بالفقهيات قليل، فهو حنفي المذهب، وإيراده لها من وجهة نظر الحنفية، مثاله: وقد نقلها عند قوله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٨ - الإسرائيليات في الكتاب قليلة، وإذا أوردها، فإنه يوردها على سبيل الحكاية، فيقول: قيل، حكي، وأكثر ما يورده مما ليس له أثر سلبي على كتابه.

٩ - كتابه أصل من أصول المعتزلة التي يرجعون إليها، فقد شحنه بإيراد المباحث الاعتزالية في العقيدة، ويأتي تفصيل هذه المسألة من جهة عيوب الكتاب.

س ٤١: نرجو من فضيلتكم ذكر أمثلة مما أورده الزمخشري من المسائل الاعتزالية.

الجواب: من ذلك: ما أورده صاحب (التفسير والمفسرون):

١ - جعله المحكم ما قرره المعتزلة في عقائدهم، والمتشابه الأدلة التي تنقض عقائد المعتزلة، فمثلًا عند قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] يرى الأولى: محكمة، والثانية: متشابهة، وعليه يجب أن تكون الثانية متفقة مع الأولى، فيحملها على عدم الإبصار، كذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً

أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] الأولى محكمة، والثانية متشابهة، فلا بد من حمل المحكم على المتشابه، فعنده المتشابه يلغى، أما عند أهل السنة، فهو مقيد في بعض الأحيان.

٢ - انتصاره لمذهب المعتزلة في أصحاب الكبائر، فهم عندهم في الدنيا في منزلة بين المنزلتين، وفي الآخرة مخلدون في النار، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ [النساء: ٩٣] يقرر هنا أن مذهب المعتزلة أن صاحب الكبيرة خالد مخلد في النار.

٣ - انتصاره لمذهب المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، مثاله: ما ذكره: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

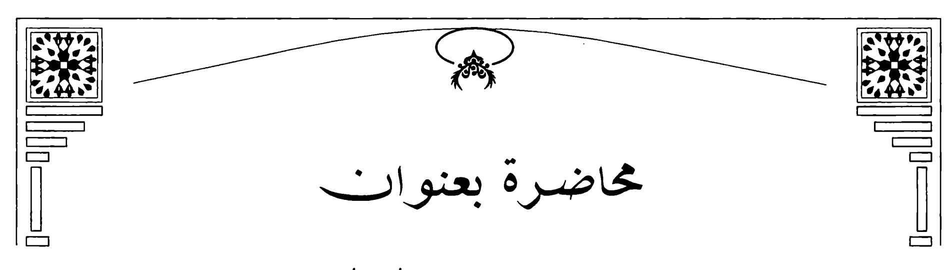
٤ - انتصاره لمعتقد المعتزلة في السحر، فهم ينفون السحر؛ لئلا يشتبه الخارق بالمعجزة، ذكره عند: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]

٥ - في مسائل القدر ينتصر لمذهب المعتزلة.

٦ - تلقيبه أهل السنة بألقاب بذيئة: الحشوية، القدرية، ووصفهم بأوصاف فيها استهزاء وسخرية.

٧ - تعبيره بتعبير فيه انتقاص للنبي ﷺ، وهذا في سورة التكوير، والتحريم، ولذلك كان السبكي يقرأ هذا الكتاب، فلما وصل إلى هذا الموضع، قال: استحييت أن أقرأ كتابًا فيه مثل هذا، فتوقف عن قراءته، وقد ألف رسالة اسمها: (سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف).

❀ ❀ ❀



مدارس التفسير ١٤١٤/٤/٢٤هـ

الحمد لله الذي نزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، نحمده ونثني عليه الخير كله، وهو للحمد وللثناء أهل، حمدًا متوافرًا متتابعًا، دائمًا لا ينفد، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين. أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يلهمني وإياكم الرشد والسداد والتوفيق في الأمر كله، نعوذ به من فتنة القول، ومن فتنة العمل، نعوذ به من أن نَضل به، أو نُضل، أو أن نَذل، أو نُذل، أو أن نَجهل، أو يُجهل علينا، ثم إن هذه الدروس التي ستكون في تفسير كلام المنان ﷻ، ومع ذلك التفسير نبذ من أصول التفسير، ومن معاقده وقواعده، هذه الدروس إنما هي فتح أبواب لمن رام علم التفسير، وقد كان السلف الصالح ﷺ من الصحابة فيمن بعدهم يعتنون كثيرًا بتفسير كلام الله ﷻ، وبفهم معانيه؛ لأنه هو الحجة على الخلق؛ ولأن التعبد وقع به، وبتلاوته، وبفهم معانيه، وبأشياء كثيرة غير ذلك، فلا غرابة أن ظهر كثير من الصحابة، وقد اعتنوا بهذا العلم - علم التفسير -؛ لحاجة المؤمن في نفسه إليه، ثم لحاجة الأمة إلى هذا العلم، فلا أعظم من أن يُشرح للناس،

وأن يُفسر لهم، وأن يُبين كلام الله ﷻ؛ إذ هو الحق الذي لا امتراء فيه، وهو الحجة التي ليس بعدها حجة، وهو القاطع الذي تقنع به النفوس، وترضى به دليلًا وبرهانًا، وحجة عند الاحتجاج وإيراد البرهان والدليل.

وهذا الكتاب العظيم جعله الله ﷻ كتابًا بلسان عربي، بل بلسان عربي مبين، يعني: بينًا في نفسه، ومبينًا لما يحتاجه الناس من الأخبار ومن الأحكام، والنبي ﷺ قد بين للناس ما نُزِّل إليهم، بين للصحابة ﷺ ما يحتاجونه من معاني كلام الله ﷻ، إذ قد كُلف بذلك ﷺ؛ لقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، لكن حاجة الصحابة ﷺ لم تكن في فهم كلام الله ﷻ كحاجة غيرهم، بل إنهم إنما احتاجوا بعض التفسير؛ وذلك لعلمهم بمعاني كلام الله ﷻ؛ لأنه نزل باللسان الذي يتكلمون به، وباللغة التي ينطقون بها.

فسر النبي ﷺ آيات كثيرة من القرآن فيما نُقل إلينا، لكن لم يُنقل إلينا أن النبي ﷺ فسر أكثر القرآن، بل إنما كان تفسيره ﷺ للقرآن فيما نُقل إلينا ليس بالكثير، وقد ثبت أن النبي ﷺ فسر القوة - مثلًا - بالرمي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقال: «**أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[1] وفسر ﷺ قوله ﷻ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] بأن المغضوب عليهم هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى[2]، وكذلك فسر ﷺ الزيادة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم (١٩١٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص٨).

أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] بأنها النظر إلى وجه الله الكريم[(١)]، ولكن مع ثبوت كثير من التفسير عنه ﷺ، لكن لم يفسر للصحابة كل القرآن، نعم بين لهم معاني القرآن، وأفهمهم معاني القرآن بحسب حاجاتهم، وهكذا من بعد الصحابة من التابعين، الصحابة نقلوا لهم التفسير الذي سمعوه عن النبي ﷺ، أو الذي أوتوه من العلم بالقرآن بمعاني آي الذكر الحكيم، وكان نقلهم لذلك قليلًا بالنسبة لما تكلم به المفسرون بعد ذلك من تفسير آيات القرآن، وذلك لأن القرآن - كما سبق - نزل بلسان عربي مبين، والناس إذا اعتنوا باللغة، فهموا كثيرًا من القرآن، وربما لم يعلموا بعض الآي، وذلك لعدم العلم ببعض اللغات، أو لأسباب أخر تأتي في موضعها مفصلة - إن شاء الله تعالى -، من ذلك مثلًا أن عمر رضي الله عنه كان يتلو كثيرًا سورة النحل على المنبر يوم الجمعة، وذات مرة تلا السورة، وتوقف عند قوله عز وجل: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ [النحل: ٤٧] فقال: ما التخوف؟ كأنه لم يظهر له أن التخوف من الخوف، ورام رضي الله عنه معنىً آخر ليكون أكثر دلالة على المعنى المراد في الآية، فقال رجل من هُذيل في المسجد: يا أمير المؤمنين، التخوف في لغتنا التنقص، قال شاعرنا الكبير الهُذلي يصف ناقة[(٢)]:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

ومعنى تخوف: أي: تنقص، فإذًا يكون أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في عدم علمه بتفسير هذه الآية على هذا الوجه من التفسير، كان من جراء أن هذا

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٠).

(٢) سبق عزوه (ص ١٠)

اللفظ - وهو التخوف - كان على لغة هُذيل، فسأل عنه رضي الله عنه، وهكذا في كثير من الآيات لا يُجزم بأن الصحابة رضي الله عنهم علموا معنى كل آية، أو علموا معنى كل كلمة في كل آية، بل ربما لم يعلموا بعض ذلك، وعلمهم بذلك بالأكثر، لكن هذا باعتبار أفرادهم، أما مجموع الصحابة رضي الله عنهم، فهم يعلمون معاني كلام الله عز وجل، فلا يفوت معنى من معاني القرآن على مجموع الصحابة، بل العلم بكلام الله عز وجل محفوظ في كلام الصحابة، وما فسر به الصحابة القرآن إنما هو بعض علومهم بالقرآن، فقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ما من آية في القرآن إلا وأعلم معناها، وأعلم متى أنزلت، وأين أنزلت، وفيما أنزلت؛ كما رواه ابن كثير في مقدمة التفسير ورواه غيره(١).

وإنما فسر الصحابة رضي الله عنهم القرآن بحسب الحاجة، إما لحاجة السؤال: يأتي سائل، ويقول: ما معنى قول الله عز وجل: كذا وكذا؟ وربما فسروه ابتداءً في كلامهم فيما يعلمون به الناس، اشتهر من الصحابة رضي الله عنهم في التفسير كثير، ولكن أكثرهم تفسيرًا أربعة، وهم: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعبد الله بن مسعود، وأُبَي بن كعب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، هؤلاء الأربعة أكثر المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في التفسير يدور عليهم.

والخلفاء الراشدون نُقل عنهم التفسير - أي: أبو بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم - نُقل عنهم أشياء من التفسير؛ كما روى أحمد وغيره أن أبا بكر رضي الله عنه تلا قول الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه

(١) انظر: مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ٥٤).

الآية، وتضعونها في غير موضعها، وقد سمعت رسول ﷺ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ لا يُغَيِّرُونَهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ**»[1]، ولقد نُقل عن أبي بكر أشياء كثيرة في التفسير، ونقل عنه أنه أحجم عن تفسير بعض الآي، وكذلك عن عمر رضي الله عنه[2]، لكن المشهورين بالتفسير من الصحابة هم الأربعة الذين ذكرت أسماءهم آنفًا.

وتفاسير الصحابة رضي الله عنهم هي التفاسير الأثرية التي يُعلم بيقين أنهم أصابوا فيها؛ إذ لا يُحْرَمُ الصحابة العلم، ويؤتاه من بعدهم، فالعلم النافع، العلم الذي هو علم صحيح، لا بد أن يكون عند الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا كان أشرف التفسير، وأعظم التفسير، وأبلغ التفسير ما كان منقولًا عن الصحابة رضي الله عنهم، وهذا يأتي مفصلًا - إن شاء الله - في مقدمة التفسير، يسَّر الله ذلك.

تفاسير الصحابة رضي الله عنهم تميزت بمزايا كثيرة، منها: أنهم كانوا يعلمون القرآن، والمفسر يحتاج في مصادر تفسيره أن يعلم القرآن؛ لأن بعض الآي تكون مفصلة في موضع، وتكون مجملة في موضع آخر، ويعلمون سنة النبي ﷺ، والعلم بالسنة لابد منه في فهم كلام الله عز وجل؛ إذ السنة مبينة للقرآن، مبينة لمجمله، وربما مقيدة لمطلقه، وربما مخصصة لعامه، ونحو ذلك من العلوم النافعة التي لابد للمفسر منها، فالصحابة رضي الله عنهم تميزت تفاسيرهم بأنهم يفسرون كثيرًا القرآن بالقرآن، وهذا التفسير قد يكون موضحًا فيه من قِبَل الصحابي الذي فسر أنه اعتمد على آية في تفسيره، وقد يكون ذلك مذكورًا،

---

(١) سبق تخريجه (ص٩).
(٢) سبق تخريجه (ص٩، ٥٧).

وإنما يعلم ذلك أهل العلم، وكذلك فيما يفسرون من القرآن، ويكون دليلهم سنة النبي ﷺ.

ثم إن الصحابة ﵃ كانوا عالمين بأحوال العرب، وبأحوال الملل التي كانت وقت نزول القرآن، ومن المعلوم أن من مصادر التفسير المهمة العلم بالأحوال التي نزل فيها القرآن وكان العرب على تلك الأحوال، معرفة أحوال المشركين على وجه التفصيل، أحوال عباداتهم، معرفة أحوالهم الاجتماعية، معرفة ما يتعبدون به، معرفة أحوال اليهود، معرفة أحوال النصارى، ونحو ذلك، معرفة أحوال الطوائف؛ لأن القرآن فيه آي كثيرة فيها وصف لهؤلاء، إذا لم يكن المفسر عالمًا بتلك الأحوال، فسر القرآن على غير بصيرة؛ لهذا كان من مصادر التفسير المهمة العلم بالأحوال التي كانت في زمن تنزيل القرآن.

كذلك من مميزات تفاسير الصحابة أنهم أهل اللسان وأهل اللغة، والقرآن نزل بلسان عربي، معنى ذلك أنه يُفهم باللسان العربي، وفهمهم للغة ليس محل احتجاج ولا محل استدلال، لكن كانوا يعلمون ذلك من منثور كلام العرب ومن منظوم كلام العرب، ومر معنا ما استشهد به الرجل الهذلي في معنى قوله ﷻ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] رُوي أن عمر قال بعد أن سمع ذلك من الهذلي، قال: عليكم بديوان العرب؛ فإن به فهم كلام ربكم، ويعني بديوان العرب شعر العرب[١]، وقد روى الطبراني في المعجم الكبير وابن الأنباري في أول كتابه (الوقف والابتداء) وجماعة أسئلة نافع بن

---

(١) سبق عزوه (ص ١٠).

الأزرق المشهورة لابن عباس رضي الله عنهما[١]، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يُكثر تفسير القرآن، وكان يُفسر أو يُجيب على من يسأل عن التفسير في فناء الكعبة، فكان في فناء الكعبة في ناحية من المسجد نافع بن الأزرق وصاحب له، فقال نافع، وهو من الخوارج لصاحبه: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن - يعنون به ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا من أنواع جرأة الخوارج على أهل العلم من الصحابة رضي الله عنهم - قال: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير كلام الله عز وجل، نسأله عن مصادقه من كلام العرب، فقام، فقال: يا ابن عباس، إنا سائلوك عن آي من القرآن؛ لتخبرنا بمعانيها، وتبين لنا مصادق ما تقول من كلام العرب، فقال ابن عباس لنافع وصاحبه: سلا عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] ما الوسيلة؟ فقال ابن عباس: الوسيلة الحاجة، فقال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمع إلى قول عنترة:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي[٢]

قال فأخبرنا عن قول الله عز وجل: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج: ٣٧] ما العزون؟ فقال: العزون الجماعات في تفرقة، فقال له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمعا قول الشاعر:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا[٣]

---

(١) أخرجها الطبراني (١٠/ ٢٤٨).

(٢) سبق عزوه (ص١٠).

(٣) سبق عزوه (ص١١).

في أسئلة كثيرة اعتنى بها علماء التفسير، وإن كان بعض المحققين من المفسرين وعلماء اللغة يكرهون الاستشهاد على معاني القرآن بالشعر؛ كما كره ذلك ابن فارس وغيره من العلماء، لكن جرت سنة أهل التفسير على أنهم يستشهدون بديوان العرب - بكلام العرب - لفهم ما كان غامضًا من معاني القرآن، وما ذكر عن الصحابة في الاستشهاد بالشعر كثير، وإن كان في أسانيده - على طريقة المحدثين - ما لا يُقبل.

المقصود أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا على علم تام بلغة العرب - بمنظومها ومنثورها -، وهذا لا شك يجعلهم في الريادة في تفسير كلام الله عز وجل، وما بعدهم عندهم من النقص في التفسير بقدر نقصهم في فهم اللغة، الصحابة رضي الله عنهم من مميزات تفاسيرهم أنه يكثر فيها اختلاف التنوع، وسيأتي في بيان أصول التفسير أن الاختلاف في التفسير ينقسم إلى قسمين: اختلاف التنوع، واختلاف التضاد، بل الاختلاف عمومًا ينقسم إلى هذين القسمين، واختلاف التنوع كالاختلاف في الأسماء مثلًا، فإنهم اختلفوا في تفسير الصراط في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فقال بعضهم: الإسلام، وقال بعضهم: القرآن، وقال بعضهم: الصراط محمد صلى الله عليه وسلم، وكلها كالأفراد لمعنىً عام واحد.

هذا التفسير منهم، وهذا الاختلاف اختلاف التنوع منهم أفاد المفسرين بعد ذلك كثيرًا؛ لأنه يكون كالإشارات، يستفيد منها المفسر للتعبير عن معنى الآية بما يناسب الحاجة - حاجة الناس - لذلك؛ لأن القرآن نزل هاديًا للناس.

بعد ذلك -بعد زمن الصحابة رضي الله عنهم- نشأت مدارس على أثر تفسير الصحابة للقرآن، فنشأ في مكة مدرسة للتفسير معلمها عبد الله بن عباس رضي الله عنه، الذي دعا له النبي ﷺ بأن يعلمه الله التأويل، فقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1] وفي لفظ آخر: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، و«**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ**»[2]، ونحو ذلك من الألفاظ التي فيها دعاء النبي ﷺ لابن عباس أكثر من مرة، يعني: في أكثر من موضع.

وابن عباس رضي الله عنهما تميزت مدرسته بحذق التفسير، وبحسن الكلام عليه، فمن تلامذته الذين نقلوا التفسير: مجاهد بن جبر أبو الحجاج، العالم المعروف، فإنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، يوقفه عند كل آية، يسأله عن معناها، ولهذا كان سفيان الثوري وغيره من أئمة الحديث يقولون: إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فعليك به، أو فحسبك؛ وذلك لأنه أخذه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كذلك نقل التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما أصحابه في مكة: كسعيد بن جبير، وكعكرمة، وكطاووس، وجماعة، فنشأت مدرسة في التفسير في مكة، ثم توسعت هذه المدرسة في تبع التابعين، وهكذا.

كذلك في الكوفة، في البلد التي سكنها عبد الله بن مسعود إثر بعث عمر رضي الله عنهما له للناس هناك، يعلمهم ويفقههم، نشأت مدرسة لعبد الله بن مسعود في التفسير، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ممن هم في الذروة في الصحابة في فهم

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجهما البخاري (١٤٣، ٧٢٧٠، ٣٧٥٦، ٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كلام الله ﷻ، وكثيرًا ما يفسر القرآن بما يعلمه من أسباب النزول، فإنه ممن أسلم قديمًا، وكان يقرأ القرآن أحسن قراءة، وقد قال في ذلك النبي ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[١] يعني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

نشأ في الكوفة أصحاب لابن مسعود، نقلوا عنه التفسير، وهكذا، وكذلك في المدينة نشأ أصحاب لأُبي بن كعب، وكذلك ما نُقل من التفسير عن عليٍّ رضي الله عنه، وهكذا . . . ، حتى كثر التفسير، فاحتاج الناس بعد ذلك لما ظهر التدوين إلى أن يدونوا تفاسير السلف، وهذه الكتب التي دونت تفاسير السلف تسمى كتب التفسير بالمأثور؛ لأنه ليس فيها رأي لأصحابها، كتفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، وقد طُبع مؤخرًا، وكتفسير الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وكتفسير ابن مردويه، وتفسير ابن المنذر، وتفسير عبد بن حُميد، وتفسير ابن أبي حاتم.

وأتى بعد ذلك ابن جرير، فجمع كثيرًا من تلك التفاسير المنقولة عن السلف في كتابه المشهور في التفسير، وهذه التفاسير المنقولة عن السلف في كتب التفسير بالمأثور هي عمدة الذين يفسرون القرآن بالمأثور عن الصحابة رضي الله عنهم، لكن الصحابة رضي الله عنهم ربما اجتهدوا في التفسير، بل كثيرًا ما اجتهدوا في التفسير، فليس كل ما فسروا به القرآن قد سمعوه من النبي ﷺ، أو أخذوا تفسيره من القرآن في آية أخرى، بل إنهم اجتهدوا فيه، وهذا - كما يقول شيخ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧)، والبزار (١/ ٦٦)، والطبراني (٩/ ٦٧)، وأبو يعلى (١/ ٢٦)، وابن حبان (١٥/ ٥٤٢) من حديث أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

الإسلام وغيره -: **(العلم إما نقل عن معصوم، وإما قول له دليل معلوم)**[(١)] إما نقل مصدق، أو قول محقق بالبرهان.

والصحابة ﷺ فيما اجتهدوا فيه بالتفسير لم يُفسروا القرآن بالرأي المجرد المذموم الذي جاءت الأدلة بذمه، وإنما فسروا القرآن بما عندهم من آلات الاجتهاد والاستنباط، ولهذا أهل العلم بعد ذلك ربما فسروا القرآن بالاجتهاد وبالاستنباط؛ لأن الصحابة ﷺ فسروا القرآن بالاجتهاد وبالاستنباط، فظهرت هناك تفاسير اجتهد فيها أصحابها أن يفسروا القرآن إما على وفق اللغة ككتاب (مجاز القرآن) - ويعني بالمجاز: معاني القرآن - لأبي عبيدة معمر بن المثنى، الإمام اللغوي المعروف، وككتاب الفراء (معاني القرآن)، ونحو ذلك.

فنشأ مع مدرسة التفسير بالمأثور مدرسة أخرى في التفسير، هي تفسير بالاجتهاد وبالاستنباط، إما من جهة النظر في اللغة، وإما من جهة النظر في النحو، وإما من جهة النظر في أسباب النزول، ونحو ذلك، فأولئك الذين فسروا بالرأي - يعني: بالاجتهاد، بالاستنباط - منهم المصيب، ومنهم المخطئ.

ابن جرير الطبري ﷺ جمع علوم من قبله في كتابه الذي يعد أعظم كتب التفسير المؤلفة التي وصلت إلينا، فإنه جمع فيه ما نقل في التفسير عن الصحابة بالأسانيد المشهورة المرضية عند المفسرين، وأخلى تفسيره من

---

(١) انظر: شرح مقدمة في التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ للعلامة ابن عثيمين ﷺ (ص٩).

رواية المتهمين بالكذب - كما يقوله الكثير من أهل العلم -، وساق الأسانيد، وساق أقوال السلف - أقوال أهل الأثر - بالأسانيد المشهورة التي يتناقلها العلماء عنهم، وذكر - أيضًا - ما نقله أولئك عن الأئمة، أو عن العلماء الذين فسروا القرآن بالاستنباط وبالاجتهاد، فترى في تفسير ابن جرير رحمه الله أنه يورد التفسير بالمأثور، ويورد التفسير بالاجتهاد، بل إنه يذكر أحيانًا تصويبًا لقول من الأقوال، مع أنه تسنده قراءة متواترة، ويخطئ الأخرى، وذلك منه على أن التفسير بالاجتهاد والاستنباط لا بأس به، إذا كان عند المفسر بالاستنباط والاجتهاد ملكة، واكتملت فيه شروط الاجتهاد في التفسير، فإن للاجتهاد في التفسير شروطًا قد بينها العلماء، تأتي في موضعها في مقدمة أصول التفسير - إن شاء الله تعالى -.

فتفسير ابن جرير يعد الكتاب العظيم في التفسير، ترى فيه البحث في القراءات، ترى فيه البحث في اللسان واللغة، ترى فيه الاحتجاج بأبيات العرب على المعاني، ترى فيه المباحث النحوية المختلفة، والاحتجاج بأحد الأقوال بقول طائفة من النحاة ونحو ذلك.

فالإمام ابن جرير خلط هذه العلوم في تفسيره، ترى فيه البحوث الفقهية عند بعض الآيات، يعني: أن كتاب ابن جرير رحمه الله يعد كتابًا جامعًا لعلوم التفسير، ففيه التفسير الفقهي، وفيه التفسير النحوي، وفيه التفسير اللغوي، وفيه - وإن على قلة - التفسير البلاغي، وفيه التفسير الإجمالي، وفيه التفسير التفصيلي، وفيه التفسير بالأثر، وهو غالب عليه، وهكذا في أنواع من التفسير، الناس بعد ذلك في التفسير أخذوا علوم ابن جرير، ونشروها في مصنفات في التفسير، فمنهم من أخذ التفاسير الفقهية وأحكام القرآن،

فأفردها، فصارت هناك مدرسة لتفسير القرآن بخصوص الأحكام، وهي التي يسمي أصحابها كتبهم: أحكام القرآن. فاعتنى الشافعية - مثلا - بتفسير لهم يعتني بأحكام القرآن، إما على طريقتهم، إما على ما اجتهد فيه مؤلف ذلك التفسير، كـ (تفسير أحكام القرآن) للكيا الهراسي.

وكذلك المالكية، وكذلك الحنفية، فسر ابن عطية القرآن، وأورد فيه أحكامًا كثيرة، وابن العربي المالكي في كتاب (أحكام القرآن)، والقرطبي المالكي في كتاب (أحكام القرآن)، وكذلك الحنفية في كتاب (أحكام القرآن) للجصاص وغيره من الكتب، وكذلك الحنابلة، وهكذا في كل مدرسة فقهية اعتنى أصحابها ببعض علوم القرآن، ببعض تفسير القرآن، وهو ما يستنبط من آي القرآن، من أحكام فقهية.

هناك مدرسة أخرى اعتنت بالقراءات، وتفسير القرآن بالقراءات، ولها مصنفات، هناك مدرسة أخرى اعتنى أصحابها بالتفسير، تفسير القرآن على وفق اللغة، إما من جهة المفردات؛ كغريب القرآن، وهي كثيرة، وإما من جهة الاشتقاق، وإما من جهة البلاغة ككتاب الزمخشري ونحوه في تفاسير مختلفة.

ومن ذلك تفاسير نحوية اعتنى بها أصحابها بتفسير القرآن على وجه النحو، ومنها تفاسير عقدية اعتنى بها أصحابها بأن يفسروا القرآن على ما تقتضيه عقيدة ذلك المفسر، وقد دخل أهل البدع وأهل الضلالات، والفرق الضالة في نشر عقائدهم وبدعهم وضلالتهم عن طريق تفسير القرآن؛ لأن تفسير القرآن يقبل عليه العامي، ويقبل عليه المتعلم، يأخذون هذا العلم،

فأدخلوا عقائدهم وبدعهم عن طريق تفسير القرآن، فكثرت التفاسير التي فيها العقائد المذمومة والبدع المردية في أنواع من التفاسير، كتفسير الماوردي، و(تفسير الكشاف) للزمخشري، ونحوها من التفاسير، وكتفسير الرازي، وأبي السعود، ونحوها من التفاسير التي ملئت بعقائد أصحابها: إما المعتزلة، وإما الأشاعرة، وإما الماتريدية؛ كتفسير النسفي، ونحو ذلك من أنواع التفاسير.

وأهل السنة - أيضًا - اعتنوا بتفاسير القرآن، فهم في تفسير القرآن بين غيرهم كالشامة في البدن في حسنها وظهورها، فهم فسروا القرآن على وفق تفاسير السلف، واجتهدوا، واستنبطوا من آي القرآن ما لم يؤثر فيه علم عن السلف، لكن كانت على وفق العلم النافع، فإن أقوالهم في ذلك أقوال محققة، منقولة عن السلف، أو أقوال مدعومة بالأدلة، وهذا كتفسير البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ، وتفسير ابن كثير، والتفاسير المنقولة عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وعن ابن القيم، ونحوهم من أهل العلم في هذا العصر، فسر عدد من أهل العلم تفاسير حسنة من جنس مدرسة الأثر، أو التفاسير السلفية، كتفاسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، ونحوهم.

المقصود من هذا أن التفاسير كثرت جدًا في مدارس مختلفة، فما الذي يجب على طالب العلم بالتفسير، هل يأخذ كل هذه التفاسير؟ بعضها مختصر، وبعضها مطول، بعضها تفاسير موسوعية؛ مثل: تفسير الفخر الرازي، يذكر فيه كل شيء، ومثل: تفسير الألوسي (روح المعاني)، التفاسير كثيرة مختلفة، فأيها يعتني به طالب العلم؟ لا شك أن العلم بالتفسير

أمر مهم، والتفاسير ما بين مختصرة ومطولة، فالذي ينبغي على طالب العلم بالتفسير أن يعتني أولًا بمعاني المفردات، أن يعلم المعنى للمفردة، يعني: في آية لا يعلم معنى كلمة منها، يذهب يبحث عن معنى هذه الكلمة في التفاسير المختصرة، ومن التفاسير المختصرة التي تعتني ببيان بعض الكلمات تفسير الجلالين - الجلال المحلي، والجلال السيوطي -، على بدع في تفسيرهما، ولكن العلماء في هذه البلاد قد أقروا هذا التفسير للطلاب في مرحلة المعاهد - كما هو معلوم -؛ وذلك لأن البدع التي فيه معلومة، وهي قليلة بالنسبة إلى الانتفاع الكثير الذي فيه، وإذا رام التفصيل أكثر، له أن يستزيد، يذهب إلى تفسير ابن كثير، إلى تفسير ابن جرير، إلى تفاسير أهل اللغة، وهكذا.

ثم يعتني بعد معرفته بالمفردات بقراءة كتب التفسير المختصرة - كما ذكرت لك - من تفسير الجلالين مثلًا، أو إن كان عنده صبر من تفسير ابن كثير رحمه الله، أو إذا رام المزيد في تفسير ابن جرير، وهكذا.

فإذًا العلم بالتفسير لابد أن يكون على وفق التدرج؛ لأنك إذا قرأت كتبًا مطولة في التفسير، ربما استحضرت بعض المعاني، ولم تستحضر البعض، ومن المعلوم أن العناية بعلم التفسير في هذا الوقت، بل وفي طلاب العلم عندنا قليلة، ولهذا مما ينبغي أن يحفظ هذا العلم، وأن يُعتنى به؛ لأن فهم معاني كلام الله عز وجل أعز ما يكون، وإن في فهم القرآن، وفي فهم تفسير القرآن، إن فهمه من العلم ما لا يوصف، ولا يحصى، يعرفه من أقبل عليه.

فإذًا طالب العلم في قراءته في التفسير يبدأ بالمختصر، ثم يتدرج، أما عن

طريقتنا في التفسير - إن شاء الله تعالى - التي سنفسر بها القرآن، فثم طريقتان:

طريقة مختصرة، وطريقة مطولة، أما الطريقة المختصرة، فهي أن يؤخذ كتاب من كتب التفسير المختصرة، ويقرأ، ثم يقرر عليه، يعني: يشرح ما غمض منه، يبين ما فيه، توضح معنى الآية، إن كان ثم مزيد على ما ذكره المفسر.

وهناك طريقة أخرى مطولة، أحسبها أنا أنفع للمتعلمين؛ لأنها وإن كانت مطولة، والتفسير الذي يقطع معها قليل، لكنها تضع أصولًا لطالب العلم بالتفسير، يمكنه معها، إذا فهمها أن يقيس عليها، وأن يطلب علم التفسير على منوالها، وهي أن يؤخذ في فهم الآية بالمعنى العام أولًا، بالمعنى الإجمالي الذي يحتاجه طالب العلم في فهم المعنى العام للآية، وهو الذي تُعنى به بعض التفاسير، الذي يسمى التفسير الإجمالي للآية، ثم بعد ذلك يؤتى للتفسير التفصيلي للآية في فهم معانيها ومفرداتها، وما فيها من البلاغة وتركيباتها؛ لأن في هذا من العلم بإعجاز القرآن والعلم بأنواع من العلوم المهمة: العلم بالسنة، العلم بالعقيدة في تقرير التوحيد، العلم باللغة: بالاشتقاق، بالبلاغة، بالنحو، ونحو ذلك من العلوم المهمة التي ربما لن يهتم بها طالب العلم إلا إذا سمعها من جهة التفسير.

لهذا نقول فيمن رام تفسير القرآن ينبغي أن يكون مستحضرًا فيه أن القرآن نزل هاديًا للناس، والله ﷻ جعل القرآن نورًا، والقرآن شفاء لما في الصدور، وهدى للناس وبينات، فهو مبين وهاد، وهو نور، وعلى هذا ينبغي

أن يكون المفسر في تفسيره للقرآن، ينظر إلى أن المقصود منه أن يهدي الناس للتي هي أقوم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وحال الناس في كل زمن مختلفة، كل زمن الناس فيه بحاجة إلى هداية القرآن، والقرآن يهدي للتي هي أقوم، والمفسر الذي يفسر القرآن أول ما يجب عليه أن ينظر إلى أن القرآن كتاب هداية، فيفسر القرآن ليهتدي به الناس، فإذا كان الناس في مرض في نفوسهم في قلة تعبد مثلًا، كان تفسيره منظورًا فيه إلى هذه الجهة، إذا كان الناس في ضعف من العقيدة والتوحيد وعدم معرفة بمواقع الأدلة في ذلك، فإنه يُعتنى في تفسير القرآن ببيان حق الله ﷻ وتوحيده، وما كان عليه أهل الشرك من العبادات الباطلة، وهذا لا شك أنه في هذا الزمان أحوج ما نكون إليه، كذلك إذا كان الناس في أمور في مجتمعهم، أو في أنفسهم من منكرات فاشية، أو من ضلالات فاشية، أو تفشى في الناس، فيعتني المفسر ببيان مواقع الحجج على إبطال ذلك، وإصلاح الناس، وإصلاح المجتمع عن طريق تفسير القرآن؛ لأن القرآن نزل هاديًا للناس، وهو يهدي للتي هي أقوم، ولا شك أن العناية بالتفسير غرض كل متعلم، وما أحسن ندم شيخ الإسلام رحمه الله في آخر عمره على أنه لم يشتغل طول عمره بتفسير القرآن للناس، نعم فسر القرآن في مواضع كثيرة، وما نُقل عنه من تفسير القرآن هو كالشمس ضياءً في وضوحه وبرهانه ودلالاته، لكن هو ندم على أنه لم يهد الناس عن طريق تفسير القرآن، وقد ذكر من ترجم له؛ كابن عبد الهادي وغيره، أنه مكث سنة كاملة يفسر سورة نوح، وهي سورة قصيرة، يفسر سورة نوح، مكث سنة كاملة يفسرها يوم الجمعة في مجلس له

في التفسير، وهذا لا يكون إلا على وجه التفسير المطول، ليس التفسير الذي فيه بيان معاني الكلمات وحسب، بل التفسير المطول، الذي يعرض فيه المفسر لما يحتاجه الناس من العلم بالتفسير، وهذا - ولاشك - هو أمثل الطرق؛ لأن المقصود هداية الناس بالتفسير، وأما إسماع الناس التفسير، فإن القرآن طويل، وتفسيره يأخذ أعمارًا، خاصة إذا لاحظنا أنه في مثل هذا الزمان لا يصبر الناس على دروس يومية في التفسير، وإنما إذا صبروا، صبروا على درس واحد في الأسبوع أو اثنين في الأسبوع، وهذا لا يمكن معه أن يُفسر القرآن كاملًا إلا يُقرأ كتاب مختصر في التفسير، ويُعلق عليه تعليقات يسيرة، فإنه ربما خُتم في بضع سنين.

هذا العلم بالتفسير الذي كان عند شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وورثه لأصحابه - رحمهم الله - على هذه الطريقة، هذا يحتاجه الناس ولاشك، فالقرآن هو الشفاء، وهو الهداية، من رام الهدى في غيره أضله الله، ولكن الشأن في فهم معاني القرآن. وهل كلٌ يفسر؟! هذا له مدرسة كبيرة، وهي مدرسة تفسير القرآن بالرأي، ويُعنى بالرأي في هذا الموضع عند أهل التفسير: الاستنباط، والاجتهاد، فمعنى تفسير القرآن بالرأي معناه: تفسيره بالاستنباط، والاجتهاد.

والرأي رأيان: رأي ممدوح، ورأي مذموم.

أما الرأي الممدوح، فهو: تفسير القرآن بالاستنباط وبالاجتهاد على وفق الأصول المعتبرة في الاستنباط والاجتهاد، وقد فسر الصحابة - كما ذكرت لكم - بالاستنباط، وهناك شروط لمن يفسر القرآن بالاستنباط

والاجتهاد، وهذه الشروط جماعها:

أولًا: أن يكون عالمًا بالقرآن حافظًا له، يعني: مستظهرًا له، لآياته، عالمًا مواقع حججه، مستحضرًا لكثير من القراءات المختلفة فيه؛ لأن القراءات المختلفة تفسير لبعض القرآن؛ كما في قراءة مثلًا في قوله ﷻ: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإنه في القراءة الأخرى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فهذه تفسير لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾، ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ قراءة أخرى تفسير لقوله: ﴿يَطْهُرْنَ﴾.

فإذًا العلم بالقرآن بحفظه، واستظهاره، ومعرفة مواقع حججه، هذا شرط أول فيمن يريد أن يفسر القرآن بالاستنباط والاجتهاد.

ثانيًا: أن يكون عالمًا بالسنة، إما أن يكون بالقوة القريبة، يعني: بالبحث أو بالملكة، يعني: يكون حافظًا للسنة ونحو ذلك، أو بالبحث، يكون عالمًا كيف يعلم ما بينت السنة من القرآن، وكيف يثبت ذلك، يعني: أن يكون عارفًا بطريقة إثبات السنن، وهو المعروف عند أهل العلم بعلم مصطلح الحديث وعلم الرجال.

فلابد للمفسر بالاستنباط والاجتهاد أن يكون عالمًا بالسنة بالحفظ أو بالبحث، وعالمًا بطريقة إثبات السنن عن طريق علم مصطلح الحديث، والجرح والتعديل، وقواعد ذلك.

ثالثًا: من الشروط أن يكون عالمًا بلغة العرب، يعني: عنده معرفة بلغة

العرب في مفرداتها، وفي نحوها، وفي علم المعاني بخصوصه من علم البلاغة، ونحو ذلك من علوم اللسان العربي الشريف، وهذه لابد منها للمفسر؛ لأن من فسر القرآن بالاستنباط والاجتهاد، وهو جاهل باللغة، فإن تفسيره من قِبَل الرأي المذموم، الذي ورد فيه النهي.

رابعًا: يحتاج المفسر أن يكون عالمًا بأصول الفقه؛ لأن أصول الفقه هي أصول الاستنباط، وأصول الاستنباط يحتاجها المفسر كثيرًا، فكثير من مواقع الاجتهاد والاستنباط إنما تكون عن طريق أصول الفقه، أرأيت مثلًا مجيء الخاص بعد العام، أو مجيء المبين بعد المجمل، أو مجيء المقيد بعد المطلق، أو مجيء النص، أو مجيء الظاهر، أو الحقيقة، أو نحو ذلك التي كلها من أصول الفقه؟ فمن لم يكن ضابطًا لأصول الفقه، فإنه لا يحسن له، بل يُذم إذا تعاطى التفسير بالاجتهاد.

هناك علوم أخر ذكرها أهل العلم، ثم ختامها وواسطة عقدها أن يكون عالمًا بكلام أهل السنة في توحيد الله ﷻ، عالمًا بالاعتقاد الحق الذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة؛ لأن هذا الاعتقاد الذي هو حق لا مرية فيه، لابد أن يُفسر القرآن على وفقه، فمن كان جاهلًا بذلك جهلًا بسيطًا، فإنه إذا فسر القرآن في آيات الاعتقاد، والقرآن - كما هو معلوم - توحيد كله، فإنه يَضل، وربما يُضل، ومن كان عنده الجهل المركب في هذا الباب وفي هذا العلم الذي هو العلم بالتوحيد علم الاعتقاد، بأن كان يعتقد خلاف الحق من أصحاب الأقوال الزائغة، والأقوال المبتدعة، فإن هذا يحرم عليه أن يفسر القرآن وفق آرائه المبتدعة الضالة التي ما كانت على وفق نصوص الكتاب والسنة، وإنما كانت على

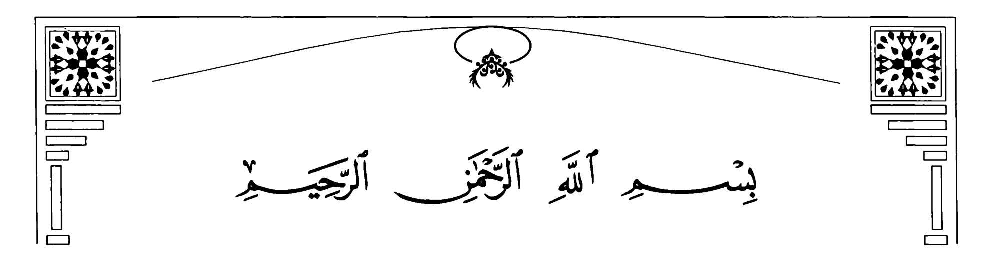
وفق تقديم العقل على النقل، كما هي أصول أهل البدع بأجمعهم. هذه العلوم لابد منها لمن يستنبط معاني القرآن.

الرأي الثاني: الرأي المذموم وهو قسمان:

أن يفسر القرآن برأي عن جهالة، أو أن يفسر القرآن برأي باطل، إما باعتقاد له، أو نِحلة له، ونحو ذلك؛ كتفاسير أهل البدع، فتفاسير أهل البدع للقرآن هي كلها من قبيل الرأي المذموم الذي جاءت فيه عدة أحاديث تنهى عنه، وتتوعد من فسر القرآن برأيه بأن يتبوأ مقعده من النار.

هذه خلاصة ومقدمة لما ستعاطاه في هذه الدروس من التفسير، وفي مقدمة التفسير، أو في أصول التفسير، سنقرأ - إن شاء الله تعالى - مقدمة شيخ الإسلام في أصول التفسير، مع بيان ما اشتملت عليه من العلوم النافعة المتصلة بتفسير القرآن، وأما في التفسير نفسه، فسنبتدئ - إن شاء الله تعالى - بتفسير سورة الفاتحة، فإذا أتممناها، إما أن تختاروا كتابًا في التفسير، وإما أن تختاروا تفسيرًا للقرآن على منوال ما ستسمعون - إن شاء الله تعالى - من تفسير سورة الفاتحة، ونرجئ الاختيار إلى الدرس القادم - إن شاء الله تعالى -.

أسأل الله ﷻ أن ينفعني وإياكم بالقرآن، وأن ينفعنا به، وأن يجعله حجة لنا، وأن يجعله مظللًا لنا يوم القيامة، وأسأله ﷻ أن يوفقني وإياكم للسداد في القول في تفسير القرآن، وفي فهمه؛ إنه أكرم مسؤول، اللهم إنا نسألك بصيرة في قلوبنا، وبصيرة في أقوالنا، وبصيرة في أعمالنا، ربنا لا تكلنا لأنفسنا طرفة عين، فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بك. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



محاضرة: مقاصد السور وأثر ذلك في فهم التفسير

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجًا، حمدًا كثيرًا دائمًا ما تتابع الليل والنهار، كلما حمد الله ﷻ الحامدون، وكلما غفل عن حمده - سبحانه - الغافلون، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين. . . أما بعد:

فأسال ربي ﷻ - وهو المجيب لمن سأل، والمعطي لمن أقبل - أن يجعلني وإياكم ممن بارك قولهم وعملهم، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يلزمنا كلمة التقوى في الحياة والممات؛ إنه - سبحانه - جواد كريم، كما أسأل ربي ﷻ أن ينفعني وإياكم بما نسمع أو نقرأ من العلم، وأن يجعله حجة لنا، لا حجة علينا، وأن يقيمنا على دينه ما أبقانا.

ثم إن من أنواع البركة التي يفيضها الله ﷻ على خاصة عبادة أن يمن عليهم بمحبة العلم، ومحبة تدارسه، والإقبال على ذلك، وحقيقة العلم هو العلم بكتاب الله ﷻ، وبسنة رسوله ﷺ؛ إذ لا أرفع في الكلام ولا أعظم قدرًا من كلام ربنا ﷻ، ولا أعظم ولا أرفع بعده من كلام نبينا ﷺ، فالموفق

والمبارك من علِم وعلَّم، واجتهد في ذلك، حتى يصيب مما كتب الله له، و«**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(١)؛ ولهذا وصف الله ﷻ كتابه بأنه مبارك، وجعل من أصناف بركته التي أنزلها ﷻ أن أنزل هذا الفرقان؛ كما قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وكما قال ﷻ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [صٓ: ٢٩]، وقال أيضًا ﷻ: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ونحو ذلك من الآيات، التي فيها وصف القرآن بأنه مبارك، يعني: كثير الخير لمن أقبل عليه، ففيه شفاء الصدور، وفيه شفاء القلوب، وفيه الهداية، وفيه التوفيق لمن أراد الله ﷻ أن يوفقه، وفي الآية التي ذكرنا وصف الله ﷻ كتابه بأنه مبارك، وأنه أنزله لأمرين: فقال ﷻ في سورة ص: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٢٩﴾ واللام هنا هي لام كي، يعني: أن العلة من إنزال القرآن وجعله مباركًا أن يتدبر العباد هذا القرآن، أن يتدبروا آياته، ثم لكي يتذكر أولو الألباب، وهذا فيه عظم شأن تدبر القرآن، وعظم شأن التذكر حين التلاوة، وهذا إنما يكون بالتدبر، فلا تذكر إلا بتدبر القرآن، ولكن خص الله ﷻ في التذكر أولي الألباب، فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، وفي الحقيقة أن الذي يتذكر بعد التدبر ويقبل على القرآن هو العاقل، وهو ذو اللب الذي بلغ الغاية في ذلك، وقد سئل أحد سادات التابعين في الكوفة - أظنه إبراهيم النخعي -، فقيل له: من أعقل الناس؟ فقال: أعقل الناس فلان الزاهد، فذهبوا؛ لينظروا من عقله، ولينظروا من أمره، فما وجدوه إلا مقبلًا على القرآن وعلى أمر آخرته، فعلم أن قصد

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

إبراهيم أن أعقل الناس هو من أقبل على أشرف الكلام، وأقبل على أشرف مقصود، وهو الدار الآخرة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، فحض الله ﷻ في هذه الآية على تدبر القرآن، وموضوع هذه المحاضرة أثر من آثار تدبر القرآن عند أهل العلم؛ لأن الموضوع الذي سنتناوله يبحث في علم مقاصد سور القرآن، وأثر هذا العلم بالمقاصد في فهم التفسير، ومعلوم أن التفسير إنما هو بتدبر القرآن، فالذي يعلم التفسير لا شك أنه قد تدبر قبل ذلك، فعلم إذا كان عنده أهلية بالعلوم التي ينبغي توفرها في المفسر، والناس بعد ذلك نقلة، أو يتلقون ما قاله المفسرون، فلما حض الله ﷻ على تدبر القرآن، وجب حينئذ أن يقبل العباد بعامة، وأن يقبل العلماء بخاصة على هذا القرآن؛ ليخرجوا كنوزه؛ لأن القرآن حجة الله الباقية إلى قيام الساعة، ويخرج منه بقدر العلوم وبقدر ما فتح الله على عبده، يخرج منه من الفهوم ومن العلم ما هو تفصيل وبيان لبعض كلمات المتقدمين من الصحابة والتابعين، مما قد لا يدركها كل أحد، وهذه الجملة يأتي تفصيلها - إن شاء الله تعالى -.

فإذًا: علم التفسير من العلوم المهمة، وها أنتم تستقبلون دورة علمية، أو دروسًا علمية في هذا المسجد المبارك في علوم شتى، من علم التوحيد، والحديث، والمصطلح، ونحو ذلك مما هو معلوم، وعلم التفسير - أيضًا - أنتم بحاجة إليه؛ لأن القرآن هو أعظم ما يقبل عليه، فإذا علمت القرآن، علمت الشريعة؛ ولهذا قال طائفة من العلماء: المفسر يحتاج إلى علوم كثيرة، منها:

العلم الأول: علم اللغة؛ لأن القرآن أنزل بلسان عربي مبين: ﴿حمٓ

﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١-٤]، واللغة أقسام، منها النحو، ومنها علم المفردات، ومنها البلاغة بأقسامها الثلاثة، ومنها الاشتقاق... إلى آخر علوم اللغة.

العلم الثاني: علم التوحيد الذي هو الأساس، فالقرآن كله في توحيد الله ﷻ، من أوله إلى آخره كله في التوحيد، وذلك أن القرآن إما أن يكون:

الأمر الأول: ما فيه خبرًا عن الله ﷻ، وعن صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعما يستحقه ﷻ من توحيده بالعبادة، والبراءة من الشرك وأهله، ونحو ذلك، فهذا واضح في أنه في توحيد الله ﷻ.

الأمر الثاني: ما فيه خبرًا عن أنبياء الله ﷻ عن رسله، وعن قصصهم، فهذا خبر عن أهل التوحيد، وما جعل الله ﷻ لهم في الدنيا من الأحوال والعاقبة: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٨].

الأمر الثالث: أن يكون أمرًا ونهيًا، أمرًا بأداء الفرائض، ونهيًا عن ارتكاب المحرمات، وهذا في حقوق التوحيد ومكملاته؛ لأن من وحد الله ﷻ، أطاع الله في أمره، وانتهى عن نهيه، وتخلص من داعي شهوته وهواه.

والأمر الرابع: خبر عن الأمور الغيبية، وما يحصل بعد الممات من النعيم والعذاب، ومن الجنة والنار، ومن الحبور والسرور لطائفة، ومن العذاب والنكال لطائفة، فهذا جزاء الموحدين، وهذا جزاء المشركين، وهذا المعنى العام من العلوم المهمة للمفسر؛ لأن سور القرآن لا تخرج من هذه الأحوال الأربعة، فكل سورة إما أن تتناول هذه الأقسام الأربعة، وإما

أن يكون فيه - يعني: في السورة - بعض من هذه الأقسام.

والعلم الثالث: العلم بالسنة؛ لأن السنة مفسرة للقرآن، ومبينة له.

والعلم الرابع: العلم بالفقه، وأحكام الحلال والحرام، والعبادات والمعاملات؛ لأن القرآن فيه آيات كثيرة في هذا الباب.

والعلم الخامس: علم الجزاء يوم القيامة، وأحوال الناس فيه، وهذا في القرآن منه الشيء الكثير.

والعلم السادس: علم أصول الفقه، والعلوم المساعدة لأصول الفقه؛ لأن بها فهم كثير من آيات الله البينات، إذا تبين لك هذا، فإن المفسر الذي تكونت عنده حصيلة راسخة من هذه العلوم يمكنه أن يتدبر القرآن، وأن يكون مستخرجًا لما فيه من الدلالات، والعبر، وموضوعات السور، ومقاصد السور - كما سيأتي بيانه - مقتفيًا في ذلك بما فسر به الصحابة والتابعون كتاب الله ﷻ.

لهذا فإن موضوع هذه المحاضرة هو موضوع في التفسير، والتفسير أبوابه كثيرة ومختلفة، ولكن قلت العناية في هذا الزمن بالتفسير؛ لأن كثيرين يظنون أنهم يعلمون كلام الله ﷻ، ولا شك أن الذي يعلم كلام الله ﷻ، ويعلم معانيه، ويدرك مراميه، وإعجازه، وبلاغته، وما فيه، فإنه سيكون ملتذًا بهذا القرآن، مقبلًا عليه، يجل قلبه، وينشرح صدره حين يقبل على هذا القرآن.

إذًا: فالوصية في مقدمة هذه الدروس العلمية أن يهتم الجميع بالقرآن حفظًا وتلاوة، ثم الاهتمام بتدبر القرآن وتفسيره، عبر كتب التفسير المعتمدة، وخاصة كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم والمأمونين من أئمة

أهل العلم والدين والتفسير.

ما معنى مقاصد السور؟ العلم بمقاصد السور لم ينص عليه الأوائل، وإنما اعتبره الصحابة والتابعون بالاستقراء، اعتبروه في تفسيرهم، ولكن لم ينص على هذا العلم بهذا الاسم إلا عند المتأخرين، وذلك شأن جميع العلوم، فإن العلوم كانت ممارسة عند السلف، ولكن لم تكن التسمية موجودة، فعلم النحو كان ممارسًا، ولم يكن موجودًا، البلاغة كانت ممارسة، ولم تكن موجودة، علم أصول الفقه كان ممارسًا، استنباط الأحكام من القواعد الأصولية، ولم يكن موجودًا بهذا الاسم، وهكذا في علوم القرآن في أنحاء شتى، ومصطلح الحديث وعلوم أخرى، فما المقصود بعلم مقاصد السور؟

معلوم أن الله ﷻ هو الذي تكلم بهذا القرآن، وأن القرآن كلامه، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، فالقرآن كلام الرب ﷻ، ومقاصد السور يعنى بها عند أهل هذا العلم: (الموضوعات التي تدور عليها آيات سورة ما) يعني: أن سورة من السور التي في القرآن، أو أن معظم السور، أو كل السور لها موضوع ومقصد، تدور عليه الآيات والمعاني التي في هذه السورة، إذا علم هذا المقصد - يعني: هذا الغرض، هذا الموضوع -، فإن فهم التفسير سيكون سهلًا، بل سيفهم المرء كلام الأولين، سيفهم كلام المحققين بأكثر مما إذا أخذ الآيات مجردة عن موضوع السورة؛ كما سيأتي في مثال نستعرضه - إن شاء الله تعالى -.

وأصلًا في بحث مقاصد السور لم يكن بحثه في تاريخ العلم مبكرًا،

وإنما بحث قبله بحث يسمى: المناسبات، والعلماء اختلفوا في موضوع المناسبات، ويعنون بها مناسبات الآي، هل الآية هذه جاءت بعد الآية لمناسبة؟ هل بين الآية الأولى والثانية رابط؟ والثانية والثالثة بينها مناسبة؟ هل هذه الآيات في نظامها بينها وبين موضوع السورة اتصال؟

هذا يبحث في علم التفسير، ويبحث في إعجاز القرآن، لهذا عد طائفة من العلماء أن من وجوه إعجاز القرآن - وهو المنزل آية، وبرهانًا، ومعجزًا للخلق أجمعين - أن من وجوه الإعجاز أن يكون للسورة موضوع تدور عليه، وأن يكون بين الآيات ترابط، هذه الآية بعد تلك، هذه القصة بعد تلك؛ لغرض معلوم، لهذا قل من يطرق هذا الموضوع من المفسرين، أو من العلماء، ولعدم كثرة طرقه أسباب منها:

أولًا: أن فيه نوعًا من الجرأة على كتاب الله ﷻ، ولهذا ذهب طائفة من العلماء إلى أن السور ليس لها موضوعات، وإلى أن الآيات لا تناسب بينها، وهذا قال به قليلون، وغلطوا في ذلك، فموضوع السورة يحتاج إلى قراءة السورة عدة مرات وتدبر ذلك، ومعرفة كلام العلماء في التفسير؛ حتى نفهم هذه السورة، ما الموضوع الذي تدور عليه؟

السبب الثاني: أن كثيرين من أهل العلم لم يتناولوا التفسير إلا عبر مدرسة تفسير الآيات، ومدرسة تفسير الآيات منقسمة إلى مدرستين: مدرسة التفسير بالأثر، ومدرسة التفسير بالاجتهاد، وكلها راجعة إلى تفسير الآية، وتفسير الكلمات في الآيات.

أما الربط بين الآيات، فلم يكن من مدارس التفسير المعروفة؛ ولذلك ما صار له ذكر، ولا قوة عند أهل العلم بالتفسير.

والسبب الثالث: في عدم اشتهار هذا الموضوع: أن من تجرأ، وكتب من أهل العلم، وقال: إن للآيات تناسبًا، وإن للسور موضوعات، رد عليه طائفة من العلماء، وغلطوه، بل رموه بالقول على الله ﷻ بلا علم، فهاب كثيرون أن يدخلوا هذا المضمار؛ لأجل براءة الذمة؛ ولأجل أن لا يحملوا أنفسهم ما لا يطيقون، وهذا مقصد صالح، ولغير ذلك من الأسباب، ولهذا نقول العلماء في موضوع ترتيب الآيات، والتناسق بين الآيات، وأن هذه الآية بعد هذه الآية لغرض، وأن هذه القصة بعد هذه القصة لغرض، وأن السورة لها موضوع ومقصد، اختلف العلماء في هذا على ثلاثة أقوال:

أما القول الأول: فهو أنه لا تناسب بين الآيات، بل تنزل الآية بحسب الوقائع، وتوضع في المصحف بحسب ما يأمر الله ﷻ جبريل به، فيأمر به النبي ﷺ أن الآية ضعها في سورة كذا، في موضع كذا، وأن هذا بحسب الوقائع، وحسب الأحوال، ولا يقتضي ذلك تناسبًا بين الآية والآية، وصلة بين الآية والآية.

والقول الثاني: أن سور القرآن لا تخلو سورة إلا ولها موضوع، وليس ثم آية بعد آية إلا وبينها تناسب وصلة، وأنه بين أول السورة وبين ختام السورة تناسب، وأنه بين آخر السورة وأول السورة التي تليها تناسب واتساق في الموضوع. . . إلى آخر الأسرار واللطائف في علم التفسير، مما جعلوا ذلك لا يخرج عنه شيء ألبتة، وهذا قول قليلين من أهل العلم، منهم البقاعي فيما صنف في نظم الدرر، والسيوطي وجماعة ممن قبلهم وبعدهم.

والقول الثالث، وهو القول الوسط، وهو أعدل الأقوال: أن سور القرآن، منها سور يظهر للمجتهد، يظهر للعالم بالتفسير، يظهر له موضوعها

ويظهر بين آياتها من التناسب، فهذا إذا ظهر، فلا حرج في إبدائه؛ لأن الله ﷻ جعل القرآن محكمًا: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١-٢] فالقرآن كتاب لو بحثت فيه عن خلل، لو بحثت فيه عن عدم اتساق، لن تجد ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

فإذا ظهرت المناسبة، وظهر الموضوع، فلا مانع أن يقال: هذه السورة موضوعها كذا، وهذه الآية بينها وبين ما قبلها المناسبة الفلانية، بحسب ما يظهر للعالم بالتفسير وللمجتهد، دون أن يكون الهم تطلب ذلك والتكلف فيه؛ لأن التكلف في الشيء قد يفضي إلى القول في المسألة بلا علم، والاجتهاد فيما لا طائل منه، وقد يكون الاختلاف فيه كثيرًا، وهذا القول الثالث، هو القول المعتدل، الذي سلكه طائفة من العلماء بالتفسير، والعلماء الاجتهاد، ومنهم ابن تيمية وابن القيم، وجماعة من المحققين في التفسير، ويظهر لك صوابه فيما إذا نظرت إلى الكتب المؤلفة في مقاصد السور، وتناسب الآيات والسور ونحو ذلك، فإن فيها أشياء متكلفة، وفيها أشياء يتضح حسنها، بل إذا نظرت إليها، وتدبرت ما قيل من المناسبات واتصال موضوعات السور، زادك يقينًا بأن هذا القرآن إنما هو كلام الله ﷻ، وإذا قرأت السورة، أحسست بتأثير فيها، ليس كتأثير من لم يعلم موضوع السورة، ولا تناسب الآيات فيما يذكر.

لهذا نقول: إن هذه الأقوال الثلاثة المختار منها الثالث، وهو الذي يهم أن تعتني به من كلام أهل العلم؛ لأن فيه الفائدة المرجوة - إن شاء الله تعالى -، المصنفات في هذا الباب كثيرة، حتى زعم ابن العربي المالكي

- وهو من أهل الأندلس، وقد اتصل بالمشرق في فترة من عمره - زعم أنه كتب كتابًا، زعم بمعنى: قال؛ لأن زعم لا تعني التكذيب، زعم في اللغة بمعنى القول؛ كما في الحديث الصحيح: «**أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ**»[١]، فقال العلماء: إن الزعم يستعمل بمعنى القول، المقصود من هذا أن ابن العربي المالكي صاحب أحكام القرآن، وعارضة الأحوذي، وشرح الموطأ، وكتب كثيرة معروفة، زعم أنه كتب كتابًا في مقاصد السور وتناسب الآيات والسور، وعرضه على الناس في زمانه، قال: (فرأيت الناس بطلة، لم يقبلوا عليه، ولم يهتموا له مع عظيم علمه وشرف معلومه، قال: فلما رأيت ذلك الإعراض منهم، أحرقته، وجعلته بيني وبين الله ﷻ)، وكتب - أيضًا - الرازي في تفسيره بعض المناسبات إلى أن وصل الأمر إلى الزركشي، فعرض في كتابه علوم القرآن، الذي هو مسمى بالبرهان، كتب فيه أبوابًا جيدة في التناسب والمقاصد، وهي قصيرة، لكن فيها تأصيلًا لهذه المسألة، ثم جمع ذلك مع تأمل البقاعي في كتابه الكبير في التفسير، الذي أسماه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وهو مطبوع في الهند، كتاب كبير في نحو اثنين وعشرين مجلدًا، والتزم فيه بأن يذكر مقصد السورة، وأن يذكر التناسب بين كل آية والتي قبلها والتي بعدها، والتناسب بين آخر السورة وقبلها، إلى آخر ما ذكره مما جعله متكلفًا في كثير من المواضع، حتى قال عن نفسه: إنه ربما مكث شهرًا في تأمل آية بعد آية: ما المناسبة بينها؟ وعلماء عصره منهم من رد عليه؛ لهذا التكلف الذي تكلفه في كتابه، ثم السيوطي كتب - أيضًا - عدة كتب في ذلك، وذكر في كتابه إعجاز

---

(١) أخرجه مسلم (١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

القرآن، الذي هو باسم (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، ذكر من وجوه الإعجاز العلم بالمقاصد، تناسب الآيات والسور. . . إلى آخر ذلك، فإذًا: هذا العلم مبحوث عند علماء التفسير والذين كتبوا في علوم القرآن، ولكن ما بين مجيد فيه، وما بين مقصر في ذلك، وإذا تأملت هذا الموضوع، وجدت أن كثيرين من المفسرين يقولون: هذه السورة فيها الموضوع الفلاني، مثلما قال شيخ الإسلام ابن تيمية مثلًا في سورة المائدة، بأن هذه السورة كلها مختصة بعلم الأحكام: الحلال، والحرام، والعقود بخاصة، حتى قصص الأنبياء التي فيها لها صلة بالأحكام، وحتى قصة ابني آدم لها صلة بهذا الموضوع، سورة الفاتحة سميت أم القرآن؛ لأن مقاصد القرآن التي فيه هي في سورة الفاتحة، وهكذا، فإذًا: من أهل العلم من نص على الموضوع والمقصد، ومنهم من عرض له بدون التنصيص، عرض له عمليًا.

كيف يمكن أن يفهم المتدبر، أو المفسر الموضوع؟ يعني: إذا أراد أن ينظر: كيف يعرف موضوع الوسائل التي بها يعرف موضوع السورة؟ نذكر من ذلك بعض الأمور:

أولًا: أن ينص العلماء، أو طائفة من العلماء المحققين على أن هذه السورة في الموضوع الفلاني، مثلًا: سورة الإخلاص في توحيد الأسماء والصفات، أو في التوحيد العلمي الخبري: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ [الكافرون: ١] سورة الكافرون في التوحيد الطلبي - توحيد العبادة -، سورة الفاتحة في بيان محامد الرب ﷻ، سورة النحل في النعم، سورة الكهف في الابتلاء، سورة العنكبوت في الفتنة، سورة البقرة في بيان الكليات الخمس والضروريات التي تدور عليها أحكام الشريعة، وبيان عدو من أعداء

الإسلام، وهم اليهود، سورة آل عمران في تكميل ذلك مع بيان عدو جديد، وهم النصارى، والحوار معهم، ثم مجاهدة المشركين، سورة النساء في بيان أحكام النساء والمواريث، وخصص ذلك بالنساء لأجل هضم الجاهلية لحقوق النساء، ونحو ذلك، ثم بيان أحكام العدو الثالث، وهم المنافقون، ثم سورة المائدة في بيان أحكام الحلال والحرام والعقود. . . إلى آخر ذلك، مما هو تفصيل للأحكام الكلية الخمس، وأحكام الشريعة التفصيلية، وهكذا في أنحاء شتى، وهذا ينص عليه طائفة من العلماء، بأن هذه السورة في الموضوع الفلاني.

إذًا نعلم موضوع السورة بأن ينص على هذا الموضوع، أو هذا المقصد للسورة بعض أهل العلم، فيقال هذه هي السورة في الموضوع الفلاني.

كذلك المناسبات بين الآي، بأن ينص بعض أهل العلم المتحققين الراسخين بأن هذه الآية جاءت بعد هذه الآية؛ لأجل كذا، لما بينهما من الارتباط، أو هذه السورة بعد هذه السورة لما بينهما من الارتباط، وهكذا.

الوسيلة الثانية لمعرفة موضوع السورة والمقصد الذي تدور عليه السورة، المقصد نعني به: الغاية، أو الموضوع الكلي الذي تدور عليه السورة، أن يكون موضوع السورة ظاهرًا من أولها، ثم والمفسر يقرأ يظهر له أن كل السورة مبني على أولها، مثلًا سورة القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ١ - ٢] كل ما فيها ذكر لأحوال القيامة، ثم أحوال الموت، أو وسائل الإيمان بيوم القيامة؛ لهذا بحث هنا، مثلًا في سورة القيامة بحث عند من اعترض على موضوع السورة في قول الله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٦ - ١٧]

قال طائفة من العلماء - طائفة أي: واحد أو أكثر - قال طائفة من العلماء: إن هذه الآيات لا صلة لها بموضوع القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ ما صلتها بموضوع القيامة؟ وما صلتها بموضوع الموت والعاقبة؟... إلى آخره. طبعًا الآخرون ذكروا مناسبة ذلك، وبينوا مما هو ظاهر بين، كذلك مثلًا تأخذ سورة الواقعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ [الواقعة: ١ - ٧] سورة الواقعة صار موضعها حول تقسيم الناس يوم القيامة، ينقسمون إلى أقسام ثلاثة: السابق، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم بعد ذلك أدلة تتعلق بهذا الأصل، ثم حال الناس عند النزع، وأين تذهب أرواحهم، فتلحظ من السورة أن الموضوع بيّن من أولها إلى آخرها، وهذا يتضح لك من أول السورة، فإذًا: السبب الثاني أو الوسيلة الثانية لاستخراج المقصد أن يكون موضوع السورة ظاهرًا من أولها.

الوسيلة الثالثة لإدراك ذلك: الاستقراء، الاستقراء للآي من عالم بالتفسير، إما استقراء كاملًا، أو استقراء أغلبيًا، وقد ذكر علماء الأصول أن الاستقراء الذي يحتج به على قسمين:

١ - الاستقراء الكامل. ٢ - أو الاستقراء الأغلبي.

لأنه حتى القواعد ما من قاعدة إلا ولها شواذ، فالاستقراء الأغلبي حجة؛ كالاستقراء الكلي في الاحتجاج، ولكن في القوة الاستقراء الكلي أعظم من الاستقراء الأغلبي، فإذا استقرأ الآيات، واستخرج المفسر موضوعًا،

ولو لم يسبق إلى ذلك، فإن هذه وسيلة ظاهرة من وسائل إدراك المعنى، سيما إذا كان مصيبًا فيه غير متكلف في ذلك، وهناك وسائل أخرى، إذا تبين لك ذلك، فنأتي إلى ما قد ينشطكم أكثر بعد هذا العرض النظري العلمي المقعد بعض الشيء، إلى ما ينشط أكثر في بيان مثال لمقصد السورة، ثم النظر في الآيات التي تدور حول هذا المقصد، نأخذ مثالين:

الأول: سورة الفاتحة باختصار.

والثاني: سورة العنكبوت بنوع تطويل.

أما سورة الفاتحة، فهي فاتحة الكتاب، وهي أم القرآن، وتسمى -أيضًا- سورة الحمد، افتتحها الله ﷻ بحمده، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وحمده ﷻ هو الذي تدور عليه السورة، بل أول الخلق ابتدئ بالحمد، وآخر ما ينتهي إليه الخلق إلى الحمد، والناس في الأولى والآخرة بل الخلق كله من الناس وغيرهم من المكلفين وغير المكلفين يدورون بين الحمد: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، خلق السموات والأرض بالحمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وحين ينتهي الجزاء: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] قيل: يعني: قال الوجود، قالت الملائكة، قالت الخلائق، بعد أن دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، واستقرت الأمور، فافتتح الله ﷻ الكتاب بحمده، كما أنه حمد نفسه على إنزال القرآن قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١]، فإذا كان كذلك، فالحمد دارت الحياة عليه، والخلق عليه، وإنزال الرسل، وإنزال الكتب، وبعث الرسل عليه؛ ولهذا

صار الحمد هو أعظم ما يفتتح به الكتاب الخاتم، قال ﷿: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ لهذا إذا تأملت القرآن، وجدت أن الحمد يدور على خمسة معانٍ:

المعنى الأول: أن يحمد الله ﷿ على ربوبيته.

والثاني: أن يحمد على ألوهيته.

الثالث: أن يحمد على أسمائه وصفاته.

الرابع: أن يحمد ﷿ على خلقه ﷻ، وإحداثه وإبداعه للكائنات.

والخامس والأخير: أن يحمد الله ﷿ على شرعه وكتابه وما أنزل، الناس الآن يقول فلان: يعني الحمد عندهم ما معناه؟ بمعنى الشكر هل يدخل الحمد بمعنى الشكر في أحد هذه العناصر في أحد هذه الأقسام الخمسة للحمد؟ نعم، وهو الحمد على خلق الله ﷿ للصغير والكبير؛ لأنه ما من نعمة تسدى إليك إلا والله ﷿ هو الذي خلقها، فيحمد على ما أسدى، وعلى ما أرسل.

إذًا: سورة الفاتحة تدور في موضوعها على أركان حمد الله ﷿، والقرآن كله لو استوعب، فإنه يدور من أوله إلى آخره على أنواع حمد الله ﷿، فإما أن تكون الآية أو السورة في حمده - سبحانه - على ربوبيته، أو على ألوهيته، أو على أسمائه وصفاته، أو على شرعه وكتابه وما أنزل، أو على خلقه وقدره ﷻ.

ما معنى الحمد؟ قال العلماء: الحمد هو إثبات أنواع الكمالات للمحمود، إثبات أنواع الكمال للمحمود، بحيث إنه فيما أثبت له من الكمال

لا نقص له فيه بوجه من الوجوه، والله ﷻ هو المثبت له أوجه الكمال في ربوبيته، وأوجه الكمال في إلهيته، وهو المثنى عليه بأوجه الكمال في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه، وصفاته، وفي شرعه، وتنزيله، وكتابه، وفي قدره سبحانه وتعالى، وفي خلقه.

إذا كان كذلك، قال العلماء: الحمد لله رب العالمين معناه: أي أنواع الحمد؛ لأن الألف واللام هنا للاستغراق، الألف واللام تأتي لثلاثة أنواع في التفسير، الألف واللام للتعريف، للاستغراق، للملك وللاختصاص، الأول للتعريف يشملها أن تقول: للاستغراق، للملك، للاختصاص، متى تكون الألف واللام للاستغراق؟ إذا كانت يصح أن تضع مكانها كل، الحمد لله إذا قلت: كل حمد لله رب العالمين، صح أو لم يصح؟ صح، فإذًا هي للاستغراق، فإذًا هنا نقول: الحمد لله رب العالمين هذه مستغرقة لجميع أنواع المحامد لله ﷻ، أنواع المحامد - أي: الخمسة التي ذكرنا - لله، اللام هنا الثانية هذه لماذا؟ لام للاستحقاق، يعني: كل حمد لله ﷻ فهو مستحق له سبحانه وتعالى، طبعًا (أل) التي في الحمد هذه (أل) للتعريف، واللام هذه حرف جر، هي التي تأتي للملك، ولتمام الملك وللاختصاص... إلى آخره، تأتي إلى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هذا رجوع إلى أي شيء؟ إلى الربوبية، وقد ذكرنا لك أن من أركان الحمد ما يُثنى على الله به الربوبية، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، ثم ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هذا فيه الصفات، ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه الصفات، وفيه الشرع والكتاب، وفيه أيضًا الخلق والأمر ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه الألوهية ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه الربوبية، وفيه أيضًا القدر؛ لأنك تستعين بمن يعين بما يحدث في

ملكوته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] النعم الدينية هي الهداية إلى الصراط المستقيم، فهو المحمود على كل نوع من أنواع الهداية للصراط المستقيم، ثم وصف قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، وهذا نوع من أنواع النعم التي يحمد عليها، وهي راجعة إلى أحد أركان الحمد، ثم -أيضًا- يفصل في ذلك في الموضوع بأشياء من نظر آخر في أنواع المحامد، وأنواع الصفات، وأنواع العبودية، أنواع الاستعانة، . . . إلى آخر ما هنالك، هذا عرض موجز لما في هذه السورة مما يدور حولها مما ذكره بعض العلماء.

المثال الثاني: سورة العنكبوت، سورة العنكبوت سماها بعضهم أو قال بعضهم: إنها تدور حول الفتنة، الفتنة ظاهرة في أول السورة قال ﷻ: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣] فالفتنة ذكرت نصًا في أول السورة، الفتنة تكون بأي شيء؟ المرء يفتن بعقله، يفتن بالدنيا، يفتن بوالديه، يفتن بأهله، يفتن بطول المكث وطول العمر، يفتن بعدم وجود العذاب، يفتن إذًا عن إدراك الحقيقة بأنواع من الفتن، كلها موجودة في هذه السورة.

فإذًا في هذه السورة - سورة العنكبوت - ذكر الله ﷻ أنواع وأصول الفتن، وذكر كيف ينجو المرء من هذه الفتنة؛ لأن الحقيقة أن الحياة إنما هي ابتلاء وفتنة، وقد قال النبي ﷺ - كما في حديث عياض بن حمار، الذي رواه مسلم في الصحيح - قال ﷺ: «**قال الله تعالى يا محمد إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ**

بِكَ»(١) فحقيقة الحياة أنها فتنة، والفتنة هل هي بالشر أو بالخير؟ هي بالشر والخير معًا: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] إذًا: هذه السورة ذكر الله ﷻ في أولها ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الناس يشمل من؟ يشمل المؤمن، ويشمل الكافر، يشمل الكبير، ويشمل الصغير، يشمل جميع الطبقات في تعاملها مع الجميع: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢].

تقول: مؤمن، فمتى يصدق الإيمان؟ إذا عرضت لك الفتنة، فنجوت منها بشرع الله ﷻ، فقد تفتتن بنفسك، بعض الناس يفتتن بجماله، يفتتن بحسنه، امرأة تفتتن بما عندها، رجل يفتتن بماله، أحد يفتتن بوالديه، لذلك تجد أن في هذه السورة ذكرًا لجميع أنواع وأصول الفتن، والجواب على ذلك، خذ مثلًا في أولها قال الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [العنكبوت: ٨] لاحظ الوالدان يفتنان، يجاهدان للشرك، يجاهدان ليشرك العبد، هذه أليست فتنة؟ فتنة عظيمة، وقد ذكر المفسرون أنها نزلت في قصة سعد بن أبي وقاص ﵁، لما أرادته أمه على الكفر والشرك، ومع ذلك قال الله ﷻ: أن يصاحب والديه حسنًا؛ لكن لا يطيع، قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال في أولها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت:٨] هذه فتنة عظيمة فما المخرج منها؟ المخرج منها في تحقيق شرع الله، أن لا تطيع في الكفر،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﵁.

والشرك، أو في معصية الله، لكن تصاحب بالحسنى، ومن الناس من تعرض عليه الفتنة، فيصاحب والديه لا بالحسنى، ولكن بالعقوق، ويكون قد وقع في بعضها، لكن من يصبر على هذا الأمر العظيم، وهو أن يصاحب بالحسنى، وأن لا يطيع، هذه هي النجاة في الفتنة في هذه الحال.

من أنواع الفتن: أن يكون أناس كثيرون يكفرون بالله ﷻ، لا يؤمنون، فيأتي المرء، فيظن أنه وأهل الإيمان قليل، أن الكفار، أو المنافقين، أو المجرمين أو العصاة أنهم كثير، كيف هو يستقيم؟ كيف يثبت؟ هذا نوع من الفتنة، يعرض على القلوب، وقل من الناس من يثبت، ينظر الناس كلهم كذا، وفي هذه السورة الخبر، وفيها العلاج، فاقرؤوا وتأملوا.

من الفتن - أيضًا - التي ذكرت في هذه السورة: أن الإنسان ينظر إلى طول مكث أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ، ينظر إلى طول مكثهم في الأرض يتمتعون بالقوة، إلى طول مكثهم، وهم الذين يسيطرون من أعداء الله الكفار والمشركين، فربما يحمله ذلك على أن تزين له الدنيا، وأن يصد عن سبيل الله: ذكر الله ﷻ:

قصة نوح عليه السلام في آيتين، ما مناسبة هاتين الآيتين لموضوع السورة؟ هو الفتنة، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥] قصة نوح في آيتين ما مناسبتها؟ طول هذا المكث، تسعمائة وخمسين سنة وهو يدعوهم، والمؤمنون قليل كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] قال بعض العلماء: كان المؤمنون

ثلاث عشرة نفسًا، وقال آخرون: كانوا بضعة وسبعين من الرجال والنساء، مكث ألف سنة والشرك بالله ﷻ يعلو، عبادة الأوثان: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وشرك بالله، وهذا ينصحهم، ويدعوهم ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ولا مستجيب إلا هذه الفئة القليلة، ألا يحصل للقلوب فتنة؟ يحصل فتنة، ليست مرور عشر، عشرين سنة، خمسين سنة، مائة سنة، مرت مائتان، ثلاثمائة، أربعمائة، خمسمائة، ألف سنة إلا خمسين عامًا، وثم جاء فرج الله ﷻ.

إذًا: فقد يفتتن المرء بطول مكث الأعداء، فهذه السورة نبهت المؤمن الصادق: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١]، وقال في الآية التي قبلها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

متى يعلم؟ إذا عرضت الفتن، فنجا، فإذًا موضوع السورة عندنا الفتنة، حتى قصة النبي كان مرجعها إلى الفتنة، بما ينجيك أنت من الفتنة التي تطال بعض الناس، يظن أن أمر الله ﷻ يحصل له كما يريد، لا، حكمة الله ماضية، الله ﷻ يبتلي كما ابتلى نوحًا عليه السلام وقومه بأنه مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومع ذلك لم يستجب منهم إلا القليل، هذا نوع من الافتتان المخرج منه في هذه السورة، وهو الصبر ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ

وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] قصة إبراهيم عليه السلام فيها نوع من الفتنة، في من يجادل في من يحاور، في من يذكر، لا يستسلمون، وإنما يكيدون، ويتخذون أشياء للمودة وللدنيا: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] فإذًا هناك محاولات... إلى آخره، وهذه يحصل فيها نوع افتتان، قل من يصبر على الحق، ويمكث عليه، وأن لا يتأثر بهذه الفتنة في الشبه التي يلقيها المشركون أو التي يلقيها الكفار، وهذه الشبه تتجدد بتجدد الأزمان، بعدها ذكر الله ﷻ قصة لوط عليه السلام، وفيها الافتتان بالشهوة، الافتتان بشهوة الرجال، التي هي مناقضة للفطرة، وأيضًا الشهوة بأنواعها، والإعلان بها، وأنه لا ضرر منها، ومن نهى عنها، إنما هو الذي يُهجر، وهو الذي يرد عليه، نهاهم: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ولكن قالوا له: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] فتنة بأن زوجة لوط عليه السلام، التي هي في بيته، كانت ممن وقعوا في شراك أولئك، فتدل الرجال على الرجال الذين يأتون لوطًا، أو نحو ذلك: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] هذا نوع من الفتنة بالشهوة، الشهوة ما المخرج منها؟ المخرج منها بأن يعلم الإنسان أنها فتنة، الشهوة التي في جسم الإنسان أرادها الله ﷻ لبقاء النسل، ولأن يختبر العبد: هل يصبر أم لا يصبر؟ هل يتحمل، ويسير على ما أراد الله ﷻ، أم يتبع نفسه هواها، ويطلق الحبل على ما يريد؟ فصارت الفتنة، فأوقع الله ﷻ العقوبة بمن

لم ينتهوا عن نهيه ﷻ.

من الفتنة -أيضًا - أن يكون الناس في علم، وأن يكون المجتمع يعلم، ولكنه لا يأبه بالعلم، الجاهل يُعلَّم، لكن من يُعلِّم؟ أو من ينشر العلم، المجتمع الذي ينتشر فيه العلم، ويَعْلَم الناس الحدود، ويستبصرون، ولكن مع ذلك يخالفون أليست هي فتنة؟ العلم لم يكن إذًا في حقهم نعمة، بل كان فتنة، ولهذا ذكر الله ﷻ أن عادًا وثمودَ كانوا علماء علموا، وكانوا مستبصرين، لكنهم مع ذلك خالفوا فقال ﷻ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] زين لهم الشيطان أعمالهم، وصدهم عن السبيل، وكانوا مستبصرين، هل كانوا يجهلون؟ لا، كان العلم قاصرًا؟ لا، يعلمون، ولكن زين لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل، والحالة أنهم كانوا مستبصرين، على بصيرة، وهذه فتنة عظيمة أن يكون المرء على علم، فيطيع الشيطان، ويترك العلم الموروث عن الرب ﷻ وعن نبيه ﷺ.

القوة - أيضًا - فتنة، المجادلة والحوار فتنة، الآن يطرح في كثير من الأحيان مباحث الحوار: الحوار مع النصارى، الحوار بين الحضارات، الحوار بين الديانات، الحوار بين المذاهب، الحوار بين الملل... إلى آخره، وهذا الحوار نوع من أنواع الفتنة، والآن تبثه بعض القنوات الفضائية؛ لأن فيه تأثيرًا على من قلبه ضعيف، يرى مللًا ونحلًا، وهذا يعبد كذا، وهذا يعبد كذا، قد يشك، ويفتتن، لكن المؤمن الصادق يعلم أن هذا التنوع، وهذا التعدد، وهذا الاختلاف إنما هو دليل من أدلة أن الحق واحد، وأن هؤلاء - كما قال الله ﷻ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا

حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٣ - ٤] - أرادوا الطريق إلى الله ﷻ، فأخطؤوه، لكن موضوع الحوار يحاور المرء أو لا يحاور، يجادل أم لا؟ هذه قد تعرض على المرء هذه الفتنة، ولكن من الذي يجادل؟ من عنده علم، وليس كل أحد؛ لهذا ذكر - كما يعلم بعضكم - أن أناسًا جادلوا، إما جادلوا ملحدًا، أو جادلوا غير مسلم، أو نصرانيًا، أو يهوديًا، أو جادلوا صاحب ملة من الملل، أو مذهب من المذاهب الضالة، أو نحو ذلك، فربما غلبوا، أو ربما كانوا أقوى، فوقع الافتتان في الناس، الله ﷻ في هذه السورة بين أن الفتنة تقع إذا لم يكن الحوار من عالم، وبالتي هي أحسن، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦] إلى أن قال الله ﷻ: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فذكر ﷻ النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، لكن ممن؟ ممن هو عالم بالقرآن: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾، ولهذا من لم يعلم القرآن، وحجج القرآن، وبينات القرآن، والبراهين التي في القرآن، وكيف جاء في القرآن الحوار مع الملحد، الحوار مع المتجبر، ومع الطاغوت، ومع الناس بجميع أصنافهم، من لم يعلم ذلك، فإنه لا يصلح للحوار، فليس كل أحد يحاور برأيه وبفكره، وإنما الحوار للعلماء، الحوار كما يسمى، أو المجادلة كما في القرآن، هذه إنما هي لأهل العلم الذين يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ.

فإذًا: تقع الفتنة بالمجادلة، يقول: جادلني، لماذا أنت ما تجادلني؟ ويبدؤون يبحثون في الجدال والحوار، ويبحثون القضايا، هذا نوع افتتان

للعامة، فإذًا لا بد هنا أن ينظر المرء في هذه الحال، أن يكون معتزًا بدينه، وأن يعلم أن القرآن هو الحق، وأنه من كان في صدره، فهو الذي على الحق؛ لأن القرآن حجة ماضية على الجميع، ولهذا قد يكون المرء لا يعلم بعض الحجج، فإذا كان كذلك، فإنه يقول كما قال الله ﷻ: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وهذه المجادلة الإجمالية، ثم التفصيل عند من يعلم القرآن ويعلم الشريعة.

من الفتن التي ذكرت - أيضًا - في هذه السورة أن يجعل الله ﷻ الحياة جميلة بلهوها، ولعبها، وما فيها من الملذات، حتى ينسى المرء الآخرة، قال ﷻ في آخر السورة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ لأن كثيرين من الناس افتتنوا بالحياة، لهو ولعب، ويظن أنها ستمتد به، ولا يعلم حقيقة الحياة، قال الله ﷻ بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] الحيوان هذا صيغة مبالغة من الحياة، يعني: الدار الآخرة، يعني: الجنة والنار هي ذات الحياة الباقية الكاملة، فمن أراد قمة النعيم وكمال النعيم والتلذذ، فهو في الجنة في الآخرة، ومن أراد الهرب من المؤذيات، فالمؤذيات كلها في النار، والذي يريد الهرب أن يهرب من النار، ولهذا قال طائفة من العلماء: - هذه ذكرها ابن الجوزي وجماعة -، ما ذكر الله ﷻ في القرآن من أنواع نعيم الدنيا؛ لتنظر إلى نعيم الدنيا، ولتتذكر به نعيم الآخرة، فكل مثال في الدنيا للنعيم أو للتلذذ هو حجة عليك في تذكرك نعيم الجنة، وكل مثال في الدنيا لأنواع المؤذيات، ولو كانت حشرة صغيرة، أو كان حرًا يسيرًا، فهو مثال يذكرك الله ﷻ به لما يكون في الآخرة من النكال، ومن العذاب، ومن الحرمان، فمن أراد حقيقة الحياة

والسعادة، فليبحث عن السعادة الأبدية، والحياة الدنيا هذه باللهو واللعب: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ﴾ تحدث فتنة، ما افتتن الناس إلا باللهو واللعب في هذه الحياة الدنيا، لماذا قست القلوب؟ لأجل أن الناس أقبلوا على اللهو واللعب، لماذا أعرضوا عن الآخرة؟ لأنهم أقبلوا على اللهو واللعب، لماذا قل نصيبهم من القرآن؟ لأنهم أقبلوا على اللهو واللعب، والجاد العاقل هو الذي ينظر إلى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ من الفتن التي ذكرت في هذه السورة، وذكر فيها المخرج من الفتنة، الفتنة بالأمن، أمن الحرم، أمن ما حوله، يحصل الأمن سنوات، وسنوات، وسنوات، فيغتر الناس بأننا لن يصيبنا ما أصاب غيرنا، الزلازل تصيب الآخرين، أما أهل الحرم، فلا تصيبهم، الموبقات: ضيق المعيشة، النكد يصيب الآخرين، أما أهل الحرم، فيقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، أو يقولون: نحن الخاصة، أو يقولون، أو يقولون، قال ﷻ في بيان هذه الفتنة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧] هذا لفت النظر إلى هذا النوع من الإنعام من الله ﷻ، وأن لا يكون هذا الإنعام افتتانًا، أن لا يكون هذا الإنعام سببًا للافتتان بهذه النعمة، وهذا الرخاء الذي جعل الله ﷻ أهل مكة فيه زمن النبوة، وما شاء الله من الأزمان بعده، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ ما الغرض من هذا؟ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧] أفبالباطل يؤمنون بعد هذا الإنعام؟ يؤمنون بالباطل، وبالشرك، والكفر، وإنكار رسالة محمد ﷺ، وطاعة الشياطين، أو بما هو دون ذلك من المعاصي والموبقات والآثام ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ من الذي أنعم؟

الله ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣].

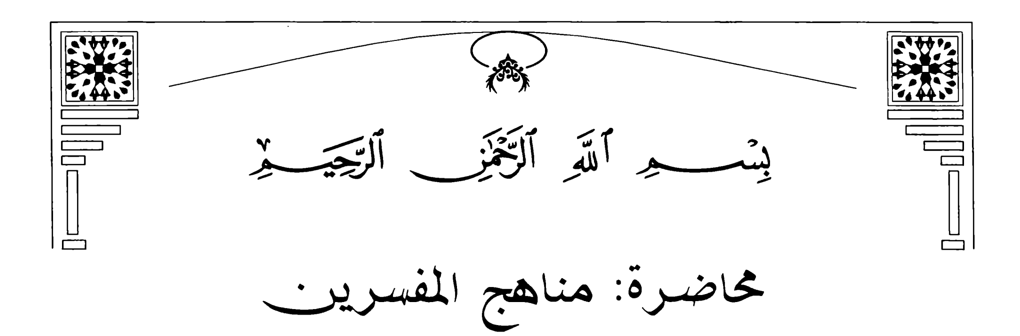
إذًا: من الافتتان الذي قد يصيب الله به بعض العباد - كما ذكر في هذه السورة -، أن يظن العبد أن البلاء إنما هو للآخرين، وأما هو، لن يبتلى، نقص الرزق يكون لفلان من الناس، أما هو، لا، المرض يكون لفلان، أما هو، لا، الإصابة بالأمراض الشديدة - أجارنا الله وإياكم منها - إنما يصاب به الآخرون، أما هو، صاحب صحة وعافية، السكتة، الغضب... إلى آخره، يصاب به الآخرون، أما هو، لا يتذكر؛ قال ﷻ في بيان هذا المثال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ﴾ هذه أمثلة من أنواع الافتتان وأنواع البلاء، وما في هذه السورة مما يتصل بهذا الموضوع، ثم يتعانق في هذه السورة الابتداء مع الختام، ليدلك على قول من قال من أهل العلم: إن موضوع السورة يتعانق فيه البداية مع النهاية، فقال ﷻ في بدايتها: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] ما المخرج في جميع هذه الحالات؟

الجواب في آخر السورة، في آخر آية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩] موضوع مقاصد السور، وأثر ذلك في التفسير له شعب من جهة التنظير، وله أيضا شعب من جهة التطبيق، وإذا تأملت ما ذكرت من هذين المثالين في سورة الفاتحة، وسورة العنكبوت يكون لك به نظرة ورؤية إلى ما يذكره العلماء في موضوعات السور، وما تشتمل عليه.

إذًا : كما اتضح لك الآن أن فهم آيات سورة العنكبوت الآن تقرؤها ، ربما يكون لك تدبر آخر ، يكون تأثرك بالسورة ، وبالنظر فيها آخر ترى الآيات غير ما كنت تقرأ سابقًا ، لماذا؟ لأنه اتصل عندك الموضوع ، وفهمت هذه الآية ، ولماذا أتى بقصة النبي فلان؟ ولماذا أتى بقصة النبي الآخر - عليهم جميعًا السلام -؟ إلى آخر ما هنالك ، فإذًا هذا الموضوع - وهو موضوع مقاصد السور - من العلم النادر العزيز ؛ لكنه مهم لكل طالب لعلم التفسير بقدر ما ذكرنا ، وهو أن ينص أحد من العلماء على المقصد والموضوع ، وأن يكون ظاهرًا في دور آيات السورة عليه ، أسأل الله ﷻ أن يبارك لي ولكم فيما سمعنا ، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته ، وأن يزيدنا منه علمًا ، وأن يذكرنا منه ما نسينا ، وأن يجعلنا من المحلين لحلاله ، المحرمين لحرامه ، المعتقدين لما فيه من الغيب ، إنه سبحانه جواد كريم ، كما أني في الختام أرجو لكم جميعًا في إقبال هذه الدروس العلمية أن تنتفعوا من أصحاب الفضيلة المشايخ الذين يشاركون فيها - جزاهم الله خيرًا - ، وأنا بهذه المناسبة أشكر كل الإخوة في هذا المسجد من إمام المسجد الأخ خالد الزريقي ، وجميع الإخوة الذين معه ، وكذلك أصحاب الفضيلة الإخوة المشايخ الذين يشاركون في هذه الدورة على ما يتعبون ، ويبذلون ، وفي الجلوس للإخوان في طلب العلم ؛ لأننا في زمن نحتاج فيه في بذل الدعوة ، وبذل العلم ، إلى جهاد ، أما الراحة ، الوقت واسع للراحة ، لكن نحتاج إلى بذل وبذل ، كل في مجاله ، وكل فيما يستطيعه ، أسأل الله ﷻ للجميع الهدى والتوفيق ، وأن يبارك في الجهود ، وأن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى ؛ إنه سبحانه ولي ذلك ، كما أسأل ربي - سبحانه - أن يوفق ولاة

أمورنا لكل خير، وأن يرزقهم البطانة الصالحة التي تذكرهم بالخير، وتدلهم عليه، وأن يبارك فيما يعملون من الخير، وأن يجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، كما أسأله ﷻ أن يباعد بيننا وبين سبل المضلين، وأن يرد كيدهم إلى نحورهم، إنه - سبحانه - على كل شيء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.





محاضرة: مناهج المفسرين

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وهو القائل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فهذه الدورة متخصصة في التفسير وعلوم القرآن، وإن من مباحث هذه الدورة: الكلام على مناهج المفسرين، والكلام على مناهج المفسرين مهم؛ لأن التفاسير لكتاب الله ﷻ كثرت جدًا، حتى بلغت أكثر من مائة من التفاسير الموجودة بين أيدينا اليوم، والتفاسير المفقودة كثيرة، والتي لم تطبع أيضًا كثيرة، وهكذا.

فلا بد لطالب العلم الذي يحرص على معرفة معاني كلام الله ﷻ أن يعلم مناهج أولئك المفسرين وطرائقهم، حتى إذا راجع تفسيرًا لأحد أولئك، يعلم ما يتميز به ذلك التفسير؛ ويعلم منهج المؤلف؛ حتى لا يضيع بين كثرة التفاسير.

مناهج المفسرين: المقصود بها: الطرائق والخصائص التي يتميز بها

التفسير، فمناهج: جمع منهج، والمنهج والنهج هو الطريق الملتزم، يعني: أن مناهج المفسرين هي: الطرق والشروط التي اتبعوها في تفاسيرهم، والمناهج هذه متنوعة متعددة.

والمفسرون منهم من يذكر شرطه في تفسيره، ومنهم من لا يذكر ذلك، فإذا كانت المناهج هي الطرق التي سلكها المفسر في تفسيره، فأصبحت قواعد له في التفسير، أو أصبحت مميزات وخصائص له في تفسيره هذه المناهج كيف تعلمها؟ مثلًا: كيف تعلم منهج ابن جرير في تفسيره، أو منهج القرطبي، أو منهج ابن كثير في تفسيره... إلى آخر تلك التفاسير؟

لمعرفة المنهج أحد طريقين:

الطريق الأول: أن ينص المفسر على شرطه في التفسير في أول تفسيره، أو أن ينص عليه في مواضع متفرقة من تفسيره مع خطبة الكتاب.

فإذا نص على شرطه - كما نص ابن كثير رحمه الله على شرطه وطريقته في التفسير في أول التفسير، وكما نص القرطبي على ذلك بوضوح؛ حيث قال: وشرطي فيه أني كذا وكذا، وكما نص عليه أبو حيان الأندلسي في كتابه البحر المحيط، وهكذا في عدد من التفاسير ينص المفسر على شرطه في تفسيره - فإذا نص المفسر على شرطه في تفسيره، صارت تلك الشروط المنصوصة منهجًا له؛ فنقول: منهجه في التفسير كذا وكذا، بناءً على شرطه الذي نص عليه في تفسيره.

والطريقة الثانية: أن يعلم شرطه في تفسيره، ويعلم المنهج عن طريق الاستقراء.

والاستقراء - كما هو معلوم - قسمان: استقراء تام أو أغلبي، والنوع الثاني: استقراء ناقص.

والاستقراء حجة إذا كان تامًا، أو أغلبيًا؛ لأنه يكون دالًا على صحة ما بُحث بالاستقراء، فإذا استقرأ أحد أهل العلم تفسيرًا من التفاسير، وقسم طريقة ذلك المفسر: في العقيدة يسلك هذا الطريق، وفي الحديث والأثر يسلك هذا الطريق، وفي النحو يسلك هذا الطريق، وفي الإسرائيليات يسلك هذا الطريق، واستقرأ ذلك استقراءً تامًا، بتتبع التفسير من أوله إلى آخره، أو استقرأه استقراءً أغلبيًا، فنقول هنا: منهجه في التفسير كذا وكذا.

أما إذا كان الاستقراء ناقصًا، فتش في التفسير صفحة، وصفحتين، وثلاثًا، أو مجلدًا ومجلدين، ولم يستقرئ التفسير بتمامه، فلا يجوز أن يعتمد على ذلك الاستقراء الناقص، ويقال: طريقة فلان في التفسير كذا، أو طريقة التفسير الفلاني كذا؛ إذ لابد لكون الاستقراء حجة، أن يكون استقراءً تامًا أو أغلبيًا، كما هو مقرر في موضعه من علم أصول الفقه.

فإذا وجدت شروط ومناهج للمفسرين، عرفنا تلك المناهج عن طريق شرط المؤلف، أو عن طريق الاستقراء التام أو الأغلبي.

وإذا لم يمكن الاستقراء، ولم يوجد الشرط، فنستعمل عبارة أخرى غير منهج المفسر في تفسيره كذا، وكذا نقول: تميز التفسير الفلاني بكذا، وكذا، من خصائص التفسير الفلاني كذا وكذا، من خصائص الدر المنثور كذا، وكذا، تميز الدر المنثور بكيت، وكيت من الطريقة، فإذًا: نعدل عن استعمال لفظ المنهج إلى لفظ المميزات والخصائص، إذا لم يكن مشروطًا،

أو إذا لم يكن مستقرأ استقراءً تامًا أو أغلبيًا .

والنبي ﷺ أنزل عليه القرآن على سبعة أحرف، فثبت عنه بالتواتر ﷺ أنه قال: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»[١]، ونزول القرآن على سبعة أحرف عليه ﷺ، فإن ذلك يستفاد منه في التفسير فوائد كثيرة.

والنبي ﷺ لم ينقل عنه من التفسير الشيء الكثير، وإنما نقل عنه تفسير كثير من الآيات، ولكنه ليس بالأكثر، والصحابة رضي الله عنهم نقل عنهم من التفسير أكثر مما نقل عن النبي ﷺ، فالنبي ﷺ فسر آيات كثيرة بحسب الحاجة، ففسر مثلًا قوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] بأن الزيادة هي النظر لوجه الله الكريم عز وجل، وفسر قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] بأن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى.

وكذلك فسر ﷺ قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] بأن القوة الرمي، ففي الصحيح عنه ﷺ قال: «**أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[٢]، وهكذا في أشياء من هذا القبيل.

كما فسر الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله عز وجل: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] بأن الخيط الأبيض والخيط الأسود هو سواد الليل وبياض الصبح أول ما ينفجر[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨)، من حديث عبد الرحمن بن عبد القارئ والمسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠) من حديث عدي رضي الله عنه.

أولًا: الصحابة ﷺ كانوا يهابون أن يسألوا رسول الله ﷺ عن التفسير، وكانوا يعلمون أكثر معاني كلام الله ﷻ، وذلك لأنهم ﷺ شهدوا التنزيل ومشاهدة التنزيل ومعرفة أسباب النزول تورث العلم بمعاني الآيات، فكما هي القاعدة عند أهل العلم أن معرفة السبب يورث العلم بالمسبب.

ثانيًا: الصحابة ﷺ في عهده ﷺ كانوا يرتحلون معه، يغزون معه، يجاهدون معه، ويسمعون كلامه ﷺ من جهة السنة، فالسنة مفسرة للقرآن، كذلك ما يعلمونه من تنوع الأحرف، وأن هذه الآية أتى تفسير لها في الحرف الآخر من القرآن، أو أتى تفسيرها في موضع آخر من القرآن، كما نقول مثلًا في قوله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَتَطَهَّرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، في أولها قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ هنا هل يكتفي في جواز إتيان المرأة الحائض أن تطهر أم لا بد أن تغتسل؟ لابد لهذا من تفسير، في القراءة الأخرى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في شواهد كثيرة لذلك، يعني: أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، والقرآن منه الأحرف السبعة التي أنزلت على النبي ﷺ، ومن الأحرف السبعة القراءات السبع المعروفة، والعشر التي بقيت في الأمة من مجموع الأحرف السبعة.

فإذًا: القرآن يفسر بعضه بعضًا، والصحابة ﷺ كانوا يرجعون الآية التي يحتاجون إلى تفسيرها إلى موضع آخر، أو إلى قراءة أخرى، فيتضح المعنى لهم، وهم أهل تدبر للقرآن؛ لأنهم امتثلوا قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

بعد عهده ﷺ كثر التابعون، واحتاج الناس إلى أن يفسر لهم القرآن، وسبب زيادة التفسير في عهد الصحابة عن عهد النبي ﷺ أن الحاجة إليه دعت، وذلك أن الصحابة مع النبي ﷺ كانوا يشهدون التنزيل، ويعلمون كثيرًا من السنة، ويعلمون القرآن والأحرف، وذلك بخلاف زمن التابعين، فإنهم كانوا أقل في ذلك من الصحابة رضي الله عنهم؛ فلذلك احتاج من بعدهم إلى أن يفسر الصحابة رضي الله عنهم لهم ذلك.

أيضًا من المهمات في التفسير التي تميز بها الصحابة رضي الله عنهم في عهده ﷺ وبعد عهده، العلم بلغة العرب؛ لأن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، ومن سبل فهم هذا القرآن أن يكون المتدبر له على علم بلغة العرب، فلغة العرب سبيل فهم القرآن؛ لأن القرآن جاء بلسان العرب؛ قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤]، فاللسان يبين معنى الكتاب معنى ما أنزل الله ﷻ، ولهذا يحتاج الصحابة إلى معرفة موارد الكلمة في القرآن في لغة العرب، فيفسرونها بما دلت عليه في اللغة، وعمر رضي الله عنه - على سبيل المثال في ذلك - لما كان يتلو سورة النحل في يوم الجمعة على المنبر وقف مرة عند قوله ﷻ: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧] قال عمر: ما التخوف؟ كأنه أشكل عليه معنى التخوف في هذه الآية، فقام رجل من المسلمين، فقال له: يا أمير المؤمنين، التخوف في لغتنا التنقص، قال شاعرنا الكبير الهذلي(١):

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

(١) سبق عزوه (ص ١٠).

وابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أعلم معنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها - يعني: ابتدأتها - قبله، ففهم منها معنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: ابتدأهما على غير مثال سابق لهما، وابن عباس له في الاحتجاج بالشعر وباللغة الميدان الواسع، وبمطالعة قصته مع نافع بن الأزرق وصاحبه(١)، وأسئلة ذينك الرجلين لابن عباس يتضح هذا، فإنهما رأيا ابن عباس رضي الله عنهما يفسر القرآن، ولا يُسأل عن آية حتى يفسرها، وهو في ذلك حري لدعاء النبي ﷺ له بذلك، فقال نافع لصاحبه: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن، نسأله عن مصادقه من لغة العرب، فأتيا ابن عباس، فقالا له: يا ابن عباس، إنا سائلوك عن آي من القرآن لتخبرنا بمعناها، على أن تبين لنا مصادق كلامك من كلام العرب، فقال: سلا عما بدا لكما. قالا: ما معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] في سورة المائدة ما الوسيلة هنا؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الوسيلة: الحاجة.

فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمعا إلى قول عنترة(٢):

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ ... إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي

قالا: فما معنى قول الله عز وجل: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾ [المعارج: ٣٧]

---

(١) أخرجها الطبراني (١٠/ ٢٤٨).
(٢) سبق عزوه (ص١٠).

ما العزون؟ فقال ابن عباس: العزون الجماعات في تفرقة، جماعة هنا، وجماعة هنا، وجماعة هنا، فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ - هما يسألانه ليس للاستفادة من ابن عباس، ولكن ليحرجاه - فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمعا إلى قول الشاعر[1]:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا

واحتجاج الصحابة ﷺ في التفسير بلغة العرب كثير في ذلك.

فإذًا: يكون عندنا هنا أن مصادر الصحابة ﷺ في التفسير عدة، فمن مصادرهم في التفسير القرآن بأحرفه السبعة وبالقراءات؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا؛ لأنه مثاني، ومن مصادر الصحابة في التفسير: السنة - يعني: سنة النبي ﷺ -، فإن النبي ﷺ فسر لهم آيًا تنصيصًا، وسنته تفسر لهم آيات كثيرة من القرآن لا على وجه التنصيص.

كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة ﷺ أسباب النزول؛ لهذا قال ابن مسعود ﷺ: ما من آية أنزلت إلا وأنا أعلم متى أنزلت، وأين أنزلت، والله لو أن أحدًا على ظهر الأرض عنده علم بالقرآن ليس عندي تبلغه المطي لرحلت إليه[2]، وابن مسعود ﷺ كان من أعلم الصحابة ﷺ بأسباب النزول، وهكذا غيره.

فمن مصادر التفسير عند الصحابة أنهم كانوا يعلمون أسباب النزول، كذلك معرفتهم بلغة العرب، فإنهم كانوا أهل علم باللسان العربي،

---

(١) سبق عزوه (ص ١١).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٩).

كما ذكرنا لكم شواهد ذلك.

كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة ﵃ العلم بأحوال العرب؛ لأن القرآن نزل يفصل أحوال الناس، ففيه حديث عن مشركي العرب، فيه حديث عن أهل الكتاب، فيه حديث عن أنكحة العرب، فيه حديث عن بيوع العرب، فيه حديث عن علاقات القبائل بعضها ببعض، وهكذا في أشياء شتى، فالعلم بأحوال العرب، العلم بتاريخ العرب، بقصص العرب، هذا يورث العمل بمعاني القرآن، مثلًا في قول الله ﷻ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، أمر بإتيان البيوت من الأبواب، وترك إتيان البيوت من ظهرها، بمعرفة تاريخ العرب وحال العرب في ذلك نعلم معنى هذه الآية.

كذلك فيما يتعلق بالأنكحة، كذلك فيما يتعلق بأحوال البيوعات والتجارات التي كانت عند العرب، وهكذا في أنحاء شتى.

فمن مصادر التفسير عند الصحابة ﵃ - يعني: من مراجع الصحابة ﵃ في التفسير - العلم بأحوال العرب التي كانوا عليها، فإن من لم يعلم أحوال العرب التي كانوا عليها في عقائدهم، وفي دياناتهم، وفي تعبداتهم، وفي علاقاتهم الاجتماعية، وفي تجاراتهم، . . . إلى آخر هذه الأحوال، فإنه لن يحسن التفسير؛ لأنه سيجعل التفسير يناسب قومًا آخرين غير الأوائل، والقرآن نزل للأولين والآخرين، ومعرفة السبب تورث العلم بالمسبب والعبرة - كما هو معلوم - بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

لكن لابد من معرفة ما تشتمل عليه الآية أولًا، ويدخل فيها من جهة المعنى من باب الأولية.

كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة ﵃: سؤال بعضهم بعضًا، فإن

ابن عباس رضي الله عنهما سأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: ٤]، فسأل ابن عباس عمر رضي الله عنهم، فقال: من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ فقال عمر رضي الله عنه: عائشة وحفصة رضي الله عنهما[(١)]، فالصحابة رضي الله عنهم يسأل بعضهم بعضًا عن التفسير، فصار من مصادر التفسير عند الصحابة سؤال بعضهم بعضًا، فيسأل الصغير الكبير، ويسأل من لا علم عنده من عنده علم، فصار عندهم احتجاج في التفسير بالقرآن، وبالسنة، وباللغة، وكذلك بأقوال الصحابة، إلى تفاصيل في ذلك يضيق المقام عن بسطها.

الصحابة رضي الله عنهم توسعوا في التفسير، وكان من مشاهيرهم في التفسير عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وكانت ولادته في شعب أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له النبي ﷺ عدة مرات بأن يعلمه الله التأويل، وأن يعلمه الله الفقه، فقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[(٢)] وقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ**»[(٣)] وقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[(٤)] في حوادث مختلفة وفي رواية مجتمعة؛ قال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»، فبرز ابن

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٥٣١)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٣)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٧٣)، والصغير (١/ ٣٢٧)، والكبير (١٠/ ٢٦٣، ١١/ ١١٠، ١٢/ ٧٠)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

عباس رضي الله عنهما في التفسير كثيرًا، وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكذلك عائشة رضي الله عنها، وكذلك عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة، وكذلك علي رضي الله عنه، فهؤلاء الأربعة أو الخمسة يكثر النقل عنهم في التفسير: ابن عباس، وابن مسعود، وعائشة، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

تميزت تفاسير الصحابة رضي الله عنهم بأشياء منها:

أولًا: أنها تفاسير اشتملت على الألفاظ القليلة والمعاني الكثيرة؛ ولهذا من أتى بعدهم، فإنما يحوم حول كلام الصحابة، ولهذا قال ابن رجب رحمه الله في كتابه (فضل علم السلف على علم الخلف) قال: كلام السلف قليل، كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير، قليل الفائدة، فمما يظهر لك في تفاسير الصحابة أنها كلمات قليلة، ولكن تحتها المعاني الكثيرة.

ثانيًا: تميزت تفاسير الصحابة رضي الله عنهم بأنها تفاسير سليمة من البدع، سليمة من الضلال في الاعتقاد؛ لأنهم هم أئمة المتقين، وأئمة السلف، وإليهم المرجع في التوحيد والعقيدة، فتفاسيرهم مضمونة لا غلط فيها، ولا إشكال فيها، فمن أخذها، فهو يأخذ مطمئنًا، وأما تفاسير من بعدهم، فحصل فيها من الانحراف بقدر ما عند من بعدهم.

ثالثًا: من مميزات تفاسير الصحابة رضي الله عنهم: أن تفاسيرهم يكثر فيها اختلاف التنوع، ويقل فيها اختلاف التضاد، واختلاف التنوع معناه: أن يعبر عن تفسير الآية بشيء هو من مفرداتها، لا بشيء كلي يشمل جميع المعاني، ولكن من بعض مفرداتها، كما فسروا مثلًا الصراط المستقيم، فسره بعضهم بالقرآن، وفسره بعضهم بالسنة، وفسره بعضهم بالإسلام،

وهذه من اختلاف التنوع؛ لأن القرآن، والسنة، والإسلام، بعضها يدل على بعض، ولا يتصور قرآن بلا سنة، أو سنة بلا إسلام، فهذا يسمى من اختلاف التنوع في مباحث في هذا العلم، وهو اختلاف التنوع، واختلاف التضاد، فصلها الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في رسالته في أصول التفسير.

بعد زمن الصحابة رضي الله عنهم تكونت مدارس، لا شك أن كل صحابي له تلامذة أخذوا عنه، فابن مسعود رضي الله عنه في الكوفة له تلامذة أخذوا عنه التفسير، وابن عباس رضي الله عنه في مكة له تلامذة أخذوا عنه التفسير، فمثلًا: من تلامذة ابن عباس رضي الله عنه: عبيدة السلماني، والربيع بن خيثم، في غيرهم من علماء التابعين بالتفسير.

من تلامذة ابن مسعود رضي الله عنه في التفسير: سعيد بن جبير، وعكرمة، وطاووس، وغير أولئك، فإذًا الصحابة رضي الله عنهم الذين فسروا القرآن - وكذلك علي رضي الله عنه في المدينة - كل منهم صار له تلامذة، أخذوا عنه التفسير، من أبرز تلامذة ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير مجاهد بن جبر، أبو الحجاج، وقد عرض التفسير على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث مرات، عرض القرآن من أوله إلى آخره، يسأل ابن عباس رضي الله عنهما عن التفسير، فيجيبه ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير، ولهذا قال عدد من أئمة السلف: إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فحسبك به؛ لأن مجاهدًا رحمه الله عرض التفسير على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث مرات، كما سبق.

هذه المدارس صار فيها نوع اختلاف، مدرسة ابن مسعود رضي الله عنه فيها اختلاف عن مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما، من أوجه الاختلاف مثلًا: أن ابن مسعود رضي الله عنه كان ينحى كثيرًا في التفسير منحى التفسير بأسباب النزول

وبالقراءات، ابن عباس ﵄ كان ينحى كثيرًا في التفسير، التفسير بالسنة وباللغة العربية بالاجتهاد، فهنا توسعت، فصار هناك مدرسة، ومدرسة، ومدرسة، كل مدرسة لها خصائصها التي تميزها عن غيرها.

بعد التابعين أتى تبع التابعين، فتوسعوا - أيضًا - في التفسير، ومن ثم بدؤوا تدوين التفسير، بدأت كتابة التفسير، كان التفسير ينقل حفظًا، ينقله الصحابة ﵃ عن بعض الصحابة ﵃، ينقله التابعون عن الصحابة ﵃ عن النبي ﷺ، ثم نقله تبع التابعين، عن التابعين، عن الصحابة ﵃، ثم ابتدأ تدوين التفسير، فبدأ هناك من يصنف في التفسير؛ كما صنف السدي - مثلًا - تفسيره - أعني به: السدي الكبير إسماعيل بن عبد الرحمن -، وصنف - أيضًا - عبد الرحمن بن زيد بن أسلم تفسيره، وهكذا في غيرهم.

هذه الكتابات في التفسير انتقلت على شكل كتب، ثم توسعت الكتابة في التفسير إلى أن وصلنا إلى تفاسير جمعت المأثور عن الصحابة ﵃، وعن التابعين، وعن تبع التابعين في التفسير بالإسناد، مثل: تفسير عبد بن حميد، تفسير عبد الرزاق - تفسير عبد الرزاق مطبوع، وتفسير عبد بن حميد لم يطبع - ومثل: تفسير الإمام أحمد، وتفسير ابن أبي حاتم، ومثل: تفسير ابن جرير الطبري.

هذه التفاسير دونت تفاسير الصحابة ﵃ بالأسانيد، هذه المدرسة تسمى مدرسة التفسير بالأثر، يعني: المدرسة التي يفسر فيها المفسر بناء على ما ينقله من كلام السلف على الآية، فينقل بإسناده عن الصحابة، ينقل بإسناده عن التابعين في تفسير الآيات، ولا تجد في تلك التفاسير كثيرًا من التفسير

الخارج عن تفاسير السلف. هناك في خضم هذه الفترة - يعني: إلى نهاية القرن الثالث تقريبًا - ابتدأت كتابات مختلفة، فيها تفسير القرآن بالنحو؛ لأنه نشأت مدارس نحوية، نشأت مدرسة نحاة البصرة: سيبويه ومن معه، ونشأت مدرسة نحاة الكوفة، ثم بعد ذلك نحاة بغداد. . . إلى آخره.

والنحو معتمد على القرآن، والمدرسة النحوية تؤثر نظرها في النحو في التفسير، فصار هناك رأي في التفسير من جهة النحو، ورأي في التفسير من جهة اللغة، فصنفت عدة مصنفات؛ كمعاني القرآن للأخفش الأوسط سعيد ابن مسعدة، وكذلك مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن مثنى في كتب على هذا النحو.

أتى هنا ابن جرير - وهو إمام المفسرين -، فصنف كتابه جامع البيان، وهو أعظم كتاب ألف في تفسير القرآن بالإجماع، وبه عد ابن جرير إمام الأئمة في التفسير، ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ محمد بن جرير المولود (٢٢٤ هـ) المتوفى (٣١٠ هـ) صنف التفسير، وجمع فيه ما تكلم عليه العلماء قبله في التفسير، غلب عليه الأثر، ولكنه اعتنى بالتفسير بالنحو، والتفسير باللغة، يعني أن تفسيره صار فيه غلبة لمدرسة التفسير بالأثر، ولكن المدرسة الأخرى التي حدثت هي مدرسة التفسير بالرأي، ومدرسة التفسير بالأثر كانت قبل ابن جرير وبعد ابن جرير، فمن تفاسير العلماء التي تنتمي لمدرسة التفسير بالأثر - كما ذكرت لك -: تفسير عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والإمام أحمد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، ثم بعده البغوي، وابن كثير، والدر المنثور إلى غير ذلك.

مدرسة التفسير بالرأي حدثت، ومدرسة التفسير بالرأي اختلف في تعريف الرأي فيها، ما معنى التفسير بالرأي؟ ويجمعها أن يقال: التفسير بالرأي معناه: التفسير بالاجتهاد والاستنباط، والاجتهاد الذي عمله أصحاب هذه المدرسة قسمان: اجتهاد محمود، واجتهاد مذموم مردود على صاحبه، وقد جاء عن النبي ﷺ في غير ما حديث - حسنها بعض أهل العلم، وضعفها آخرون - أنه قال: «**مَنْ قَالَ في الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1] ففيه ذم للتفسير بالرأي؛ لأن الأول أنه إن فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار، وفي الثاني أنه إن فسر القرآن برأيه، فقد أخطأ، ولو أصاب، قال العلماء: هذا محمول على المعنى التالي، وهو أن التفسير بالرأي إذا كان عن هوى، وعن انحراف، فإنه يكون تفسيرًا برأي يتبوأ صاحبه مقعده من النار، فحملوا قوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ في الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» بمن قال في القرآن برأيه الذي نشأ عن هواه، لا عن أدلة صحيحة - كما قدمنا -؛ لأن الصحابة اجتهدوا في التفسير، وقالوا في التفسير بأشياء لم ينقلوها عن النبي ﷺ، فإذا قلنا إنه يذم جميع أنواع التفسير بالرأي، يعني: بالاجتهاد والاستنباط، فإذًا يذم الصحابة على اجتهادهم في التفسير، وهذا باطل قطعًا.

فإذًا: يكون قوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» محمول على من قال في القرآن برأيه الذي نشأ عن هواه، كقول أهل الفرق المنحرفة والفرق الباطلة، كقول المرجئة والقدرية في القرآن، وكقول

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٦).

الخوارج، وقول المعتزلة، وقول الأشاعرة، وأشباه هذه الأقوال في القرآن، فمن قال في القرآن برأيه، وحمل معاني القرآن على رأي حدث بالإجماع بعد زمن النبوة بمائة سنة أو أكثر، فإنه متوعد بأن يتبوأ مقعده من النار، أما قوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ**»[1] قال العلماء: معناه: من قال في القرآن برأيه، وكان رأيه عن جهل، لا عن علم، فوافق الصواب اتفاقًا، ولم يأت للصواب عن علم ويقين وبينة، مثلًا: واحد يفسر القرآن هكذا بمزاجه، بما يطرأ في ذهنه، يظهر له معنى من الآية، فيفسر، فهذا وإن أصاب الصواب في التفسير، لكنه أخطأ ومتوعد؛ لأنه تجرأ على القرآن وفسر القرآن بغير علم.

فإذًا: مدرسة التفسير بالرأي لها اتجاهان: من أهلها من فسر القرآن بالرأي الناشئ عن هوى؛ كما فسر المعتزلة القرآن بآرائهم وأهوائهم، وكما فسرت الخوارج، والإباضية، والرافضة القرآن بآرائهم وأهوائهم، وكما فسر الأشاعرة والماتريدية القرآن بآرائهم وأهوائهم، وتركوا تفاسير السلف إلى تفاسير محدثة، فهؤلاء مذمومون؛ لأنهم فسروا القرآن برأي لا دليل عليه، ولا حجة فيه، وإنما نشأ ذلك التفسير عن هوى منهم في ذلك التفسير، فهذا رأي مذموم ومردود على صاحبه، وتمثله عدة تفاسير من التفاسير المعروفة التي ينتمي أصحابها إلى شيء من الفرق التي ذكرت لكم بعضها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢)، والنسائي في الكبرى (٨٠٨٦) من حديث جندب رضي الله عنه.

القسم الثاني: من مدرسة التفسير بالرأي: الذين فسروا القرآن بالاجتهاد والاستنباط، وكان اجتهادهم واستنباطهم صحيحًا، وهذا إنما يسوغ إذا كمل المفسر شروط جواز التفسير بالاجتهاد والاستنباط، وقد تجمع الشروط التي بها يجوز للمفسر أن يفسر القرآن بالاجتهاد والاستنباط، تجمع الشروط فيما يلي:

الشرط الأول: أن يكون عالمًا بعقيدة السلف وبالتوحيد؛ لأن العلم بذلك به يأمن المفسر من أن يفسر القرآن عن هوى، أو على نحو من آراء المعتزلة، أو الجهمية، أو الخوارج، أو القدرية، أو المرجئة، . . . إلى آخر تلك الفرق.

الثاني: أن يكون عالمًا بالقرآن، يمكنه أن يفسر القرآن بالقرآن، حافظًا للقرآن، أو يستطيع أن يرد المتشابه في موضع إلى المحكم في موضع، وحبذا لو كان عنده علم بالقراءات.

الثالث: أن يكون عالمًا بالسنة؛ حتى لا يجتهد في آية التفسير فيها منقول عن النبي ﷺ.

الرابع: أن يكون عالمًا بأقوال الصحابة؛ حتى لا يفتدي تفسيرًا، ويظهر تفسير الصحابة على خلافه، وباليقين أن التفسير الذي أحدث والصحابة على خلافه نقطع ببطلانه، وابن جرير رحمه الله من المهتمين بهذا، فمثلًا عند قوله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: ١٩٠] نقل عن الصحابة وعن التابعين أن المراد هنا بالضمير في الآية: آدم وحواء، قال: ونقل عن الحسن أنه قال

المراد بهم: اليهود والنصارى، يعني: من جهة الجنس، قال: وهذا القول باطل، وإنما حكمنا ببطلانه؛ لإجماع الحجة من الصحابة على خلافه[١]، فيكون القول به محدثًا على خلاف أقوال الصحابة، وهذا من المهم للمفسر أن يرعى أقوال الصحابة ﷺ؛ حتى لا يحدث قولًا بخلاف أقوال الصحابة ﷺ؛ لأننا نجزم أنه لا يمكن أن يكون ثم تفسير يغيب عن الصحابة ألبتة، ويكون عند من بعدهم؛ لأن الصحابة هم أولى بإدراك الصواب، فإذا كان تفسير الآية لا يعرف عند الصحابة، والصحابة يفسرون بخلاف هذا التفسير الذي اجتهد فيه صاحبه أو استنبطه، فإنه نجزم بأن هذا التفسير غلط؛ لأن تفسير الصحابة ﷺ حق والحق لا بد أن يكون محفوظًا في الصحابة ﷺ؛ لأنهم أهل العلم بالقرآن، وأولى من يعلم القرآن.

أيضًا: أن يكون عالمًا بأحوال العرب - كما ذكرنا -؛ حتى لا ينزل آيات القرآن على غير تنزيلها.

كذلك أن يكون عالمًا باللغة العربية في نحوها، وفي مفرداتها، وفي صرفها، وفي علم المعاني من علوم البلاغة، وهذا العلم الأفضل أن يكون بالقوة الذاتية - يعني: بالعلم الذاتي في نفسه -، وإن كان بالقوة القريبة - يعني: بالمراجعة وبالكتب -، فلا بأس إذا استقامت له أصوله، وهناك شروط أخر ذكرها طائفة من أهل العلم.

المقصود من هذا ألا يجترئ من يظن نفسه يحسن التفسير على التفسير بالاجتهاد والاستنباط، ولم تكتمل عنده آلاته؛ لأن القول في التفسير

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير(٩/ ١٤٨).

شديد؛ ولهذا حرم جماعة من السلف القول في القرآن بالاجتهاد، وقالوا: لا نفسر القرآن إلا بالنقل عن الصحابة، وبعد الصحابة ليس لأحد حق في أن يفسر القرآن، وهو مذهب جماعة قليلة من التابعين.

هذه المدرسة - مدرسة التفسير بالرأي بقسميها: الرأي المحمود، والرأي المذموم - يمكن أن نجمل التفاسير التي تنتمي لهذه المدرسة إلى أربع مدارس كبرى؛ وذلك لأن التفسير بالرأي أكثر بكثير جدًا من التفسير بالأثر، التفاسير التي تنقل بالأثر قليلة بالنسبة للتفاسير التي تفسر بالرأي.

التفاسير بالرأي يأتينا الآن في المدارس بيان تلك التفاسير، فلها عدة مدارس:

الأول في التفسير بالرأي: مدارس فسرت القرآن بالنظر إلى العقائد، وهذه متنوعة، فكل أصحاب عقيدة عانوا تفسير القرآن، الرافضة لهم تفاسير للقرآن: تفسير الطبرسي، وتفسير الطوسي، وهلم جرا. المعتزلة فسروا القرآن، يريدون بذلك أن يبثوا عقائدهم في تفسير القرآن، وفي أغراض معلومة، من طالع أوائل كتب التفاسير التي تفسر على هذا النحو، علم ذلك. الخوارج لهم تفاسير على هذا النحو، الأشاعرة لهم تفاسير كثيرة على هذا النحو مثل: تفسير القرطبي، وتفسير أبي السعود، وتفسير الرازي، وأشباه هذه التفاسير. الماتريدية - أيضًا - لهم تفاسير مثل: تفسير النسفي، وتفسير الألوسي روح المعاني، وغير هذه التفاسير.

هذا قسم فسروا القرآن من جهة العقيدة، وقد يكون لهم اعتناء بأشياء أخر، لهم اعتناء بالفقه، باللغة... إلى آخر ذلك.

لكن لهم اعتناء بالعقيدة، يعني: بثوا العقائد في التفسير، وكان لهم هم في أن يقرروا عقائدهم في كتب التفسير.

المدرسة الثانية: المنتمية لمدرسة التفسير بالرأي مدرسة التفسير الموسوعي، ونعني به: الذي لم يشترط صاحبه في تفسيره على نفسه نوعًا من أنواع علوم التفسير، ولكنه طرق كل علم من علوم التفسير، فتجده يفسر القرآن بالأثر، ويفسره بأسباب النزول، ويفسره باللغة، ويفسره بالأحكام الفقهية، ويفسره بالأحوال العامة، بالعلوم المختلفة، بالتاريخ، بالفلك، بالرياضيات... إلخ، كل علم عنده يدخله في التفسير، هذا يسمى التفسير الموسوعي، ومن أشهر التفاسير التي تنتمي لهذه المدرسة تفسير (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي، وتفسير الألوسي (روح المعاني)، فإنهم جمعوا فيها كل شيء، حتى قيل عن تفسير الرازي: فيه كل شيء إلا التفسير.

وهذه المدرسة تمتاز بكبر تفاسيرها، فمثلًا عندك تفسير الرازي **٣٢** جزءًا، وعندك تفسير الألوسي **٣٠** جزءًا كبيرًا.

القسم الثالث أو المدرسة الثالثة:

التفاسير اللغوية أو النحوية: وهذه يعتني أصحابها بالنحو، بالإعراب، باللغة، بالاشتقاق، وهذا مثل: تفسير أبي حيان الأندلسي (البحر المحيط)، ومثل: (إعراب القرآن) للنحاس، وأشباه هذه الكتب.

القسم الرابع والأخير:

التفاسير الفقهية: وهي الموسومة بتفاسير أحكام القرآن؛ لأنهم جعلوا همهم في التفسير أن يقرروا أحكام القرآن، وذلك لأنهم يكونون في

الغالب فقهاء، والفقيه يعتني بعلمه، فإذا فسر القرآن، يأتي علمه الذي برز فيه في التفسير، فتجده يطيل، أو يعتني بآيات الأحكام، أو الآيات التي فيها أحكام فقهية، أو قواعد فقهية، أو أصولية.

مدرسة التفاسير الفقهية، أو أحكام القرآن متنوعة بحسب المذاهب، فالحنفية لهم تفاسير، والشافعية لهم تفاسير فقهية، يذكرون فيها أحكام القرآن على طريقتهم، يعني: على طريقة مذهبهم الفقهي، الحنابلة كذلك، والمالكية كذلك.

فمثلًا من تفاسير الحنفية في ذلك: (أحكام القرآن) للجصاص، ومن تفاسير الشافعية في ذلك: (أحكام القرآن) للكيا، وللمالكية (أحكام القرآن) لابن العربي المالكي، و(أحكام القرآن) للقرطبي، وللحنابلة (أحكام القرآن) لعبد الرزاق الرسعني، و(أحكام القرآن) لابن عادل الحنبلي، فكل مذهب اعتنى بالأحكام الفقهية على مذهبه، وجعلها تفسيرًا للقرآن، هذا مجموع مدارس التفسير بالرأي.

كل تفسير من هذه التفاسير له منهج، له طريقة اعتمدها في تفسيره، ولو عرضنا لتفسير واحد من هذه التفاسير سواء في مدرسة التفسير بالأثر، أو مدرسة التفسير بالرأي لنبين شروطه وطريقته، لاحتاج إلى درس خاص في ساعة أو ساعتين لنبين شروط فلان في تفسيره، مثلًا (تفسير ابن جرير) نحتاج فيه إلى درسين ثلاثة، (تفسير ابن كثير) نحتاج فيه - أيضًا - لبيان منهجه في كذا، (أحكام القرآن) للقرطبي نحتاج إلى وقت فيه، لكن المقصود الإشارات التي بها يمكن أن تدخل هذا العلم الواسع علم مناهج المفسرين.

هذه المدارس ظلت تمشي، وفي خضمها ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله -، شيخ الإسلام كان يفسر القرآن، لكنه لم يؤلف تفسيرًا، والذي صنفه وكتبه ووجد في مجلدة مستقلة أنه كان يعتني رحمه الله في التفسير بتفسير آيات أشكلت على المفسرين، يعني: آيات كثر فيها الخلاف بين المفسرين، ولم يتضح الراجح فيها، فيدخل ابن تيمية رحمه الله في تفسيرها، وقد ندم شيخ الإسلام رحمه الله آخر عمره على أنه لم يجعل النصيب الأوفر في عمره للتفسير؛ لأنه بالتفسير يستطيع المصلح والمجدد، ويستطيع الإمام والعالم أن يقرر ما يريد، يقرر مناهج السلف، يقرر التوحيد، يقرر العبادات، يقرب الناس إلى ربهم، يذكر بالآخرة، يعظ، في التفسير يستطيع أن يصل للناس بجميع مشاربهم.

شيخ الإسلام وابن القيم لم يفسروا كل القرآن، وإنما فسروا واعتنوا بآيات أشكلت، وبما يهم تفسيره من آيات، أو سور في التوحيد، مثل: تفسير سورة الإخلاص، تفسير سورة سبح اسم ربك الأعلى، تفسير المعوذتين وأشباه ذلك، آية الكرسي أو آيات أشكل تفسيرها.

إذًا شيخ الإسلام وابن القيم تميزت تفاسيرهما بشيئين:

أولًا: أنهم اعتنوا بتفسير سور فيها التوحيد والعقيدة بعامة، أو اعتنوا بتفسير آيات أشكل تفسيرها على العلماء من قبل.

ظلت هذه المدارس تمشي وتزحف، والخلف يقلدون من قبلهم فيها، وهكذا إلى أن وصلنا إلى مشارف العصر الحديث، أنا سرت بكم تاريخيًا، مرورًا على مدارس التفسير؛ حتى يكون عندك تصور إجمالي للتفاسير،

واتجاهات التفاسير منذ نشأة التفسير في زمن النبي ﷺ إلى وقتنا الحاضر.

بدأ العصر الحديث، والعصر الحديث يحتاج إلى ضابط، بداية العصر الحديث هذا متى؟ فبالنظر إلى اختلاف وجهة التفسير يمكن أن نقول: إن العصر الحديث يبدأ في التفسير ببداية القرن الرابع عشر يعني من ١٣٠٠هـ فما بعد؛ وذلك لأن التفاسير فيما قبل هذا التاريخ سارت على نمط التفسير قبل ذلك، أو في القرن الثالث عشر الهجري ظهر تفسير الألوسي، وقد سار على نحو ما قبله، وظهر تفسير الخطيب الشربيني، وهو على نحو ما قبله، وظهر تفسير صديق حسن خان، وهو على طريقة ما قبله، وظهر تفسير الشوكاني (فتح القدير)، وهو على طريقة ما قبله، يعني: أنه منذ ابتداء تميز التفاسير، مدرسة التفسير بالرأي على نحو ما ذكرنا، لم يظهر اختلاف كبير في مدارس التفسير، حتى ابتدأنا في العصر الحديث.

العصر الحديث ظهرت تفاسير مختلفة، ومتنوعة المشارب، واجتهادات كثيرة في التفسير، وكان لذلك سبب، ولا بد من معرفة السبب؛ حتى يتصور لم صارت تلك المدارس؟

لما جاءت الحملة الاستعمارية على البلاد الإسلامية، وبخاصة حملة نابليون على مصر، وصار فيها ما صار من ضرب لأصول العلوم الإسلامية، نشأت ناشئة طلب منهم أن يذهبوا إلى فرنسا، فيدرسوا فيها العلوم والأدب، أو العلوم حديثة، أو ما شابه ذلك، وكان الأزهر إذ ذاك يمانع أن يرسل أحدًا من أبناء المسلمين إلى أوروبا، فصار هناك اقتراح أن يذهب مع كل طائفة عالم من علماء الأزهر؛ حتى يشرف على أولئك الطلبة، وحتى يعلمهم، ويحجزهم من الانحراف إن كان.

فذهب في مقدمة من ذهب بعض علماء الأزهر - من غير تسمية -، وهؤلاء لما رجعوا مع التلامذة تأثروا بما عند الغرب، صار عندهم شيء من الإحراج، الغرب عنده كذا وكذا من التقدمات، وبلاد المسلمين في ذلك الوقت في تأخر وعدم تطور مدني، فصاروا في إحراج من جهة أن سبب التأخر عزي في ذلك الوقت إلى الدين، وسبب التأخر عزي إلى اتباع الناس للكتب القديمة، وللتفاسير القديمة، والناس ظلوا على ذلك المنحى، وهي التي أخرتهم عن التطور، فظهرت هناك أقوال كثيرة تشكك في الإسلام، وتشكك في القرآن، وتشكك في الدين، وتشكك في السنة، إلى غير ذلك، حتى صار ذلك شائعًا في الناس.

في ضوء ما قلنا ظهرت فئات كثيرة من المسلمين تشككت في الدين، في القرآن، وفي السنة، وبسبب تلك البعثات وخروج مدارس الاعتناء باللغات الأجنبية، والاعتناء بالآداب الغربية، والاهتمام ببحوث المستشرقين إلى غير ذلك.

أولًا: مدرسة التفسير العقلاني: من العلماء من نظر إلى هذا الداء، فوجد أن سبيل إرجاع المسلمين إلى دينهم أن يعتني بتفسير القرآن بتفسير عقلي يعظم القرآن في أنفس الناس؛ حتى لا يبتعدوا عن الدين، وظهرت لهذا مدرسة محمد عبده، أحد مشايخ الأزهر الكبار، وأحد الذين اعتنوا بتفسير القرآن، ومن امتداد مدرسته محمد رشيد رضا، والذي كتب تفسير المنار، معتمدًا في كثير منه على تفاسير شيخه محمد عبده.

هذا الوصف الذي ذكرنا أعقب ضعفًا في نفس بعض العلماء، جعلهم

يحملون القرآن على ما عند الغرب من العلوم، فمثلًا الآيات التي فيها ذكر لبعض المعلومات الفلكية يجعلونها دليلًا على صحة القرآن، وأن القرآن سبق الغرب لذلك، أو كذلك المعلومات الطبية، أو المعلومات الغيبية، وهكذا، ففسروا القرآن بتفسير عقلي، خرجوا فيه عن التفاسير السابقة، وعن تفاسير السلف، وعن ما يجوز؛ لأجل ألا يشككوا الناس في القرآن، وأن يقبل الناس القرآن، وأن يعظموه، فأتى وفسر الآيات التي فيها بعض الكلام مثلًا على الأجنة بما عند الغرب في ذلك، وبعض الآيات الغيبية في الطب مثلًا، أو في الفلك، أو في حال المطر، أو ما أشبه ذلك، أو في العيون في الأرض، أو الأشجار، أو النبات، أو الجبال إلى غير ذلك بتفسيرات توافق ما عند الغرب من العلوم، وانهال الناس على محمد عبده، يحضرون تفسيره؛ لأنه جعل تفسيره فيه الإصلاح، وجعل فيه جدة عما كان عليه المفسرون من قبل، وضم إليه تلك التفاسير، وانحرف في كثير منها؛ إذ جعل القرآن تبعًا لمكتشفات الغرب، ومن المعلوم أن تلك المكتشفات، أو تلك النظريات تصلح في وقت، وربما أتى ما هو أفضل منها، فأبطل تلك النظرية أو ما هو أعمق بحثًا واستقراء، فصارت الأولى غير صحيحة.

فحمل القرآن على النظريات العلمية، وتفسير القرآن بالنظريات العلمية هذا لا يسوغ؛ لأنه حمل للقرآن الذي هو حق ثابت لا يتغير بشيء قد يتغير. نعم، إن القطعي لا يناقض قطعيًا، واليقيني لا يناقض اليقيني، فالعلم اليقيني لا يمكن أن يأتي في القرآن شيء بخلافه، وكذلك العلم القطعي لا يمكن أن يأتي في القرآن شيء بخلافه، لكن تلك النظريات من أجل الضعف حملت عليها آيات من القرآن، فنشأت في العصر الحديث أولى

مدارس التفسير في العصر الحديث، وهي تفسير القرآن بطريقة عقلانية يجمع فيها ما بين مكتشفات الغرب، والمكتشفات العصرية، وما بين تفاسير المتقدمين، فجعلوا خليطًا، واهتموا بالأشياء الحديثة، وظهر لذلك تفسير طنطاوي جوهري، وتفسير - كما ذكرنا - محمد عبده، وفي خضم ذلك أنكرت بعض الغيبيات، وفسر القرآن بتفاسير باطلة، وأنكرت أشياء ظاهرة، وكان في ذلك شيء من الانحراف في التفسير.

هذا نوع من مدارس التفسير التي حصلت في العصر الحديث، وسبب ظهور هذا النوع من المدارس، أو هذا النوع من التفاسير.

المدرسة الثانية من مدارس التفسير المعاصر: هي مدرسة تفسير القرآن على هامش المصحف، وكان هذا ممنوعًا في الزمان الأول أن يجعل التفسير في هامش المصحف؛ لأن القرآن يجب أن يبقى كما هو، وأن لا يدخل عليه، ولكن لما توسع العصر، وصار الناس بحاجة إلى شيء يبين لهم معاني القرآن مع آي القرآن، فجعلوا تلك التفسيرات في هامش المصحف، يعني: مع المصحف في شيء واحد، فصارت هناك تفاسير مختصرة طبعت مع المصحف.

وهذا نوع انتشر، فصار هناك من اختصر مثلًا تفسير الطبري، وجعله على هامش المصحف في السنوات الأخيرة، ومنهم من ألف تفسيرًا لنفسه، وجعله على هامش المصحف، ومنهم من اختصر، أو طول... إلى آخره بهذا الشكل، وهذا شيء جديد لم يسبق في الزمن الأول.

ثالثًا: نوع ثالث من التفاسير ظهرت في العصر الحديث: التفاسير

الدعوية، وكان لظهورها سبب، وهو أنه في هذا العصر الحديث - ونعني به ما بعد سنة ١٣٠٠ هـ - مع ظهور الفساد، وبعد الناس عن الدين، وتسلط الاستعمار، والغزو الثقافي الذي حصل للمسلمين، وإبعادهم عن دينهم وعن القناعة بشرع الله ﷻ ظهرت هناك جماعات مختلفة في العالم الإسلامي، في العربي وغير العربي، فيها الدعوة لإرجاع الناس إلى الدين، ولا شك أن الداعية يحتاج إلى أن يكون اعتماده على القرآن؛ لهذا احتاجت تلك الدعوات إلى أن يفسر بعض منهم القرآن، فاعتنى بعض كبار أصحاب تلك الدعوات بتفسير القرآن، وتلك التفاسير كان المفسر يفسر فيها مراعيًا شباب الدعوة التي ينتمي إليها، فمثلًا فسر بعضهم التفسير من جهة بتفسير على طريقة جماعة التبليغ، بعضهم فسر القرآن بتفسير على طريقة جماعة الإخوان المسلمين، بعضهم فسر القرآن على طريقة جماعة النورستانيين مثلًا، أو جماعة النور في تركيا، وبعضهم فسر القرآن على طريقة العلماء، جمعية العلماء أو رابطة العلماء في الجزائر، وهكذا، في الباكستان والهند ظهرت مدارس كتفاسير الجماعة الإسلامية، تفسير أبي الأعلى المودودي، وغير ذلك.

هذه التفاسير فيها تفسير بالرأي بجعل الواقع في التفسير، يعني: أنهم نظروا إلى التفسير من جهة التأثير الدعوي في الناس، ففسروا القرآن، وهم ينظرون إلى الواقع؛ لكي يؤثروا على الناس من طريق القرآن.

وهذه الطريقة لا شك أنه لا بد أن يُخطئ أصحابها في بعض الأشياء؛ لأن من غلب عليه الواقع في النظر إلى القرآن لا بد أن يحيد عن الصواب في بعض التفسير؛ لأن القرآن ليس لزمن دون زمن، بل هو للأزمنة جميعًا، ولهذا ظهر

من خلال هذه التفاسير غرس الجوانب الدعوية في تلك الجماعات المختلفة في تفاسير أصحابها.

هذه مدرسة، ومن أمثلة تفاسير هذه المدرسة تفسير أبي الأعلى المودودي (ترجمان القرآن)، وتفسير (في ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب، و(الأساس في التفسير) لسعيد حوى، وأشباه تلك التفاسير.

رابعًا: من التفاسير - أيضًا - التي ظهرت في العصر الحديث تفاسير المعاني للغات أخر، وهي المسماة: ترجمات القرآن، وهي تراجم لمعاني القرآن، فظهر في أغلب اللغات الحية في العالم تفسير، وهنا يقولون: تفسير للقرآن، وهذا غلط؛ لأن القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين لا يمكن لأحد أن يترجمه لأي لغة كانت، ولكن الصواب أنها تراجم لتفسير القرآن، فيأتي هذا الذي ترجم ينظر إلى الآية، ويفهم تفسيرها بمراجعة كتب التفسير، ثم يترجم ما فهمه من التفسير، وإلا فإن القرآن لا يمكن أن يترجم إلى أي لغة كانت؛ لأن لغة العرب شريفة، وفوق كل اللغات، فمثلًا خذ آية لا يمكن أن تفسر لأي لغة من اللغات، مثلًا في قول الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] هنا اللباس كيف سيفسر باللغات الأخر، اللغة العربية فيها سعة في أصول الكلمات وكليات المعاني؛ ولهذا إذا أتت الترجمة، فلا بد أن المترجم يترجم بالنظر إلى تفسير الآية، فكل ترجمة للقرآن تعد تفسيرًا، ولهذا ظهرت في التراجم المختلفة تأثر تلك الترجمة بمذهب صاحبها، فإذا كان صاحبها قاديانيًا أثر في ترجمته وهناك ملاحظات على بعض الترجمات من جهة مذهب صاحبها، فإذا أتى لنعيم الجنة وعذاب النار، فسرها على نحو ما على مشربه، إذا أتى مثلًا إلى

الرقم تسعة عشر عظم ذلك، إذا أتى لبعض الغيبيات، فسرها على طريقته ونحلته، وبعضها تراجم لمعاني القرآن سلفية طيبة لبعض اللغات الحية، وبعضها تراجم أشعرية، وبعضها تراجم ماتريدية، وبعضها تراجم دعوية.

فإذًا: تراجم معاني القرآن التي تراها هي شيء محدث في هذا العصر، وينتمي إلى مدرسة التفسير بالرأي، ويمكن للناظر فيه أن يجعله تفسيرًا، وأن يدرجه ضمن أي مدرسة من مدارس التفسير التي ذكرنا.

من الأشياء التي بقيت في هذا العصر المدارس السالفة للتفسير، فامتدت مثلًا تفسير القرآن بالنظر إلى الأحكام الفقهية، وهذا ظهرت له عدة تفاسير، مثل: تفسير (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، فإنه اعتنى بالفقهيات جدًا، وتفسير القرآن باللغويات بالبلاغة، أو بالنحو له عدة تفاسير، مثل: تفسير (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور، والتفاسير الأثرية التي اعتمد فيها صاحبها على الأثر مثل: تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وغيره، ونشأت تفاسير عقدية مختلفة: تفاسير للرافضة، تفاسير للإباضية، تفاسير للخوارج، إلى غير ذلك.

يعني أن كل التفاسير القديمة جاءتنا من جديد، فهذا العصر صار فيه تفاسير جديدة على غير التفاسير القديمة؛ ولهذا ينبغي لطالب العلم المهتم بالقرآن إذا أراد أن يراجع تفسيرًا، أو أن يجعل في بيته تفسيرًا لكتاب الله ﷻ أن يحرص أتم الحرص على أن يسأل أهل العلم: هل هذا التفسير تفسير مأمون أم لا؟ لأن من التفاسير ما لا يحمد، وربما أضل من ينظر فيه، فلابد أن تسأل، تأخذ تفسيرًا عقديًّا منحرفًا: تفسير للمعتزلة، أو تفسير للأشاعرة،

مثل: تفسير الفخر الرازي، وتنظر فيه، ربما هنا حصلت عندك شبه كثيرة في التفسير.

التفاسير - كما رأيت - كثيرة جدًا، تبلغ مئات من التفاسير، وأعدادًا كبيرة، هذا من جهة التفاسير التي فسرت القرآن كاملًا.

أما من فسر سورة من القرآن، فسر جزءًا من القرآن، فهذا ليس حديثنا فيه، مع أنه يمكن أن يدرج ضمن مدرسة من المدارس التي ذكرنا.

إذا تبين ذلك، فالترجيح - آخر المطاف - بين المدارس المختلفة في التفسير التي ذكرنا: لا شك أن الراجح والمفضل من التفاسير المختلفة التي كثرت في الأمة جدًا التفاسير التي تعتمد على أقوال السلف، وعلى أقوال الصحابة والتابعين، وهي التفاسير المنتمية لمدرسة التفسير بالأثر.

ومدرسة التفسير بالرأي مفيدة؛ لأن فيها استنباطًا، وفيها لغويات، وفيها نكتًا ولطائف - والنكت هي الفوائد المهمة -، لكن لا تؤمن؛ لأن أكثر من تعاطى التفسير بالاجتهاد والاستنباط التفسير بالرأي عنده انحراف في العقيدة، أو عنده انحراف في السنة؛ ولهذا لا بد من الانتقاء، وأقل التفاسير بالاجتهاد والاستنباط بالرأي خطأ؛ حتى تكون أخطاؤه معدودة تفسير الشوكاني الذي سماه: (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) الرواية يعني بها: التفسير بالأثر، والدراية يعني بها: التفسير باللغة والنحو، وبالاستنباط، وبتفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بأصول الفقه، إلى غير ذلك من المباحث، أسلم التفاسير هو، فمن احتاج إذًا إلى أن ينظر في تفسير من التفاسير بالرأي، فليكن تفسير الشوكاني (فتح القدير) يتلوه - وهو

أصعب منه - تفسير أبي حيان الأندلسي (البحر المحيط)، فإنه في العقيدة يغلب عليه الصحة، وأما غيرهما، ففيها انحرافات كثيرة مع كثرة الفوائد التي فيها، لكن لا تصلح إلا لطالب علم متمكن، يميز الطيب من التفسير من الخبيث فيه.

هذا عرض موجز مختصر يمكن أن تعتبره مدخلًا لمعرفة مناهج المفسرين على جهة التفصيل، ولا شك أن هذا العلم علم مهم وواسع، ولا يمكن طرقه في محاضرة، أو اثنتين، أو درس، أو عشرة، أو عشرين، لا بد له من سعة في الوقت، وأيضًا استعدادات عند المتلقين؛ لأننا إذا دخلنا في التفاسير وفي ذكر مميزاتها ومناهجها، لا بد من التفصيل، ومن التعرض لعلوم متنوعة.

تلحظ مما ذكرت أنه عرض مختصر من بداية نشأة التفسير إلى وقتك الحاضر، أسأل الله ﷻ أن ينفعك وإياي بما ذكرت، وأن يجعلنا من المتبصرين في العلم الجادين فيه، وأن ينعم علينا بالإقبال على القرآن، وأن يتفضل علينا بفهم تفسيره وتدبر آياته، وأسال الله ﷻ لي ولكم العفو والعافية، والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

تنبيه:

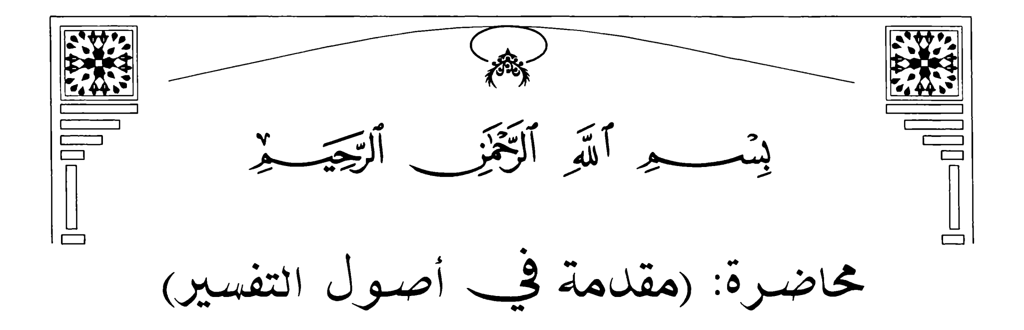
وفي الختام أريد التنبيه على تفسير ينسب لابن عباس رضي الله عنهما مطبوع اسمه (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) وهذا التفسير للفيروزأبادي المشهور صاحب القاموس، ونقل فيه تفاسير ابن عباس رضي الله عنهما المنقولة بطريق واحد،

وهذا الطريق موضوع مكذوب؛ لأنه من طريق السدي الصغير - وهو أحد المتهمين بالوضع والكذب -، عن الكلبي - وهو - أيضًا - أحد المتهمين بالكذب -، وإذا كان كذلك، فنقول: (تفسير تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) هو أوهى التفاسير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ابن عباس رضي الله عنهما أصح الطرق عنه في التفسير صحيفة علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأوهى الطرق عنه في التفسير هذا الطريق، وهو ما روي في هذا الكتاب، الذي هو من طريق بشر بن مروان (السدي الصغير)، عن الكلبي، إلى آخره.

فإذًا: (تنوير المقباس) موضوع مكذوب، لا يجوز أن ينظر فيه على أنه من تفاسير ابن عباس رضي الله عنهما، وإنما هو ملفق، وفيه أقوال مخترعة، وفيه مصائب عظيمة، لا يجوز النظر فيه إلا لمن يعرف حاله من أهل العلم.





محاضرة: (مقدمة في أصول التفسير)

الحمد لله حق الحمد وأوفاه، تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله.

نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فصلوات الله وسلامه على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن العاملين به، الذين هم أهل الله وخاصته، وأسأله - سبحانه - أن يجعل لنا حظًا من معرفة كتابه، والعلم به، والعمل به، والعمل بما أنزل الله ﷻ فيه، وعلى رسوله ﷺ، كما أسأل المولى - جلت قدرته، وتعاظمت أسماؤه وصفاته - أسأله أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وذهاب همومنا وجلاء أحزاننا؛ إنه - سبحانه - جواد كريم.

هذه الكلمة التي ستكون موجزة بالنسبة لعظم موضوعها، وكثرة فروعه وتفاصيله، عنونت بمقدمة في أصول التفسير، وهذا العنوان - مقدمة - يُعنى به: أنه مدخل، إذا تأمله طالب العلم والراغب في معرفة التفسير، أمكنه أن

يعلم التفسير، وأن يعرف طرقه، وأن يتعلم مصادره، وأن يكون على بينة وذكر من أصح الطرق التي إذا سلكها، صار عالمًا بتفسير القرآن على وجه الصواب.

والتفسير علم كبير، وعظيم، ومتنوع؛ ولهذا ترون أن التفاسير في الدنيا بلا عدد، كثيرة جدًا في أنواع من المدارس المختلفة، منها ما هو من مدرسة الأثر، ومنها ما هو من مدرسة الاجتهاد والاستنباط في أنحاء كثيرة من علوم التفسير، ولا شك أن المسلم أعظم ما يعتني به كتاب الله ﷻ؛ لأنه حجة الله الباقية؛ ولأنه النذارة؛ كما قال ﷻ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] فمن بلغه القرآن، وكان عالمًا بحججه، عارفًا بمعناه، فإنه قد بلغته الحجة، وأقيمت عليه الحجة، وأقام الله ﷻ عليه النذارة؛ فلهذا أمر الله ﷻ عباده بأن يتدبروا القرآن العظيم، وأن يقفوا عنده متدبرين متأملين، وهذا في آيات كثيرة من القرآن، منها قوله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، فجعلت هذه الآية من سورة (ص) لإنزال القرآن غايتين:

الأولى: أن يتدبر القرآن.

والثانية: أن يتذكر أولو الألباب. قال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ أي: أنزلناه لكي يتدبر الناس آيات القرآن، هذه هي الغاية الأولى: التدبر، والتدبر في حقيقته هو التفسير، هو المعرفة بمعانيه، هو المعرفة بما دلت عليه آيات الله ﷻ العظيمة في كتابه الكريم.

والغاية الثانية: أن يتذكر العباد؛ قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهذا يعني أنّ من تدبر - أيضًا -، فإنه يورث التذكر، ويورث العمل، فالقرآن أنزل لتأمله، ولتدبره، ولمعرفة معانيه، وأنزل - أيضًا - ليحصل للعبد به التذكر، يعني: أن يعمل به العبد، فيتذكر بذلك حق الله ﷻ عليه، وحقوق الله ﷻ كثيرة، وجُملها وكثير من تفاصيلها في كتاب الله ﷻ؛ لهذا فإن من فاته تدبر القرآن والعلم بتفسيره، فإنه يفوته حظ كبير من الغاية التي لها أنزل هذا القرآن، وجعله الله مباركًا.

وقال ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال ﷻ حاضًا عباده على تدبر القرآن ومعرفة تفسيره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤] أي: أن من لم يتدبر القرآن، فإن على قلبه قفلًا حجزه من تدبر القرآن من أقفال الأهواء والشهوات والشبهات إلى آخره.

قال - أيضًا - ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ [المؤمنون: ٦٨]، والآيات في ذلك كثيرة متنوعة، جعل الله القرآن بلسان عربي مبين؛ لكي يتدبر، ويتأمل، ويعلم ما فيه من حكم الله ﷻ وحُكْمه، وأمره، ونهيه، وخبره الصادق، والقرآن تام: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ لهذا بعد هذا الحض وهذا الأمر وبيان الغاية من أنزال القرآن، وهو التدبر والعمل بهذا القرآن، بعد بيان ذلك، فلا بد للمرء أن يتعلم التفسير، وأن يقرأ كثيرًا في تفسير القرآن؛ إذ من غير الحسن لطالب العلم بخاصة، ولعامة

الناس بعامة أن يسمع آيات كثيرة من القرآن، وهو لا يعلم معناها، تكرر عليه في الصلاة، وإذا سئل عن تفسيرها، لا يعلم معناها، كررت عليك سنين، ولا تجد في نفسك رغبة في معرفة تفسيرها! كلام هكذا بدون أن تعلم تفسيره، هذا لا شك أنه نقص، ولهذا ينبغي على العبد المؤمن أن يحرص كثيرًا على تفسير كتاب الله ﷻ، فهو النور الذي جعله الله ﷻ لعباده، كما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦] فالقرآن نور ورسوله ﷺ المبلغ لهذا القرآن، والمبين لتفسيره نور، فمن أخذ بذلك، فقد أوتي أنوارًا في قلبه، لا يلتبس بعدها عنده الطريق.

القرآن فسره النبي ﷺ، لكن كان ما نقل من تفسير القرآن عن النبي ﷺ قليلًا، وليس بالكثير، ففسر النبي ﷺ آيات من كتاب الله ﷻ كقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] فسرها النبي ﷺ بأن الظلم الشرك؛ كما جاء ذلك في الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**لَمَّا نَزَلَتِ الآية شَقَّ ذلك على الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ قال ليس ذلك إنما هو الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا ما قال لُقْمَانُ لِابْنِهِ وهو يَعِظُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»(١)، وفسر النبي ﷺ -أيضًا- الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]

---

(١) سبق تخريجه (ص ٨).

فسرها بأن الخيط الأبيض والخيط الأسود هو طلوع الصبح وذهاب الليل[١]، فهذه جمل من تفاسيره ﷺ، فيما صح عنه كذلك فسر القوة في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] بأن القوة: الرمي، فقال في تفسيرها: «**أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[٢].

إذا تبين ذلك، فإن المنقول عنه ﷺ في التفسير ليس بالقليل، ولكنه أقل مما نقل عن الصحابة رضي الله عنهم؛ وذلك لأن تفسيره كان بحسب الحاجة، فإذا احتاج الصحابة إلى التفسير، فسر لهم ذلك؛ كما فسر لهم قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] بأن الزيادة هي: النظر إلى وجه الله الكريم[٣]، وفسر الكوثر في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، وقال: «**الْكَوْثَرُ نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ وَعَدَنِيهِ رَبِّى** عز وجل»[٤]، وجاء في تفسيره أيضًا أنه قال: «**فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّى** عز وجل **عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ مَا تَدْرِى مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ**»[٥]، وهكذا في آيات كثيرة فسرها النبي ﷺ بحسب الحاجة، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يهابون أن يسألوا رسول الله ﷺ عن تفسير عدد من الآيات، ويفرحون بأن يأتي أحد، فيسأل النبي ﷺ؛ حتى يتعلموا منه، مضى زمن النبي ﷺ، ثم لما كثر الناس، وضعف العلم بأحوال

---

(١) سبق تخريجه (ص١٦٣).

(٢) سبق تخريجه (ص٨٥).

(٣) سبق تخريجه (ص٨).

(٤) سبق تخريجه (ص٨).

(٥) أخرجه مسلم (٤٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

النبي ﷺ، والعلم بسنته ﷺ، والعلم بلغة العرب، احتاج الصحابة رضي الله عنهم أن يبينوا للناس القرآن، فكثرت تفاسير الصحابة رضي الله عنهم بالنسبة إلى تفاسير النبي ﷺ للقرآن؛ لأن داعي الحاجة كان أكثر. في زمن التنزيل الصحابة رضي الله عنهم يرون أسباب النزول، ويعلمون أن هذه الآية أنزلت في كذا، الآيات هذه أنزلت في القصة الفلانية في غزوة بدر، أنزلت في القصة لما حدث كذا، وكذا في غزوة أحد، وأنزلت كذا في بني قريظة، وهكذا في عدد كثير من الآيات، فعلموا أسباب النزول، فعلموا التفسير، ولهذا كان ما فسر لهم من القرآن قليلًا بالنسبة إلى كثير من الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن علمهم بالقرآن كثير بما يعلمون من لغة العرب، وبما شاهدوا من أسباب النزول، وبما يعلمون من سنة النبي ﷺ، وأيضًا كانوا أهل قرآن، فيفسرون بعض القرآن ببعض، ومع ذلك فربما لم يعلم بعض الصحابة رضي الله عنهم - مع جلالة قدرهم - تفسير بعضِ الآيات، فيعلمه الآخرون؛ لأن القرآن كثير الأوجه، كثير المعاني، من ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما تلا سورة النحل على المنبر يوم الجمعة، وبلغ قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٧] قال ما التخوف؟ فقام رجل من المسلمين، فقال: يا أمير المؤمنين، التخوف في لغتنا: التنقص، قال شاعرنا الكبير الهذلي[(١)]:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

يعني: التخوف التنقص: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، فسرها هذا الرجل باللغة، بأن معنى التخوف التنقص، يعني: يبدأ ينقصهم شيئًا فشيئًا، وهم

(١) سبق عزوه (ص ١٠).

لا يتوبون، ولا هم يذكرون، يرون أنهم يتناقصون في ذواتهم، في الأفراد يتناقصون، في أموالهم يتناقصون، في صحتهم يتناقصون، في معايشهم، ومع ذلك لا يتوبون، ولا هم يذكرون، وهذا تفسير التخوف أحد وجهي التفسير في الآية آية النحل.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أعلم تفسير: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها - يعني: ابتدأتها من غير أن يكون قبل ذلك مكان للبئر -، قال: فعلمت أن معنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي ابتدأهما من غير مثال سابق، وخلقهما من غير أن يكون قبل ذلك مثال[(١)].

وهكذا فالصحابة رضي الله عنهم استفادوا التفسير، وأفادوا، وكان كلام الصحابة في التفسير المنقول كثيرًا جدًا، فنقل عن أبي بكر رضي الله عنه تفسير آيات كثيرة، كما نقل عنه تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] نقلت عنه تفاسير[(٢)]، عثمان بن عفان رضي الله عنه نقلت عنه - أيضًا - تفاسير، وعلي رضي الله عنه هو أكثر الخلفاء الذين نقل عنهم التفسير، وممن نقل عنهم التفسير من الصحابة رضي الله عنهم، وكانوا أوعية لتفسير القرآن ابن مسعود رضي الله عنه، فكان يقول: «**لو أعلم أن أحدًا في الأرض عنده علم في القرآن ليس عندي، تبلغه المطي لذهبت إليه**»[(٣)] أو قال: «**لرحلت إليه**»؛ وذلك لأنه صحب النبي صلى الله عليه وسلم زمنًا طويلًا، وشاهد التنزيل، من الصحابة رضي الله عنهم -أيضًا-

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٢٨٣)، والقرطبي (١/ ٤٤).

(٢) سبق تخريجه (ص٩).

(٣) سبق تخريجه (ص١٩).

ابن عباس رضي الله عنهما فسر كثيرًا جدًا من القرآن، عائشة فسرت القرآن، أبي بن كعب فسر القرآن، وهكذا في عدد من الصحابة؛ لذلك صار كلام الصحابة في التفسير هو الدرجة الثانية في التفسير المنقول بالأثر. الدرجة الأولى التفسير بالسنة، الذي فسره النبي ﷺ بنفسه، فهذا أغلى وأعلى تفسير، إذا كان النبي ﷺ هو الذي فسر، فلا شك أن قوله في ذلك هو الذي يجب الأخذ به، والذي يجب اعتقاده، والذي يجب قبوله؛ لأنه لا أحد أعلم بمعنى كلام الله ﷻ من رسول الله ﷺ، فتفسير الصحابة كثير.

فمن أصول التفسير أننا نعتمد في التفسير على السنة، يعني: في الآثار تأتي منزلة القرآن في التفسير، ثم بعد ذلك تنظر في تفاسير الصحابة رضي الله عنهم.

التفسير في مراتبه: النبي ﷺ فسر القرآن بالقرآن؛ كما ذكرت في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] قال: «**إنما هو الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا ما قال لُقْمَانُ لِابْنِهِ وهو يَعِظُهُ**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[1]، فهذا أصل في تفسير القرآن بالقرآن، فما كان مجملًا في آية، يجده أهل العلم بالتفسير مبينًا في آية أخرى، ما كان عامًا في آية، نجده خاصًا في آية أخرى، ما كان مطلقًا، نجده مقيدًا، وهكذا، فأعظم ما يفسر به القرآن القرآن؛ لأن الله ﷻ جعل القرآن متشابهًا، فقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] فالقرآن متشابه، يعني: بعضه يشبه بعضًا، ففي بعض الآيات نجد أنه ليس ثم تفسير للكلمة، تجد في الآية الأخرى تفسيرًا، مثل: اشتراط الإيمان في

(١) سبق تخريجه (ص ٨).

الرقبة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] في دية قتل الخطأ، وفي أنواع من الكفارة قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ نعلم هنا أن الرقبة التي ذكرت في موضع تفسيرها أنها الرقبة المؤمنة، التي ذكرت في آية النساء.

فإذًا: القرآن يفسر بعضه بعضًا، وأعلى ما يفسر به القرآن القرآن، ثم يفسر القرآن بسنة النبي محمد ﷺ، ثم بما أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، ثم بما قاله جمهور الصحابة رضي الله عنهم، الصحابة تميزت تفاسيرهم بأشياء:

١ - أنها تفاسير من علموا القرآن، وعلموا السنة؛ لأنهم شهدوا التنزيل، ويعلمون سنة النبي ﷺ، وهدي النبي ﷺ.

٢ - تميزت تفاسير الصحابة رضي الله عنهم - وهذه هي الميزة الثانية - أن تفاسير الصحابة رضي الله عنهم تفاسير من شاهد التنزيل، وعلم أسباب النزول، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض كلام له: العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَّب، يعني: إذا علمت سبب الشيء، عرفت المعنى، عرفت توجيه الكلام، عرفت المراد منه، فعلمهم بأسباب النزول، ومشاهدتهم لأسباب النزول يجعل تفاسيرهم في الغاية؛ لأنهم شاهدوا، وعلموا، فلن يفسروا القرآن بشيء يصادم أسباب النزول، أو يصادم سنة النبي ﷺ.

٣ - تميزت تفاسير الصحابة رضي الله عنهم بأنها تفاسير مأمونة من جهة الاجتهاد في اللغة؛ لأنهم أهل اللسان، ولا خطأ عندهم في اللغة، فإذا اجتهدوا في تفسير القرآن باللغة، فهو اجتهاد العالم البصير بلغة العرب؛ لأنه في زمن الصحابة رضي الله عنهم لم يفش اللحن في لغة العرب، وكان زمنهم زمن احتجاج في اللغة، فلم يأت فيه اللحن، ولم يداخل العرب الموالي من الناس من يمين وشمال، ممن أفسدوا بعد ذلك لسان العرب، فالصحابة اجتهادهم في اللغة

حجة ومقبول؛ لأنه ليس عندهم لحن، وليس عندهم غلط في اللغة.

٤ - أيضًا من مزايا تفاسير الصحابة ﷺ أن الصحابي إذا فسر في الأمور الغيبية، أو فسر في الأمور العملية، فإنه مأمون التفسير من جهة العقيدة؛ لأنهم هم قدوتنا، هم السلف الصالح الذين ﷺ، وأمرنا بالترضي عنهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فلهذا تفاسيرهم في الاعتقاد، في التوحيد، في الأمور الغيبية، في ذكر الجنة في النار، في الصفات، في توحيد الله ﷻ هي أعلى التفسير، وأصح التفسير؛ لأنه لم تحدث في عصرهم البدع، ولا الخرافات، ولا الفرق، ولا المحدثات؛ فلهذا تفاسيرهم من هذه الجهة مأمونة، فيتلقاها المسلم بطيب نفس، واتباع، وأخذ دون تردد فيما فسره الصحابة، وصح عنهم ﷺ.

٥ - تفاسير الصحابة ﷺ - أيضًا - تميزت بأنها وجيزة الألفاظ، كثيرة المعاني، وجيزة الألفاظ، قليلة الألفاظ، ولكنك إذا تأملت، وجدت أن فيها معاني كثيرة، يخرج منها العالم بعلم، يخرج منها المربي بأنواع من التربية والإرشاد، يخرج منها المتأمل بأنواع من الفوائد.

لهذا قال بن رجب في ذكر فضل كلام السلف على كلام الخلف قال: (كلام السلف قليل، كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير، قليل الفائدة)[1]، وهذا هو الحال، نجد للصحابي أو التابعي كلمتين ثلاثًا، لكنها تحرك النفوس تشعل في القلب الإيمان، محبة الله ﷻ، ومحبة رسول الله ﷺ، ومحبة

---

(١) سبق عزوه (ص ١٥).

الدين، تشعل في القلب معرفة معاني الكتاب والسنة، وأما كلام المتأخرين الخلف من أمثالنا - نسأل الله ﷻ أن يسلك بنا وبكم سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار - كلامهم كثير، لكن التحصيل الحاصل منه قليل، كلام كثير، لكنه قليل الفائدة، فهذه مزايا خمس لتفاسير الصحابة ﵃، تجعل بعد ذلك منا أن نقول: تفاسير الصحابة ﵃ لا بد من العناية بها.

إذًا من أصول التفسير أن يفسر القرآن بتفاسير الصحابة ﵃، إذا تبين ذلك، فنقول: الصحابة ﵃ في تفاسيرهم على أنحاء:

الناحية الأولى: أن يجمعوا على تفسير، فإذا أجمعوا على تفسير، لم يحل لأحد ممن بعدهم أن يخالفهم في التفسير، لمَ؟ لأنه لا يمكن أن يحجب الصواب في التفسير عن الصحابة ﵃، ثم يدركه من بعدهم؛ لأن العلم بالقرآن لا بد أن يكون موجودًا في كل طبقة من طبقات الأمة، فإذا كان الصحابة ﵃ أجمعوا على أن تفسير الآية كذا، ثم حدث خلاف بعد ذلك في زمن التابعين، أو بعد ذلك، فنعلم أنه خلاف بعد انعقاد الإجماع، ومعنى هذا الخلاف أن هذا القول إذا قلنا بصوابه، فإنه يعني أن الصحابة ﵃ لم يعرفوا هذا القول، ومعنى ذلك أن جملة الصحابة لم يدركوا التفسير الصحيح لهذه الآية، وهذا لا شك أنه ظن سوء بخيرة خلق الله بعد رسله، وهم صحابة رسول الله ﷺ، فهذه الدرجة الأولى، أو الناحية الأولى.

الثانية: أن يختلف الصحابة ﵃ في التفسير، فإذا اختلفوا في التفسير فيكون القول لمن؟ هنا ننظر إلى تفاسير الصحابة، فإذا وجدنا أن التفاسير متفقة في الدلالة، لكن مختلفة في اللفظ، فتحمل بعضها على بعض، فمثلًا: في تفسير قوله ﷻ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فسرها بعضهم الصراط

المستقيم هو: القرآن، فسرها بعضهم بالسنة، الصراط المستقيم: محمد ﷺ، الصراط المستقيم: الإسلام[1]، هذه كلها، وإن اختلفت، فهذه كلها مجالها واحد؛ لأن من استمسك بالإسلام، فقد استمسك بالقرآن، ومن استمسك بالقرآن، فقد استمسك بالسنة، وهكذا...

فإذًا: تارة يختلف الصحابة رضي الله عنهم في التفسير، لكن الناظر فيه يحمل بعض التفاسير على بعض، وهذه على القاعدة المعروفة عند أهل العلم بالتفسير أنه يحمل كثيرًا من اختلاف الصحابة رضي الله عنهم، بل الأكثر على اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد، يعني: أنه تنوعت عباراتهم، ومرادهم شيء واحد، بعضها يؤول إلى بعض، لا خلاف بينهم في ذلك، تارة يختلفون، ويكون الاختلاف - وهو قليل - اختلاف تضاد، يعني: هذا في جهة، وذاك في جهة، يعني: لا يمكن أن نقول: هذا يحمل على هذا، فإذا وجد هذا الاختلاف - اختلاف التضاد -، فينظر فيه على النحو التالي:

أولًا: ينظر هل صح هذا التفسير عن الصحابي، أم لا؟ فنبحث في صحة التفسير عن الصحابي، فقد لا يكون صحيحًا، فعندئذ يلغى الاختلاف، فلا يكون ثم خلاف في التفسير، أو معارضة بين قول وقول. فنحن نرى مثلًا في تفسير ابن جرير الطبري، أو في تفسير ابن أبي حاتم، أو في تفسير عبد الرزاق، تفاسير منقولة بالأسانيد، فننظر تفسير الصحابي: هل هو صحيح بدراسة الإسناد على طريقة أهل التفسير؟ هل هو صحيح أم ليس

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ١٤٧)، وابن كثير (١/ ٥٠)، ومجموع فتاوى ابن تيمية [التفسير (٢/ ٣٢٤)].

بصحيح؟ فإذا لم يكن صحيحًا، الحمد لله استراح الباحث، وقال: القول في تفسير الآية لا خلاف فيه، يعني: أن المخالف لم يصح عنه ذلك التفسير.

الحالة الثانية: أن تكون التفاسير صحيحة، هذا صحيح، وهذا صحيح فهنا أي شيء يرجح؟ فننظر إلى الترجيح بالكثرة، فما فسره الأكثرون من الصحابة، فهو أولى من تفسير الأقل، هذا وجه.

الوجه الثاني: من أوجه الترجيح، وأوجه الترجيح كثيرة جدًا جدًا، وثم كتب أو بحوث معاصرة جيدة في هذا الموضوع، ربما يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

إذا وجدنا أن الحالة الأولى، ما الحالة الأولى؟ يعني: الترجيح بالعدد، ترجيح بالعدد هذا الأكثر، وجدنا أنه الترجيح بالعدد غير ممكن، أو أن المفسر صاحب جلالة وقدر مثل: ابن مسعود رضي الله عنه، فسرها علي رضي الله عنه، فسرها ابن عباس، فماذا نقول في ذلك؟

هنا ننظر إذا كان يمكن أن يصحح كل من القولين، فيصحح، فنقول: ثم خلاف في الآية، فبعض أهل العلم فسرها كذا - يعني: بعض الصحابة -، وبعضهم فسرها كذا، فإذا أتى المجتهد في التفسير، ورجح، فيرجح بأمور كثيرة، تارة بالقراءات، تارة يرجح بدلالة اللغة، تارة يرجح بالسياق، تارة يرجح بالأصول - أصول الفقه - مثلًا بحمل المشترك على المعنيين جميعًا، إذا كان اللفظ مشتركًا، أو ببقاء العام على عمومه، يعني: في أنحاء يطول الكلام على تفصيلها في أوجه الترجيح عند خلاف المفسرين، الصحابة رضي الله عنهم

- هنا تنتقل إلى المرحلة الثانية - كونوا مدارس في التفسير، نقلت هذه المدارس إلى التابعين، طبعًا كل صحابي عنده طلاب، نقل لهم التفسير، علمهم التفسير، فستكون مدرسة ابن مسعود ﵁ تمثل تفسير ابن مسعود، مدرسة ابن عباس ﵄ في مكة تمثل تفسير ابن عباس، مدرسة أُبي وعلي ﵄ في المدينة تمثل تفسير علي وأبي، وهكذا، ولذلك نشأت في الأمور الاجتهادية في التفسير مدارس مختلفة، لها مزايا، فمثلًا: تجد أن الكوفيين من أصحاب ابن مسعود من التابعين ومن تبعهم، تجد أنهم يرجحون بأسباب النزول، أو بتفسير القرآن بالقرآن؛ لأن ابن مسعود كان يعتني كثيرًا بأسباب النزول، وكان يقسم، ويقول: «**والله ما من آية إلا وأنا أعلم متى أنزلت؟ وأين أنزلت؟ وفيم أنزلت؟**»[1] فهذا له وجه، فتنظر الآن في مدرسة أصحابها يرجحون، أو ينظرون إلى أسباب النزول؛ لأن صاحب التفسير الذي علمهم ابن مسعود ﵁، علمهم على ذلك، ابن عباس ﵄ كان يفسر كثيرًا بالاجتهاد باللغة، ونقل عنه من التفسير بأشعار العرب شيء كثير؛ لأنه يقول: القرآن نزل بلسان عربي مبين، والسُنَّة التي نقل فيها التفسير، أو التي فسر فيها القرآن قليلة، ولذلك كان لا بد من الاجتهاد، بأي شيء يجتهد؟ يجتهد بالنظر في اللغة؛ لهذا تجد أصحاب ابن عباس ﵄، مدرسة ابن عباس في التفسير يهتمون بالنظر اللغوي، ابن عباس ﵁ كان عالمًا باللغة حق العلم، كان عالمًا بأشعار العرب، ولما فسر القرآن في صحن الكعبة - يعني: في صحن الحرم -، أتاه رجلان من الخوارج، فقال أحدهما

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢).

للآخر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن - يعني: ابن عباس رضي الله عنهما - نسأله عن مصادقه من لغة العرب، فقاما، ثم أتيا ابن عباس، فقالا: إنا سائلوك عن بعض الآي، على أن تخبرنا بمصادق ما تقول من كلام العرب، يعني: أعطنا الدليل بتفسيرها بهذا التفسير، أعطنا الدليل من كلام العرب؛ لأن القرآن أنزل بلسان عربي، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سلا عما بدا لكما، فلما بدأ السائل قال: أخبرنا عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] الآية في سورة المائدة ما الوسيلة؟ ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الوسيلة: الحاجة، يعني: إذا كان لك حاجة، لك طلب ابتغِه عند الله عز وجل، وابتغوا إليه الوسيلة، يعني: الوسيلة: حاجات المرء وطلباته عند الله سبحانه وتعالى، لا عند غيره، فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمعا إلى قول عنترة[1]:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ ... إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي

يعني: لهم حاجة الزواج، فاستعدي: تكحلي، وتخضبي، وحني يديك ... إلى آخره من التزين، قالا: فما معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧] ما العزون؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما العزون: الجماعات في تفرقة، يعني جماعات حلق، هذه جماعة، وهذه جماعة، وهذا معنى العزين: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ يعني: متجمعين، يعني هنا مجموعة، وهنا مجموعة، جماعات في تفرقة، قال ابن عباس: العزون الجماعات في تفرقة، فقالا له يا ابن عباس: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمعا

---

(١) سبق عزوه (ص١٠).

إلى قول الشاعر[1]:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا

وهكذا في أسئلة تبلغ أربعين سؤالًا يحفظها طلبة العلم.

إذا تبين ذلك، فابن عباس رضي الله عنه هذه مدرسته في التفسير.

في المدينة مدرسة التفسير بما ينقل عن النبي ﷺ، وتفسير القرآن بالقرآن، والاقتضاب في ذلك قدر الإمكان، هذه نقلت، ونقلت حتى دُون ذلك في كتب التفسير، لما دُون ذلك في كتب التفسير، صار عندنا نوعان من كتب التفسير:

النوع الأول: من اعتمدوا في تفاسيرهم على الأثر، ينقلون بالإسناد: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا معمر، قال: حدثنا الزهري، ثم يكمل إلى النبي ﷺ، أو إلى الصحابي رضي الله عنه، فهذا التفسير بالأثر، يعني: اقتصروا في تفاسيرهم على إيراد الأسانيد، دون ذكر أشياء أخر، فهذه بها يعلم طالب العلم ما نقل عن السلف من الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين في التفسير، وهذه يمثلها تفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير الإمام أحمد، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير ابن مردويه، وتفسير ابن المنذر، وتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير، وكثير من التفاسير على هذا الغرار.

النوع الثاني: من أثر مدرسة ابن عباس، وهو الاجتهاد بالاستنباط والاجتهاد باللغة نشأت مدرسة - أيضًا - في تفسير القرآن بالاجتهاد،

---

(١) سبق عزوه (ص١١).

يعني: ينظرون فيه بالأوجه النحوية، ينظرون إليه بالأوجه العربية، ينظرون ما دلت لغة العرب، ويفسرون بذلك، لكن هذا الاجتهاد والاستنباط لا بد أن يكون اجتهادًا واستنباطًا صحيحًا، وهي **مدرسة التفسير بالاجتهاد بالرأي**، يعني: بالاجتهاد والاستنباط، وهذه كثيرة، ابتدأت - كما ذكرنا - من القرن الأول، ثم الثاني، وثم كتب كثيرة في التفسير.

إذًا: الأصل الثالث من أصول التفسير، يعني: المقدمة الثالثة أن يعلم طالب العلم أنواع التفاسير، لا بد أن تعرف أنواع التفاسير؛ لأنك ستقرأ في تفسير، هذا التفسير هل هو صحيح أو ليس بصحيح؟ مأمون أو ليس بمأمون؟ نقرأ، أولا نقرأ؟ هذا مبني على أن التفسير لا بد أن يحدد نوعه، فلهذا التفاسير - كما ذكرت لك - في الدنيا بلا عدد، إن التفاسير في الدنيا بلا عدد التفاسير كثيرة، ولكنها على قسمين:

القسم الأول: تفاسير بالأثر.

القسم الثاني: التفاسير التي يورد فيها الاجتهاد والاستنباط.

طالب العلم أول ما يقرأ في تفسير الآية لابد له أن يهتم بالتفاسير بالأثر، لابد أن يعلم تفسير الآية بالقرآن، تفسير الآية بالسنة، تفسير الآية بكلام الصحابة ﭫ، تفاسير الصحابة؛ لأن هذا - كما قلنا - هو التفسير المأمون، إذا استنفد ذلك، ومضى عليه، ورأى ما في كتب التفسير بالأثر، فهنا له أن ينتقل إلى كتب التفسير بالاجتهاد والاستنباط، كتب التفسير بالاجتهاد والاستنباط كثيرة جدًا - كما ذكرنا -، وتتنوع في أربع مدارس - ذكرناها لكم في محاضرة مضت -: **تفاسير الاجتهاد اللغوي، الاجتهاد الموسوعي**

التفاسير بالاجتهاد تنوعت، مدرسة التفسير بالرأي إلى أربعة مدارس، وهذه الكتب موجودة.

أولًا: مدرسة التفسير بالرأي العقدية، يعني: تجد المفسر يفسر، ويروم تقرير عقيدته من خلال التفسير بالرأي: عقيدة المعتزلي مثل: الزمخشري في الكشاف، وجماعات من الأشاعرة في تفاسيرهم مثل: النسفي، وأبي السعود، والرازي، وجماعات فسروا ليقرروا عقائدهم في التفسير، فتجد أنهم ما من آية يمكن أن يستدل بها في مسألة من مسائل العقيدة، أو فيها إشارة إلا ويقرر عقيدته، المعتزلي يقرر عقيدته، والرافضي يقرر عقيدته، والأشعري يقرر عقيدته، والإباضي يقرر عقيدته من خلال التفسير، وهذه مدرسة كبيرة، وحمى الله ﷻ هذه البلاد من كثير من كتب هذه المدرسة في التفسير، وهي مطبوعة موجودة.

ثانيًا: النوع الثاني من المدارس مدرسة التفسير الفقهي: يعني: بالرأي، لكن يروم أن يفسر تفسيرًا فقهيًا، لماذا؟ لأن المفسر همه الفقه، تجده يفسر تفسيرًا فقهيًا، هذا همه، فقيه هو، فأراد أن يقرر الفقه، طبعًا المفسر الذي له العناية بالفقه، إذا أتت المسائل الأخرى كالتفسير بالأثر، التفسير بالاجتهاد من جهة اللغة، ليس هو في منزلة المفسرين الأولين أصحاب التفسير بالأثر، فإذا عرفت أن هذا التفسير تفسيرًا فقهيًّا، فلا شك لا تعتمد عليه مائة في المائة - كما يقولون -، في التفسير، أوالترجيح بين التفاسير فيه عن السلف ونحو ذلك؛ لأنه تميز بالتفاسير الفقهية مثل: (أحكام القرآن) للكيا الهراس، و(أحكام القرآن) للقرطبي وكثير من التفاسير.

ثالثًا: المدرسة الثالثة من مدارس التفسير التفاسير اللغوية، وهذه قد تكون بلاغية، وقد تكون نحوية، مثل: البحر المحيط، وقد تكون بلاغية مثل: الكشاف، وأبي السعود، وغيره، وقد تكون من جهة الاشتقاق يعني: يبين لك أصول الكلمة وارتباطها، أو المفردات مثل: (مفردات الراغب)، وأشباه ذلك، مثل: (تفسير ألفاظ الكتاب) للسمين الحلبي وجماعة، يعني: أرادوا البحث اللغوي، تجد أنه عنده الآية ممكن يفسر صفحتين ثلاثًا في خلاف نحوي، هذا ما يحتاجه طالب العلم، ما يأتي واحد يقول: أنا أقرأ (البحر المحيط)، (البحر المحيط) ما يصل معه المبتدئ، أو الذي يريد التفسير يصل معه إلى تفسير الآية، هذا للمتخصص في اللغة، وعنده علوم كثيرة؛ حتى يعرف مراد أبي حيان الأندلسي في تفسير الآية، كذلك التفاسير البلاغية والإعرابية ونحو ذلك.

رابعًا: النوع الأخير من مدرسة التفسير بالرأي، وهي مدرسة التفسير الموسوعية، التي فيها كل شيء، يأتي بالعقيدة، ويأتي بالنحو، ويأتي باللغة ويأتي بالفقه، ويأتي بالأثر، يأتي بكل شيء، وهذا من مثل تفسير الألوسي (روح المعاني) وغيره من كتب التفسير.

المقصود من ذلك أن طالب العلم حتى يطلب علم التفسير لابد أن يحدد المدرسة - مدرسة هذا المرجع -، إذا حدد المدرسة، استطاع أن يتعامل مع الكتاب على وجه الصواب، وإذا لم يحدد المدرسة، يقول: أنا قرأت في التفسير الفلاني كذا، طيب هل هذا كل ما في كتب التفسير صحيح؟ لا، لا بد أن يرتب درجات النظر في معرفة تفسير كلام الله العزيز ﷻ.

إذا تبين هذا، فمن أصول التفسير -أيضًا- أن التفاسير - كما ذكرنا - كثيرة ومتعددة، وقد يكون في كثير منها خلل في العقيدة، أو ضلال في أبواب التوحيد، أو خلل في أغلاط من حيث المنهج في تقديم تفاسير الصحابة ونحو ذلك، أو عدم العناية بهذا، هذه تفيدك في معرفة أن المفسر كلما كان أقعد بمعرفة العقيدة وأصول السلف، كان تفسيره أسلم، وكان ترجيحه أقوى؛ لذلك تجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم - رحمهما الله تعالى - في مدرستهما في التفسير عندهما العلم الوافي الراسخ في التوحيد والاعتقاد، وفي اللغة، وفي معرفة أصول السلف، وتفاسير السلف، فإذا اجتهدا، أو قررا، فإنه تقرير مأمون على التفسير، ولذلك تجد أن العلماء والمحققين أخذوا بتفاسيرهما وبترجيحهما في تفسير آيات كثيرة، تبعهم على ذلك الحافظ عماد الدين ابن كثير، ولهذا تجد أن علماء الدعوة - رحمهم الله تعالى -، والعلماء المعاصرين من أنصار التوحيد والملة، تجد أنهم يوصون بتفسير ابن كثير لمَ؟ لأن تفسير ابن كثير جمع تفسير ابن جرير، فنظر فيه، وناقشه في مواضع كثيرة، وغلط ابن جرير في مواضع كثيرة، وأيضًا نظر في التفسير على الأصول: تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة، وبأقوال الصحابة... إلى آخره، كما بين في مقدمته، وفي الترجيح نظر إلى أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان ذلك أمام عينيه، وترجيحات شيخ الإسلام ابن تيمية ظاهرة في تفسير ابن كثير، مثلًا: عند تفسير قوله ﷻ في سورة الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١] أي: على قبرهم نتخذ مسجدًا، من هم الذين غلبوا على أمرهم؟ في التفسير قال: المسلمون، يعني: الذين كانوا مسلمين في وقت أصحاب

الكهف، وقال آخرون: ليسوا بالمسلمين، وإنما هم المشركون؛ لأن اتخاذ المساجد على القبور والبناء عليها هذا مما نهت عنه الرسل، فلا يمكن أن يكون أولئك من المسلمين، فجاء ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: والصحيح أن الذين غلبوا على أمرهم هم الكبراء، وأهل النفوذ، يعني: الولاة والحكام، رأوا هؤلاء صالحين، فهؤلاء صالحون، هم الذين غلبوا، هذا أيضًا مفهوم ومدركٌ من كلمة غلبوا على أمرهم، من صاحب التغلب؟ الذي يلي الأمر هو صاحب التغلب، وصاحب الغلبة فقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١] فصار التفسير أنهم ليسوا بالمسلمين، فليس فيه حجة لا تخاذ المساجد على القبور، وليسوا بالمشركين -أيضًا- في زمنهم، وإنما قاله الكبراء وأهل النفوذ فيهم(١)، فهذا نوع من الترجيح في التفسير، يتبع صحة العقيدة، ويتبع صحة التفسير اللغوي، فتلحظ أنه متفق مع أصول الدين، مع أصول الإسلام، وأصول التوحيد، ومتفق -أيضًا- مع التحليل اللغوي، وهذه مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله -، شيخ الإسلام تكلم في مجلد أو مجلدين، طبعت مؤخرًا في (تفسير آيات أشكلت)، حتى لا تكاد تجد في كتاب من كتب التفسير القول الصواب فيها، تكلم عليها شيخ الإسلام في مجلدين في (تفسير آيات أشكلت)، هذا عنوان الكتاب (تفسير آيات أشكلت) حتى لا تكاد تجد في تفسير القول الصواب فيها، وهذه - لا شك - مدرسة، فيها العلم والمعرفة.

* من المقدمات المهمة في علم التفسير أن يرتب طالب العلم نظره في

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٦)، وزاد المسير (٥/ ١٢٣).

التفسير بترتيب منهجي، وهذا سبق أن ذكرناه مفصلًا في كلمة أو محاضرة بعنوان: المنهجية في قراءة كتب التفسير، أو كيفية دراسة التفسير، هذا مهم أن طالب العلم يسمع ذلك، فيه ترتيب مطول، تبدأ بأي شيء حتى تفهم التفسير؟ بأي الكتب؟ وكيف تنمي نفسك؟ كيف تحفظ وتترقى شيئًا فشيئًا في ذلك؟ فيرجع فيه إليه.

من المقدمات المهمة في دراسة التفسيرات أن يرتب طالب العلم - ليس الذي يريد معرفة تفسير الآية، ولكن الذي يريد أن يكون عنده معرفة بكلام الله ﷻ - أن يرتبه على منهجية، وعلى خطوات محددة، الواحدة لابد أن تكون تلو الأخرى، بعد هذه المقدمات نأتي إلى أصول عامة في التفسير.

أولًا: الرأي في التفسير محرم، فقد جاء في الحديث: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1] وجاء: (**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ**)[2] قال أهل العلم: الحديث الأول محمول على من فسر القرآن بهوى، له هوى في أن يجعل الآية كذا، فمن فسر القرآن برأيه، وبدعته المذمومة؛ ليجعل القرآن ناصرًا لبدعته المذمومة، فإنه متوعد بأن يتبوأ مقعده من النار؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم، والله ﷻ قرن القول عليه بلا علم بالشرك والعياذ بالله.

الحديث الثاني: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ**» حتى ولو أصاب، فقد أخطأ، ويأثم؛ لأنه تجرأ على تفسير القرآن دون ملكة، مثل

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٦).

(٢) سبق تخريجه (ص١٤٨).

ما يقوله البعض، أو يأتي خطيب مثلًا يتكلم، أو محاضر ما يعلم تفسير الآية، وليس عنده ملكة في التفسير، فيجتهد فيها من ساعته، وهو لا يعلم التفسير - تفسير الآية -، ولا يعلم كلام أهل العلم فيها، وليس عنده معرفة راسخة بالعقيدة وباللغة، حتى يمكن أن يكون اجتهاده على وجه صواب، فلهذا هنا من فسر القرآن برأيه، يعني: الذي نشأ عن جهل بأدوات التفسير، فإنه أخطأ، ولو أصاب، حتى لو وافق قوله الصواب، يقول لك: أرجع إلى كتب التفسير، راجعت كتب التفسير، وجدت هذا القول، لكن حين تكلم هل تكلم بعلم أو برأي؟ تكلم برأي لا بعلم. هذا هو الذي جاء الحديث فيه: أخطأ وإن أصاب؛ لأنه فسر برأيه، ولم يفسره بحجة، وإنما برأيه المجرد.

فإذًا: يجتنب طالب العلم، وهذه من المقدمات المهمة أن يجتنب تفسير القرآن بالرأي الذي ليس ناشئًا عن علم؛ لأنه جرب أن من فسر القرآن بذلك مع كونه يأثم، وأنه وإن أصاب، فهو مخطئ، فكيف إذا أخطأ، لكنه يحرم بركة التفسير، ولا يعلم التفسير؛ لأنه يتجرأ، وكلام الله ﷻ لا بد أن تأخذ القلوب هيبة من بيان معانيه إلا بعلم وحجة، هذا كلام من؟ كلام الله سبحانه وتعالى وتقدست أسماؤه وصفاته.

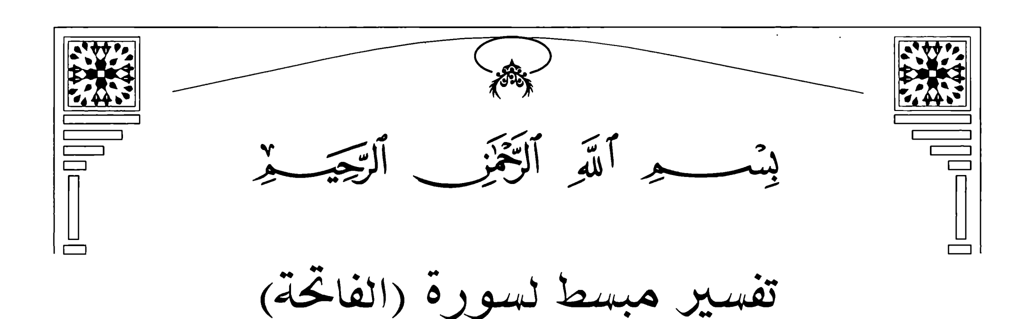
فإذًا: من المقدمات المهمة أن يسعى طالب العلم في معرفة التفسير على ما قاله أئمة التفسير، أن يعرف ما أجمع فيه من التفاسير، والخلاف كيف ينظر إلى الخلاف؟ على ما ذكرنا من التفصيل المقتضب، ثم بعد ذلك يمكنه أن يتهيأ له بعد دراسته، وطلبه لعلم التفسير أن يتكلم في التفسير بعد معرفة كلام أهل العلم.

من المقدمات المتصلة بذلك أن التفسير ليس مجال إصلاح للنفوس بالجهل، هو مجال لإصلاح النفوس بالعلم؛ لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فإذا فسر القرآن عالم، فإنه يهدي به النفوس والقلوب؛ لأن القرآن كتاب هداية، لكن يأتي كل أحد، خاصة من الشباب مثلًا، أو في الجلسات، أو يقرأ القرآن، وهذا يفسر، يقول: والله هذا الذي ظهر لي من الآية، أو يجتهد في أمور عاطفية، أو دعوية، ويستخرجها من القرآن، هذا باب ضلال، ومن تجرأ على ذلك، فقد تجرأ على أمر عظيم، يخشى عليه معه أن يكون مرتكبًا لإثم عظيم، فليس القرآن مجال رأي وتجارب ونظر، يقول: يظهر لي من الآية كذا، والآخر يقول، يظهر لي كذا، وهذا يطبق معلومة نحوية عنده ضعيفة، درسها في الكلية، ويطبقها في التفسير، وخذ من الكلام الذي يدل على عدم الهيبة من كلام الله ﷻ، هذا كلام من؟ كلام الله سبحانه وتعالى، إذا كان الناس - ولله ﷻ النعت الأعلى -، إذا كان الناس لا يرضى بعضهم أن يفسر الآخر كلامه على غير وجه الصواب، فكيف يتجرأ أحدنا على تفسير كلام الله ﷻ بخواطر - كما يسمونها - خواطر دعوية، أو خواطر إصلاحية، أو نحو ذلك مما ليس له مرجع وتأصيل جيد في معرفة التفسير.

فإذًا: التفسير علم صعب، وليس بالسهل، ولهذا قال قائل من أهل العلم: العلوم ثلاثة، منها ما لم ينضج، ولم يحترق، وهو التفسير، قال: العلوم ثلاثة، علم نضج واحترق، وعلم نضج ولم يحترق، وعلم لم ينضج ولم يحترق، وهو التفسير، ليس معنى ذلك أننا نجتهد، وكل واحد يتكلم بما يظهر له، لا، لكن كلام أهل العلم، فإذا أتى العالم والعارف بالتفسير، فإنه

يتكلم كلامًا حسنًا على تفسير الآية؛ لهذا نقول: إصلاح الناس إنما هو بالقرآن، إصلاح الناس إنما هو بالتفسير، إصلاح الناس ببيان معاني الكتاب والسنة، فإذا نظر الناظر - طالب العلم - في المعاني، ونظر في التفسير، وكان عنده دربة في ذلك، وراجع التفسير، فإنه يمكن طالب العلم أن يدعو الناس بعلم، وبتفسير الآي تفسيرًا صحيحًا، وهذا يكون أدعى إلى قبول كلامه، وإلى النور على كلامه، كما ذكرت لك هذه كلمات موجزة تناسب هذا المقام المختصر، وإلا فإن أصول التفسير ومعرفة علوم التفسير هذا أمر عظيم وطويل، ويحتاج إلى محاضرات ومحاضرات كثيرة، ودروس متنوعة، فأسأل الله ﷻ أن يجعل هذا القليل فاتح خير لسامعه، وللمتكلم به، وأن يجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين، وأن يوفقنا، وأن يجعل القرآن حجة لنا لا حجة علينا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن يذكرنا منه ما نسينا؛ أنه - سبحانه - جواد كريم، وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد.

❊ ❊ ❊



تفسير مبسط لسورة (الفاتحة)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة أنس بها القلب فحالفها، وصد عن من كرهها وخالفها، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي لم يدع فسادًا إلا أصلحه، ولا مغلقًا من الأمور إلا فتحه، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وعلي صحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا. اللهم إنا نعوذ بك من فتنة المقال، كما نعوذ بك من فتنة الفعال، ونعوذ بك اللهم من العي والحصر، كما نعوذ بك اللهم من السلاطة والهذر، فإن في كل منهما أدواء، يعزّ لها الطبيب، وتستعصي على الرفيق، أعني: المداوي. ليتنا حين نقدم لبعض المحاضرات كهذه، نترك تقديمنا من الثناء في وجه المحاضر أو المتكلم، فإن السلف الصالح ﷺ لم يكن هذا من هديهم، إن المحبة في القلوب، وإنها وإن كانت المحبة التي في القلوب تأبى إلا وأن تظهر، لكن الأفضل أن لا تظهر في وجه من هو لها؛ لذا قال السلف: اتقوا المدح، فإنه الذبح. اللهم إنا نعوذ بك أن يؤثر فينا المقال، وإن كان حقًّا، كما نعوذ بك من أن تلين أنفسنا إلي المدح، وإن كان صدقًا. حديثنا الليلة - أيها الإخوان الأكارم - عن آيات من كتاب الله، نحاول أن نلتمس فيها ومنها بعض

المعاني التي تنير القلوب، وتحيي النفوس، وتلقح الأفهام، وتنير الأفكار. كتاب الله أيها الإخوان هو الكتاب الذي أنزله الله علينا؛ لنتدبره، أنزله علينا؛ لنتفهم آياته، أنزله الله علينا؛ ليكون لنا عبرة بما فيه، أنزله الله علينا؛ لنأخذ منه كل علومنا؛ صغيرها وكبيرها، يقول الله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال ﷻ في آية سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال ﷻ في آية النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]؛ إذًا: فحق علينا أن لا نقرأ القرآن قراءة الأماني، قراءة الذين لا يعرفون ما تحت كلماته من المعاني العظيمة، المعاني التي لو كانت ألقيت على الجبال، لخرت الجبال هدًا، ولتصدعت الصخور منها، القراء، قراء القرآن، قد يكونون كثرة، ولكن من منا يتدبر، من منا يؤثر فيه هذا القرآن، كما أثر في ذلك الجيل الكريم، جيل الصحابة ﷺ، فأثمر فيهم قلوبًا جاهدت في سبيل الله، نشرت دين الله، لم تأخذها في ذلك محبة الأرض، ولا محبة النساء، ولا محبة الأهل، ولا محبة المساكن، ولا غير ذلك من المحاب، تركوا ذلك وتجردوا؛ لنشر هذا الدين؛ لنشر ما جاء به القرآن، وإن أول سور القرآن هي سوره الفاتحة، أم القرآن، والسبع المثاني التي أوتيها رسول الله ﷺ في مكة أول ما نزلت، وشرعت قرائتها في الصلاة، لا تصح الصلاة إلا بأن تقرأ الفاتحة فى كل ركعة من ركعاتها، ثبت في صحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ، فَهِيَ خِدَاجٌ. ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ**»[1]، فقراءة الفاتحة ركن

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من أركان الصلاة، الفاتحة التي نكررها في كل يوم وليلة اكثر من سبع عشرة مرة، هل تدبرنا ما فيها من المعاني، أم قرأناها قراءة من يبدؤها يريد إنهائها؟ إنه لمن العجب أن نقرأ سورة سبع عشرة مرة، ثم لو سألنا سائل: ما معنى المعاني المندرجة في هذه السورة؟

وما التي تفيده هذه السورة؟

ما الذي يفيده قوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾؟

ما الذي يفيده قوله ﷻ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾؟

ما الذي يفيده قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؟ إلى غير ذلك من آيات السورة.

إذًا، أيها الإخوان، كان علينا لزامًا أن نتدبر هذه السورة العظيمة الجليلة التي افتتح الله بها كتابه. ونرجو أن ينفعنا الله ﷻ في هذه الليلة ببعض ما ورثه لنا علماؤنا الأوائل وسلفنا من المعاني التي اشتملت عليها هذه السورة العظيمة. إذا أراد القارئ أن يقرأ القرآن، شرع له أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ كما قال ﷻ في سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وهذه الكلمة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) معناها: ألتجأ، وأعتصم، وألتصق بجناب الله ﷻ[(١)]، وبالله ﷻ من شر الشيطان الرجيم، يعني: المرجوم المطرود من رحمة الله.

---

(١) انظر: مادة (عوذ) في العين (٢/ ٢٣٩)، وجمهرة اللغة (٢/ ٦٩٨)، وتهذيب اللغة (٣/ ٩٣)، ومقاييس اللغة (٤/ ١٨٤).

ألتجأ بالله، وأعتصم من شر الشيطان أن يضرني في أمر من أمور ديني، أو أن يضرني في أمر من أمور دنياي، فإن الشيطان نصب نفسه لعدواتكم، فانصبوا أنفسكم لعدواته، الشيطان طلب من ربكم ﷻ حين عصى ربه في السجود لآدم: أن يؤخره إلي يوم يبعثون، فأجابه ربكم؛ حكمة وإبتلاءً، الشيطان لم تهدأ عدواته لبني آدم، لم تهدأ ولن تهدأ، حتى يدخل من يدخل منهم النار، ولن ينجو من الناس إلا صنف واحد: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣].

إذًا: لن ينجو من حبائل الشيطان إلا أهل الإخلاص، وأهل الإخلاص هم الذين استعاذوا بالله وحده من شر الشيطان، استعاذوا بالله وحده من الشرور التي قد يحدثها الشيطان، وقد يحدثها أولياء الشيطان، فإن الاستعاذة بمعناها الذي قدمناه نوع من العبادة، لا تصح إلا لله ﷻ، نوع من العبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله، بمعني أنه لايجوز لمسلم، يحرم على المسلم أن يستعيذ بغير الله ﷻ من أي شر وقع أو متوقع، وهذا المحرم رتبته الشرك، فإن المحرمات درجات؛ أعلاها الشرك بالله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١] يقول ﷻ في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] أي: إثمًا؛ لأنهم فعلوا الشرك، وذلك أيها الإخوان أن الاستعاذة وهي طلب اللجوء والاعتصام بالله ﷻ، هي عمل القلب، لابد وأن يكون المستعيذ في قلبه من تعظيم المستعاذ به ومن تقديره ومن محبته والخضوع له، لابد وأن يكون في قلبه من هذا شيء كثير، وكل هذه لاتصلح إلا لله ﷻ. فالاستعاذة

إذًا حق لله ﷻ، لا يجوز بأي حال أن تصرف لغير الله ﷻ، لا يستعاذ بإنس أيًّا كانت درجته، ولا يستعاذ بملك، ولا يستعاذ بجني، قد يقول بعض الإخوان: وهل يوجد هذا اليوم؟ نقول قد يوجد، ولكن التحذير منه هو سنة الأنبياء، التحذير منه هو الذي ورثه لنا الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -، بل كان الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - يخافون أكثر ما يخافون من الوقوع في الشرك، وهم الأنبياء الذين عصمهم الله ﷻ من الوقوع في حبائل الشياطين بالشرك، قال إبراهيم الخليل عليه السلام - داعيًا ربه له ولبنيه -: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، إبراهيم الخليل عليه السلام خليل الله يسأل ربه أن يجنبه هو وبنيه أن يعبدوا الأصنام، هل كان خائفًا؟ نعم، كان خائفًا وجلًا، وهذه هي مرتبة المخلصين؛ أما مرتبة المغرورين فإنهم إذا ذكروا بالتوحيد، وذكروا بترك الشرك قالوا: وهل نحن واقعون فيه حتى تنهانا؟ وهل نحن فيه خائضون حتى تنهانا؟ هذه هي مرتبتهم، فانظر البون الشاسع والفرق بين حال الأنبياء الذين يسألون ربهم أن يجنبهم وبنيهم من عبادة الأصنام، وبين حال القوم الذين يستكبرون، ويَكْبُر عليهم أن يتكلم في توحيد الله؛ وذلك لأنهم لم يجدوا اللذة التي وجدها أولئك الذين وحدوا الله حق توحيده، فإن التوحيد أيها الإخوان له لذة تخالط القلوب، يعرفها من يعرفها، قال إبراهيم التيمي رحمه الله - أحد السلف الصالح - عند هذه الآية: «**مَنْ يَأْمَنُ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ**»(١): ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٦٨٧).

إذًا: أيها الإخوان، كلامنا مهما كرر، ومهما كان معروفًا في هذه المسائل؛ فإنما هو لتثبيتها؛ إذ هي القضية الأولى والقضية العظمى والمسألة المهمة، بل هي المسألة الرأس التي بعث الأنبياء بها، توحيد الله بالعبادة أن لا يعبد إلا الله، تأمل سورة الأعراف وسورة هود وغيرها من السور، تجد ذلك جليًا، ففي سورة الأعراف حكى الله ﷻ عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ هذه أول كلمة قالها نوح عليه السلام لقومه، ثم بعد ذلك هود عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، ثم بعد ذلك صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] الآيات، ثم بعد ذلك شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [هود: ٨٤]؛ إذًا، هذه المسألة، مسألة التوحيد، مسألة فهم معنى ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾، جديرة، بل واجب أن نعتني بها أيما اعتناء، تعتني بها فوق اعتنائنا بأي شيء؛ إذ هي الغرض، وهي الغاية لوجودك، وهو تحقيقها، سوف يأتي - إن شاء الله ﷻ - معنى هذه الكلمة العظيمة عند قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والشياطين نوعان: شياطين الإنس، وشياطين الجن. شياطين الجن قد لا يرون؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾ [الأعراف: ٢٧]، شياطين الجن مكرهم قد يخفى على كثير من الناس، أعني: المسلمين.

والصنف الآخر من الشياطين الذين يدخلون في عموم الآية، في عموم الاستعاذة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، يدخلون في حكم الشيطان

بالتبع ؛ لأن الشيطان هنا مادام أنه عُرِّف ووصف بالرجيم، معناه أنه إبليس، لكن يدخل فيه أولياؤه بحكم التبع.

فإذًا: وأنت تستعيذ الله من شر الشيطان الرجيم، استحضر في قلبك استعاذتك من شر أوليائه من الإنس ومن الجن، قال ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] ما أوصافهم؟ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، هذه صفاتهم، وتأمل هذه الصفات وتدبرها، وانظر الواقع، تعلم وتعرف من هي الشياطين التي تصدك عن دينك، أعوذ بالله من الشياطين الرجيم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، البسملة آية من كتاب الله، وقولك: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ معناه: أبتدئ - إن كنت تقرأ، تتلو القرآن - تلاوتي متبركًا بسم الله، متبركًا بكل اسم لله ﷻ[1]؛ لأن قولك: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾. ﴿بِسْمِ﴾ هذه نكرة، فدخلت فيها جميع أسماء الله ﷻ، أبتدئ تلاوتي متبركًا بكل اسم لله ﷻ، أبتدئ تلاوتي مستعينًا بالله ﷻ، متبرئًا من الحول والقوة، فإنه لا يستقيم إيمان عبد، حتى يتبرأ من الحول والقوة. بعض الناس يفخرون بما عندهم، وهذا دليل القصور؛ إما قصور العقل، أو ضعف الإيمان، يعتقدون أنهم هُدوا بحولهم وقوتهم، يعتقدون أن ما عندهم من زخرف وأموال بحولهم وقوتهم، يعتقدون أن ما لهم من الصحة والعافية ونحو ذلك بحولهم وقوتهم، والمؤمن يتبرأ من

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١١٢)، وزاد المسير (١/ ١٤)، وابن كثير (١/ ١٢١).

الحول والقوة، فإنه لا يستقيم الإيمان، إيمان العبد، حتى يتبرأ من الحول والقوة.

حذف المتعلق الذي تعلق به الجار والمجرور، أعني: بسم الله، حذفه -أيضًا - دل علي العموم، والحذف شائع معروف في كلام العرب، إذا حذف الفعل الذي تعلق به الجار والمجرور قدر بالمناسب، وهنا حذف ليدل على عموم الأفعال وعلى عموم المتعلقات، فإنك تطلب البركة، وتطلب العون بقولك: بسم الله، وتطلب أشياء كثيرة.

نزل أضياف من الجن علي أحد العرب، وهو كان في البرية، فخاف منهم، قال:

وَنَارٍ قَدْ خَضَأَتُ بُعيدَ وَهنٍ	بِدَارٍ مَا أُرِيدُ بِهَا مُقَامَا
سِوَى تَرْحِيلِ راحلةٍ وعَينٍ	أُكالِئُها مَخافَةَ أَنْ تَنامَا
أَتَوْا نَارِي فَقُلْتُ مَنُونَ أَنْتُمْ	فَقَالُوا الْجِنّ قُلْتُ عِمُوا ظَلَامًا
وَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ	فَرِيقٌ يَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا
لَقَدْ فُضِّلْتُمُ بِالأَكْلِ فِينَا	وَلَكِنْ ذَلِكَ يُعْقِبُكُمْ سِقَامَا[١]

الشاهد من هذا: أنه قال: إلى الطعام، يعني: هيا إلى الطعام، قوموا إلى الطعام، فالمحذوف في قولك (بسم الله) تقدره أنت بما يناسب حالك؛

(١) انظر: البحر المحيط (٧/ ٢٥١)، والتحرير والتنوير (٧/ ٤١٤)، وإعراب القرآن للأصبهاني (١/ ٣٥).

فإذًا: من يقول: بسم الله. متدبرًا لحاله ومتدبرًا للبركة الحاصلة من هذه الكلمة، لا بد أن يكون قلبه حاضرًا بالكلام، لايقول، بسم الله، وقلبه بين الأودية، أودية الدنيا، يسيح، لا. البركة التي قلنا إنها متعلقة هنا، وأنك تقول: أبدأ تلاوتي - مثلًا -، أو شربي، أو طعامي، أو لباسي، أو قراءتي، أو نحو ذلك، متبركًا بكل اسم لله ﷻ. ما معنى البركة هنا؟

البركة: هي طلب النماء والزيادة[1]، يعني: أنك حين سألت الله ﷻ وطلبت منه البركة، طلبت منه ﷻ وحده أن يعطيك نماء أو زيادة في أجر عملك هذا الذي عملته، وربنا ﷻ من لطفه بنا ورحمته، أمرنا بأن نفتتح ونقول: بسم الله. ثم مع ذلك في هذه الدعوة خير لنا، فانظر هذه الرحمة العظيمة بعباد الله، يأمرنا سبحانه وتعالى أن نسمي، وفي هذه التسمية مصلحة لنا، أي مصلحة؟ وهي طلب النماء والزيادة في عملنا، طلب الزيادة من الخير ومن الثواب في صلاتك في تلاوتك، طلب المنفعة في شرابك، طلب المنفعة، ودفع المضرة في طعامك ونحو ذلك، والبركة لله ﷻ، البركة من الله يعطيها عباده، ليست البركة للعباد يعطونها من شاءوا، لا. البركة لله ﷻ يعطيها من شاء من عباده؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١] (تبارك) هذه الصيغة (تفاعل) تفيد أعلى وأعظم أنواع البركة وأعمها متعلقًا وأثرًا، فالبركة لله سبحانه وتعالى يعطيها من شاء من خلقه، فأعطاها الأنبياء، قال ﷻ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ

---

(١) انظر: مادة (برك) في: العين (٥/ ٣٦٨)، وتهذيب اللغة (١٠/ ١٣١)، ومقاييس اللغة (١/ ٢٣٠).

﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] في سوره هود، وقال ﷻ في سوره الصافات: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٣] (وباركنا عليه) من المبارِك؟ هو الله، أليس كذلك؟ ومن المبارَك؟ عليه وعلى إسحاق، يعني: على إبراهيم وإسحاق، أو على إسماعيل وإسحاق، وقال ﷻ في سوره فصلت: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، المقصود من هذا أن البركة لله ﷻ يعطيها من شاء من خلقه، وقد دلت الآيات، ودلت السنة النبوية على أن البركة نوعان؛ بركة في الذوات، وبركة في الأعمال؛ أما بركة الذوات فهي للأنبياء والرسل، لا يشركهم فيها غيرهم، ولا يدخل فيها غيرهم، فلا تطلب البركة، بركة الذات، يعني: أن يتمسح ببعض الناس، أوتقبل أيديهم دائمًا، أو يغتسل بوضوئهم ونحو ذلك، هذا ليس إلا للأنبياء؛ لأن الله ﷻ أخبر في كتابه أنه أعطى البركة للأنبياء، ولم يخبر ﷻ، ولم تدل سنة النبي ﷺ، على أن البركة أعطيت - أعني: بركة الذوات - لغير الأنبياء، صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا يطلبون البركة بهذا المعني، أعني: بشرب بقيه الماء، مثلًا: سؤر، أو الوضوء، يعني: بالتوضؤ من الوضوء، وهو الماء أو التمسح أو تقبيل اليد، فإن هذا كله منكر، وهذا ممنوع في الشريعة ومحرم؛ لأمور كثيرة، النبي ﷺ ثبت أن الصحابة كانوا يتبركون بذاته، يتبركون بذاته أو بأجزاء ذاته؛ يقبلون يده، يقبلون بطنه، يعني: طلبًا للفضل والبركة، يشربون بقية الماء، يتبركون بشعره ونحو ذلك، وهذا حق لا شك فيه؛ لأنهم الأنبياء، الذين أخبر الله بإعطائهم البركة؛ أما غيرهم فليس لهم بركة، بركة ذوات، فغير الأنبياء لا يتمسح بهم مطلقًا، ولا يعظمون مطلقًا، ولا يتبرك بهم مطلقًا؛ لأنه

ليس لهم بركة ذات؛ ولذا فإن الصحابة لم يكونوا يعملون مع أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ، كما كانوا يفعلون معه، لم يكونوا يفعلون مع أبي بكر الصديق ما كانوا يفعلونه مع رسول الله ﷺ، والشاطبي أحد العلماء الأجلاء الأندلسيين، وهو من أهل القرن الثامن، توفي قريبًا من سنة خمس وتسعين وسبعمائة، يقول - حين تعرض لهذه المسائل -: (إِلَّا أَنَّهُ عَارَضَنَا فِي ذَلِكَ أَصْلٌ مَقْطُوعٌ بِهِ فِي مَتْنِهِ، مُشْكِلٌ فِي تَنْزِيلِهِ، وَهُوَ أَنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم - بَعْدَ مَوْتِهِ عليه السلام - لَمْ يَقَعْ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ خَلَّفَهُ، إِذْ لَمْ يَتْرُكِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَهُ فِي الْأُمَّةِ أَفْضَلَ مِنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ (رضي الله عنه)، فَهُوَ كَانَ خَلِيفَتَهُ، وَلَمْ يُفْعَلْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا عُمَرَ (رضي الله عنهما)، وَهُوَ كَانَ فِي الْأُمَّةِ بَعْدَهُ، ثُمَّ كَذَلِكَ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، ثُمَّ سَائِرُ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ لَا أَحَدَ أَفْضَلَ مِنْهُمْ فِي الْأُمَّةِ، ثُمَّ لَمْ يَثْبُتْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ مَنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ مَعْرُوفٍ أَنَّ مُتَبَرِّكًا تَبَرَّكَ بِهِ عَلَى أَحَدِ تِلْكَ الْوُجُوهِ أَوْ نَحْوِهَا، بَلِ اقْتَصَرُوا فِيهِمْ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالسِّيَرِ الَّتِي اتَّبَعُوا فِيهَا النَّبِيَّ ﷺ، فَهُوَ إِذًا إِجْمَاعٌ مِنْهُمْ عَلَى تَرْكِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا)[1]. يقول: فهؤلاء خيرة الخلق بعد رسول الله ﷺ؛ أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لم يكن يُفعل بهم شيء، مما كان يفعل برسول الله ﷺ.

إذًا، فالمسألة مسألة إجماع، أنه لا يتبرك بغير رسول الله ﷺ بركة ذات، ولكن أحدث قوم بعد رسول الله ﷺ ما أحدثوه في هذه المسائل وأشباهها، والعبرة كل العبرة بما كان عليه الأمر في عهد رسول الله ﷺ وعهد صحابة

---

(١) انظر: الاعتصام (١/ ٤٨٢).

رسول الله ﷺ، الذين قال فيهم ابن مسعود رضي الله عنه: «**مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَنَقْلِ دِينِهِ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ فَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ**»[1]. هكذا قال من هو بهم خبير رضي الله عنهم أجمعين.

والنوع الثاني من أنواع البركة: هو بركة العمل؛ ذلك أن الله ﷻ أخبرنا في كتابه أن ذكره مبارك، قال ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] فأخبر أن كتابه كتاب مبارك، والسنة، سنة رسول الله، ﷺ تفصل الأجمال الذي في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل ٤٤]، الذكر: هو السنة؛ فإذًا: السنة مباركة، والقرآن مبارك فكانت العلوم الناشئة منهما ومن التدبر فيهما ومن التحقيق في معانيهما علومًا مباركة؛ إذًا، فالبركة الحاصلة لأهل العلم، إنما هي بركة عمل؛ لأنهم تفقهوا في دين الله، وتفقهوا في آيات الله، وتفقهوا في سنة رسول الله ﷺ، فكانت البركة التي عندهم هي بركة عمل تطلب منهم هذه البركة قولًا، لا ذاتًا، تسألهم عن حكم الله في المسألة، فيجيبوك؛ إذًا، فهم مباركون بركة عمل، وليست ذواتهم مباركة أبدًا، وكيف يكون ذلك، وخيرة الخلق، صحابة رسول الله ﷺ، لم يكونوا كذلك؟! هذه بعض المسائل المتعلقة بالمحذوف المقدر في قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم.

يقول ﷻ في أول أية من الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

---

(١) رواه رزين كما في المشكاة (١/ ٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٢ - ٥]، تأمل ذكر الله ﷻ في الآية الأولى أن الحمد لله رب العالمين، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا يورث في النفس المحبة لمن يحمده سبحانه وتعالى، وللذي ربى العالمين بنعمه، أليس كذلك؟ الآية الأولى تورث المحبة لله الذي هو رب العالمين سبحانه وتعالى، والآية الثانية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تورث في القلب الرجاء بأن يكون التالي، بأن تكون أنت وأنت تتلو هذه الآية في الصلاة أوفي غير الصلاة ممن شملتهم رحمة الله ﷻ في الدنيا والآخرة، فالآية الثانية تورث الرجاء في القلب المتدبر المتأمل المتفحص لمعاني كلام الله، بأن تكون ممن شملتهم الرحمة في الدنيا والآخرة، والآية الثالثة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وفي القراءة السبعية الآخرى المتواترة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [مَلِكِ][1] ومالك يوم الدين ﷻ، يوم الدين: يوم الجزاء، يوم الحساب، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨]، يوم يظهر ما استتر به المستترون من المعاصي، يظهر عند ذاك عيانًا، يوم تنطق الألسن، يوم تنطق الجلود، وتنطق الأرجل، وتنطق الأيدي بما كان يفعله أصحابها، ذلك اليوم الذي قال الله فيه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يورث في القلب ماذا؟ يورث في القلب الخوف من الله ﷻ.

ثم قال - بعد ذلك -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، تأمل كيف بدأ بالآية التي تورث في القلب المحبة، ثم ثنى بالآية التي تورث في القلب الرجاء، ثم ثلث بالآية

(١) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿مَٰلِكِ﴾ وقرأ الآخرون (مَلِك). انظر: تفسير البغوي (١/ ٥٣)، واتحاف فضلاء البشر للدمياطي (ص ١٢٢).

التي تورث في القلب الخوف، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ ليقر في قلبك أيها العبد، أنه واجب عليك أن تعبد الله محبة لله ورجاء في الله وخوفًا من الله، تعبده بهذه الثلاثة مجتمعة؛ بالحب، والرجاء، والخوف، لا تغلب جانبًا على جانب، فإن من الناس من تلاعبت بهم الشياطين، فعبدوا الله بالحب وحده، حتى تركوا الطاعة، ومن الناس من غلبوا على قلوبهم الرجاء، فخاضوا في معاصي الله وفي الأثام، ثم بعد ذلك يقولون: ربنا أرحم الراحمين. حق، ولكن أكملوا... وتدبروا، ومن الناس من يعبد الله بالخوف وحده، فترى قلوبهم في الخوف ليلًا ونهارًا، وهذا الخوف جعلهم معتزلين، منعهم من الدعوة إلى دين الله، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصبحوا أهل أوراد وأهل طرق ونحو ذلك، وحاشا أن يكون ذلك من سنة النبي ﷺ، حاشا وكلا، نبي الله ﷺ عبد ربه؛ محبة لله، ورجاء في الله، وخوفًا من الله، كما قال له ربه: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠] ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١ - ٣]، تأمل إذًا هذه الآيات، وكيف رتبت هكذا؟! كتاب الله كتاب حكيم، حكيم بمعني: محكم، حكيم بمعني: حاكم، حكيم بمعني: محكوم فيه، فهو حكيم بمعني: محكم؛ كما قال ﷻ في أول سورة هود ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾﴾ [هود: ١ - ٢]، فهو كتاب أحكمت آياته؛ فإذًا أن تكون الآية الأولى ثم الآية الثانية ثم الآية الثالثة تفيد هذه الفائدة، اعلم أن هذا من فضل الله عليك، أن عرفك أهل العلم هذه

المعاني، فلا تكن منك بعيدة، ولتكن منك علي ذكر دائمة، ثم تأمل -أيضًا-، تدبر أن الله ﷻ افتتح كتابه العزيز بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ثم ذكر بعد ذلك صفة أنه ﷻ مالك يوم الدين، فذكر ثلاث صفات تدور عليهما الأسماء الحسنى، ذكر ﷻ ثلاثة أسماء:

الأول: أنه الله.

الثاني: أنه الرب.

الثالث: أنه مالك يوم الدين ﷻ.

افتتح الله كتابه بهذه الثلاثة أسماء، واختتم كتابه ﷻ بهذه الثلاثة الأسماء عينها، فقال ﷻ في أخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣] الربوبية والملك والألوهية - في آخر سورة، وفي أول سورة من القرآن - هذه الثلاثة أسماء تدور عليها وتتفرع منها معاني كثيرة من الصفات والأسماء الحسنى؛ فإذًا لتكن منا على بال، ولعله يأتي بعد ما فيها من المعاني، كونه ﷻ هو الله، أي: المألوه المعبود، كما سيأتي. وأنه الرب: الذي ربى عباده بنعمه ﷻ خالقهم وسيدهم، المتصرف في شؤونهم. وأنه مالك يوم الدين: كل ملك فهو له، وأنت إن ملكت شيئًا في الدنيا، فإنك لاتملكه حقيقة؛ إنما تملكه بالإضافة إلى بني جنسك، وإلا فالملك حقيقة لمن؟ لله ﷻ. ستذهب وتتركه، فيملكه غيرك؛ فإذًا: ليس ملكًا حقيقيًّا؛ إنما هو ملك إضافي.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ يقول أهل العلم: إن الألف واللام تفيد الاستغراق في أول الحمد، معناه: أن قولك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

قد شمل كل حمد يستحقه الله ﷻ، كل أنواع المحامد ثابتة لله ﷻ [(١)]، تقر وأنت تصلي وأنت تتلو هذه الآية بأن جميع أنواع المحامد لله ﷻ، المحامد لله ﷻ وحده، وهو المستحق للحمد وحده ﷻ، فالله ﷻ يحمد سبحانه وتعالى لأسمائه، ويحمد سبحانه وتعالى لصفاته، ويحمد سبحانه وتعالى لأفعاله، الأفعال التي تدور بين الإنعام والإحسان، وبين العدل والحكمة، ويحمد سبحانه وتعالى على خلقه وأمره، ويحمد سبحانه وتعالى على قدره وشرعه، كل هذه من أنواع المحامد التي يحمد الله ﷻ عليها، يقول ﷻ في أول سوره الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، فأخبر سبحانه وتعالى أن الحمد لله؛ لأنه الذي خلق السماوات والأرض، فهذا حمد لصفاته ﷻ، ولكن قد يقول قائل: ما معنى الحمد؟

الحمد معناه: الثناء على الله باللسان مع المحبة والتعظيم[(٢)]، فإن الحمد لا يسمى حمدًا، حتى يكون ثناء فيه المحبة والتعظيم، وإلا فإن الثناء

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَهُوَ الحَمِيدُ فَكُلُّ حَمدٍ وَاقِعٌ ... أَوْ كَانَ مَفرُوضًا مَدَى الأزمَانِ

مَلأَ الوُجُودَ جَمِيعَهُ وَنَظِيرَهُ ... مِنْ غَيرِ مَا عَدٍّ وَلاَ حُسبَانِ

هُوَ أهلُهُ سُبحَانَهُ وَبِحَمدِهِ ... كُلُّ المَحَامِدِ وَصفُ ذِي الإِحسَانِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢١٥).

(٢) انظر: مادة (حمد) في: العين (٣/ ١٨٨)، وتهذيب اللغة (٤/ ٢٥١)، ومقاييس اللغة (٢/ ١٠٠)، وانظر الكلام على الحمد في: تفسير ابن جرير (١/ ١٣٥)، وزاد المسير (١/ ١٧)، والمفردات للراغب (ص٢٥٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٠١)، وبدائع الفوائد (٢/ ٩٢ - ٩٦).

أخص من الحمد؛ ولذا عطف عليه في حديث صحيح مسلم، الحديث المعروف، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «. . . **فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[(١)]. هذا من عطف الخاص على العام، وفي الحمد يشمل الثناء وزيادة ثناء على الله مع الحب لله ﷻ والتعظيم له ﷻ، لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال التي هي محض إحسان أو محض عدل وحكمة وعلى شرعه ﷻ، كل هذه من أنواع المحامد، التي يحمد الله ﷻ عليها، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وإلا أيها الإخوان، فإن المحامد التي يستحقها الله ﷻ لا تحيط بها الأقلام، مهما أوتيت؛ لأن الحمد لأسمائه الحسنى ولصفاته العلى، وخذ مثلًا: أنك تحمد الله على صفة الكلام له ﷻ، أي: تثني عليه بها ثناء مع المحبة والتعظيم له ﷻ، هل تنفذ كلمات الله؟ لا تنفذ؛ فإذًا الحمد لا ينفذ؛ ولذا أخبر ﷻ بأنه يسبح له ما في السماوات وما في الأرض، وأنه سبح له ما في السماوات وما في الأرض، فقال ﷻ في أول سورة

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن: ١] قال أهل العلم قوله ﷻ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ﴾ هذه جمله استئنافية واقعة موقع التعليل للتسبيح، أي: أنه سبحانه وتعالى يسبح له ما في السماوات وما في الأرض؛ لعلة أنه ﷻ مستحق لأن يحمد أكمل حمد حمدًا دائمًا لا ينقطع، وإن انقطعت أجيال البشر، بل هو يسبح لله ﷻ ما في السماوات وما في الأرض؛ ولذا ورد التسبيح بهذه الصيغة، ورد مرة بالماضي ومرة بالمضارع قال ﷻ في سورة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: ١]، وقال في سور: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الحديد: ١] ليعلمك أن التسبيح لله مستحق؛ لأنه سبحانه وتعالى حقيق بأن يحمد ﷻ وأن هذا التسبيح كان ولم يزل، كان في الماضي (سبح)؛ لأن صيغة الماضي (سبح) تفيد كون الفعل حادثًا في الزمن الماضي، (ويسبح) تفيد كون الفعل حادثًا وحاصلًا في الزمان الحاضر والزمان المستقبل؛ فإذًا، التسبيح لا ينقطع، كل المخلوقات تسبح بحمد الله، فهذا شيء مما يجب أن نستشعره حين قولنا: الحمد لله. الحمد لله ولفظ الجلالة (الله)، معناه: المعبود سبحانه وتعالى، وذلك أن (الله)، يعني: هذه اللفظة مشتقة في كلام العرب على الصحيح من قول أهل العلم، مشتقة من قولهم: أله يأله إلهة بمعنى: عبد يعبد عبادة، أله يأله إلهة معناها: عبد يعبد عبادة سواء بسواء، فالله معناه: الإله، لكن خففت الهمزة؛ لكثرة الاستعمال، كما قال أهل العلم؛ فإذًا: لفظ الجلالة مشتق من أله يأله إلهة بمعنى: عبد يعبد عبادة[1]، قرأ

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٦٧)، ومختار الصحاح (ص٩)، والمصباح المنير (ص١٩).

ابن عباس رضي الله عنهما آية سورة الأعراف في قول قوم فرعون له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ﴾ يعني: وعبادتك[١]، هكذا قرأها ابن عباس، يعني: ويذرك وعبادتك، ذلك أن فرعون ماذا قال لقومه؟ قال فرعون لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، أي: ما علمت لكم أحدًا يستحق أن تعبدوه إلا أنا؛ فلذلك قالوا له: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، أي: وعبادتك، فكون الإله بمعنى المعبود، وكون أله بمعنى عبد، هذا معنى لغة العرب التي أنزل الله بها القرآن، فنحن إذ أردنا نتبصر في كتاب الله وفي معاني كتاب الله، يجب أن نعلم ماذا قال العرب؟ وكيف استعملت العرب هذا الكلام؟ فقولنا: الإله. معقول أن يكون مسلم يقول: لا إله إلا الله، ولا يعلم ما معنى الإله؟ من الناس من يظن أن معنى لا إله إلا الله: لا رب إلا الله، وقد بلغ الجهل بالمسلمين مبلغًا، يئسى له ذوو القلوب الحية، كيف تكون حالهم إلى هذا الحال!

سألت مرة أحد الناس في غير بلادنا، وهو يدعي الثقافة، قلت له: ما معنى لا إله إلا الله؟ وهو يريد أن يظهر أنه مثقف، ويقرأ وعالم، قال: معنى (لا إله إلا الله) هذا واضح، قلت: أريد أن تخبرني بهذا الواضح. قال: يعني ربنا موجود. قلت: سبحان الله العظيم. قال: يعني ربنا موجود. قلت له: ما

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٨)، وسنن سعيد ابن منصور (٥/ ١٥١)، وتفسير البغوي (٢/ ١٨٩)، قال البغوي: «وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك (وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ) بكسر الألف، أي: عبادتك، فلا يعبدك؛ لأن فرعون كان يُعْبَدُ ولا يعْبُدُ» ا. هـ.

معنى (لا إله إلا الله)؟ قال: يعني ربنا موجود. قلت: سبحان الله العظيم؛ إذًا، ما الفائدة من أن ترسل الرسل؟ قريش والعرب أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وفي آية الزخرف ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال ﷻ في آيات كثيرة، كما في سورة المؤمنون: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧] فإذًا، أولئك الأقوام كانوا يقولون: ربنا موجود، أولا يقولون؟ يقولون: واضح من كلام الله؛ فإذًا: هل معنى (لا إله إلا الله) التي حاجُّوا بها رسول الله، وقالوا: قل ما شئت من الكلام، نطعك إلا هذه الكلمة، ولما دعاهم إليها قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، كانوا يفهمون؛ إذًا، ما معنى (لا إله إلا الله)؟ معنى (الإله) فعال بمعنى مفعول، يعني: معبود، الإله بمعنى المعبود، الله معناه: المعبود الذي يستحق سبحانه وتعالى أن يعبد مع الخوف منه والتعظيم له والمحبة له ﷻ والرجاء لعفوه وكرمه ورحمته، هذا هو معني (الإله)، ومعنى (لا إله إلا الله): لا معبود حق إلا الله ﷻ. ويدل لذلك دلالة ظاهرة أن الله أمر نبيه ﷺ أن يقول للناس: أن لا تعبدوا إلا الله. فقال ﷻ في الآية التي سمعتموها قبل قليل في أول سورة هود: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١ - ٢]. وعندنا (لا إله إلا الله) أليستا متساويتان؟ (لا تعبدوا إلا الله)، (لا إله إلا الله) متساويتان، أليس كذلك؟ إلا أن (إله) وضع بدلها (تعبدوا)؛ فإذًا (الإله) هو معني العبادة (الإله) بمعنى المعبود، و(الإله) بمعنى العبادة، هذا هو المعنى، نوح عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال عنه ﷻ في

سورة هود: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦] قال لقومه نوح عليه السلام: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦].

فإذًا، الرسل بعثوا بهذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله)، ومعناها: لا معبود إلا الله، فإننا أيها الإخوان، إنما خلقنا لأجل عبادة الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]، ما خلقنا إلا لأجل عبادة الله، ولكن الله سبحانه وتعالى رأفة بنا ورحمة شرع لنا، وأباح لنا أن نتمتع ببعض الطيبات في هذه الدنيا أو بالطيبات جميعًا في هذه الدنيا، دون إسراف ولا مخيلة منة وتكرمًا، وإلا فإننا خلقنا لعبادة الله وحده فقط، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١ - ١٣٢] قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، حين تقرأ ينبغي أن تستحضر بعض هذه المعاني، وقد تتزاحم في قلب البصير، ولكن كل أحد يأخذ منها بمقدار ما يسعه عقله ولبه. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، قلنا: إن هذه الكلمة، كلمة التوحيد، (لا إله إلا الله) أفادت، ماذا؟ توحيدًا لله عز وجل في كونه الإله، في كونه المعبود وحده، وهذا الشيء هو الذي سماه أهل العلم منذ قديم: توحيد الألوهية؛ ذلك لأن الله عز وجل أخبر سبحانه وتعالى أن القوم الذين بعث لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يوحدون الله بنوع من التوحيد، ويأبون أن يوحدوه في النوع الآخر، وهذا لم يقله أهل العلم من عند أنفسهم؛ وإنما قالوه حين تدبروا القرآن، ورأوا آيات الله. يقول عز وجل عن أولئك الأقوام

الذين بعث لهم رسول الله ﷺ في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]؛ إذًا، هم يستكبرون، عند ماذا؟ عند قول (لا إله إلا الله)، يعني: عند إثبات هذا النوع من التوحيد، وهو توحيد الألوهية، أخبر ﷻ عنهم أنهم يوحدون الله بنوع آخر، وهو ما، سماه أهل العلم، بتوحيد الربوبية، كما سبق في آيات، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وكما قال ﷻ في سورة يونس في آخرها: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، إذا كنتم تقرون بأن الله هو المحيي وحده، وهو المميت وحده، وهو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، كل هذه كان يعتقدها مشركو العرب - يعني: أكثر مشركي العرب -، وأنه الخالق وحده، وأنه الرازق وحده، وأنه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، كل هذه يقرون بها لله وحده، فماذا قال الله لهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٣]، كانوا مقرين بالتوحيد، توحيد الربوبية، وأبوا أن يقروا بتوحيد الألوهية، حجهم الله ﷻ بنوع آخر من الحجج بعد هذه الآية مباشرة، قال ﷻ في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٣٤]، الجواب أنهم سيقولون: لا. لأنهم هم يقرون بأن الله هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده؛ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]

أي: آلهتكم. ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۚ﴾ أي: في الأصل. لأنهم إما رسل أو رجال صالحون كانوا يهدون إلى الطريق، لم يكونوا يملكون الهداية؛ ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]؛ إذًا، لماذا قالوا ذلك؟ قال الله بعدها: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ [يونس: ٣٦].

ولذلك ينبغي أن نتنبه لمسألة مهمة، وهي أن أهل الباطل الذين قد يدافعون عن المعتقدات الخرافية الباطلة، قد يكون لديهم في اتباعهم ظن، وهو خلاف العلم، وقد يكونون هم يحسبون أن ما عندهم علم، لكن العبرة بما قاله الله، وقاله رسوله؛ ولذلك أخبر ﷻ في آخر سورة غافر، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣] هم عندهم علم في ظنهم، لكنه ليس علما مجديًا، ليس علم بالحق؛ إنما هو علم بالباطل؛ ولذلك فإن أهل الباطل لديهم كتب وحجج، ولكن حجتهم الرسل، وحجهم أهل الحق، ومن لم يتدبر في الحجج القرآنية في الرد على أهل الشرك وأهل الأهواء وأهل الضلال، سيختلط عليه الطريق، وسوف يظن كل من انتسب إلى العلم عالمًا، وهذا ليس صحيحًا، العالم إذا انتسب للعلم فزنه بالسنة، فإن اتبع السنة، يعني: الطريق التي كان عليها رسول الله ﷺ وصحابته في الفهم والعلم والعمل والفقه، فهو محق، فهو عالم من علماء الحق، وإلا كان من أهل الأهواء، ممن يحب أن يعظم ويبجل، ويلتف الناس حوله؛ وهذا يقبل، وهذا يتمسح، وهو ساكت راضٍ فاعلم أنه ليس من علماء الحق، هذا من علماء الضلال؛ لأن هذه الأمور من محرمات أفعال القلوب، وما يرضى بها أهل العلم حقيقة؛ لأن العلم الصحيح يقود إلى العمل، ومن تعلم علمًا صحيحًا، ورأى الناس يعظمونه، ثم هو

ساكت، معناه أن قلبه غير حي، قلبه ميت، بل هو يريد الرفعة والجاه والسمعة، وكل هذه من المفسدات، في الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه، ورواه الإمام أحمد وغيرهما «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، أَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[1]، فلينتبه المنتسبون للعلم، خاصة من هذا الداء، فإنهم قد يرفعون، لكن الشكوى إلى الله، قلوبنا ليست كقلوب أولئك من السلف، من إذا رأى الحلقة قد غصت وامتلأ المسجد بالناس، تركهم وذهب، خاف الشهرة علي نفسه، خاف على قلبه، كل هؤلاء أتوا يستمعون كلامي إذًا عندي شيء، إذًا أنا وأنا . . .، السلف كانوا يهربون من هذا هربًا، إنما كانوا يدعون إلى الله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكانوا أهرب ما يكونوا عن السمعة، وعن الجاه، وعن الرفعة، وعن حب التبجيل والتعظيم، هذه كلمة أتت عرضًا قادنا لها الكلام، نرجع إلى موضوعنا الأول، مما يدلك على فساد قول أولئك الذين ساووا بين توحيد الألوهية والربوبية، أو فسروا (لا إله إلا الله) بقولهم: معناه: ربنا موجود، أو لا رب إلا الله، أو نحو ذلك، أن الله ﷻ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] في أول سورة من كتاب الله، وفي أول آية من كتاب الله، ففرق ﷻ بين الإله بين الله وبين الرب، والذات لا توصف بنفسها، إنما توصف بشيء مغاير، أليس كذلك؟ هكذا قرر أهل العلم، وهكذا هي اللغة، لاتصف الشيء بنفسه، لا تقول: الكريم الكريم. هذا يسمي تأكيدًا، ما يسمى وصفًا، وقال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، والدارمي (٢٧٧٢)، والنسائي في الكبرى (١١٧٩٦)، وأحمد (٢٥/ ٦٣، ٨٥).

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَﵞ، غاير ﷻ بين الربوبية والألوهية؛ فإذًا: الألوهية شيء والربوبية شيء، فما الألوهية؟ وما الربوبية؟

الألوهية: هي أن تعبد الله وحده، يعني: توحد الله ﷻ بأفعالك أنت ﵟإِيَّاكَ نَعۡبُدُﵞ، لا تعبد إلا الله، توحيده بأفعالك، أمثال هذه الأفعال: (الدعاء) فلا يُدعى إلا الله ﷻ (الرجاء) لا يرجى إلا الله (الاستغاثة، الاستعانة، الذبح، النذر)، ونحو ذلك من أنواع العبادة، فكما أنك لا تصلي إلا لله، فكذلك لا يُدعى إلا الله؛ لأن الصلاة هي الدعاء[(١)]، قال ﷻ: ﵟوَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗﵞ [التوبة: ١٠٣]، ﵟوَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖﵞ أي: ادع لهم، ﵟإِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗﵞ أي: إن دعاءك سكن لهم، وقال ﷻ في سورة الأحزاب: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ﵞ [الأحزاب: ٥٦]. ما معنى الصلاة هنا؟ الدعاء. فكما أنه لا تصلي أيها العبد إلا لله، فكذلك لا تدعو إلا الله، ومن فرق بين الدعاء والصلاة، فقد فرق بين قدين ومتآخيين، لا سبيل إلى التفريق بينهما، يقول الأعشى، أعشى قيس، الشاعر المعروف في شعره[(٢)]:

تَقُولُ بِنتي وَقَد قَرَّبتُ مُرتَحَلًا   يَا رَبِّ جَنِّب أبي الأَوْصَابَ وَالوَجَعا

(١) انظر في معنى الصلاة: تهذيب اللغة (١٢/ ١٦٥)، والمحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٣٧٢)، ومختار الصحاح (١/ ١٥٤).

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث بن نظام الهمداني أبو المصبح الأعشى، كوفي من شعراء الدولة الأموية، كان زوج أخت الشعبي، والشعبي زوج أخته، وكان من القراء والفقهاء ثم ترك ذلك وقال الشعر.
انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٦/ ٤١)، والوافي بالوفيات (١٨/ ٩٨)، والأنساب (٥/ ٦٤٩)، والبداية والنهاية (٩/ ٥٠).

عَلَيكِ مِثلُ الَّذِي صَلَّيتِ فَاِغتَمِضي نَومًا فَإِنَّ لِجَنبِ المَرءِ مُضطَجَعا

ماذا قالت البنت؟

يا رَبِّ جَنِّب أبي الأَوْصابَ وَالوَجَعا

فقال لها الأب - الذي هو الشاعر الأعشى -:

عَلَيكِ مِثلُ الَّذِي صَلَّيتِ فَاِغتَمِضي نَومًا فَإِنَّ لِجَنبِ المَرءِ مُضطَجَعا

يعني: دعوت. فالذين يفرقون بين الدعاء والصلاة يقولون: صلِّ لله وحده، ثم ادع من شئت من الأنبياء أو الصالحين أو الأولياء أو نحو ذلك. هؤلاء جهلة في الحقيقة؛ لأنهم لا فهموا القرآن، ولا السنة، ولا اللغة، وإنما أتوا من شهواتهم الخفية التي الله أعلم بها، وإلا فإن الحق واضح، والحق أبلج، كما أن الباطل لجلج.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ لأجل ضيق الوقت سنأخذ مقتطفات من بعض معاني السورة، وإلا فإن هذه السورة الكلام عليها يحتاج أيامًا؛ لأن كل كلمة منها تحتها أصول جاءت في القرآن، وتكلم الله بها؛ ولذلك سميت أم القرآن[1]، لماذا؟ لأنها فيها الأصول التي جاءت في الكتاب كلها، ولكن مَنْ مِنَ الناس مَنْ تدبر وقرأها.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، الرحمن الرحيم: اسمان من أسماء الله، متضمنان لصفة من صفات الله ﷻ، وهي صفة

---

(١) ورد تسميتها بأم القرآن في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ، فَهِيَ خِدَاجٌ. ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَام».
وانظر: تفسير الطبري (١/ ١٠٨)، وابن كثير (١/ ١٠١)، والقرطبي (١/ ١١١).

الرحمة، وأهل السنة يثبتون هذه الصفة على حقيقتها لله ﷻ، مع التنزيه لله أن يكون اتصافه بهذه الصفة مشابهًا لاتصاف المخلوقين بها، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

لكن هنا نريد أن ننبه إلى مسألة، وهي: أن الإيمان بالأسماء والصفات؛ لأننا ذكرنا نوعين من التوحيد - توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية - في أول آية، ثم في الآية الثانية نذكر توحيد الأسماء والصفات، الإيمان بالأسماء والصفات - أيها الإخوان - الإيمان الحقيقي، الإيمان الصحيح الذي كان على نور وبينة وعلم، هذا يثمر في القلب، وترى آثاره على القلب وعلى العمل وعلى العلم، وذلك أن الأيمان، أعني: الإيمان بالأسماء والصفات ليس إيمانًا مجردًا بألفاظ لامعاني لها، بل إيمان بالألفاظ وما تحتها من المعاني، إيمان بالصفات وما فيها من المعاني، فالقلب الذي قرأ صاحبه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كم سيتعلق به من المشاعر حين يمر في ذهنه ويحضر في قلبه سعة رحمة الله ﷻ.

كم سيكون تعلقه بالله طمعًا في أن يكون من المرحومين؟

كم سيكون لهذا الإيمان بهذه الصفة، وأن الله رحيم بعباده أرحم من الوالدة بولدها؟

كم سيثمر هذا في قلبه من الأمور والمعاني الخيرة التي تقود إلى العمل الصحيح؟

فالإيمان بالأسماء والصفات يثمر في القلوب؛ ولذلك الذين يعنون بهذا النوع من العلم، ينبغي أن يتنبهوا حين يقرءوه ويدرسوه، ينبغي أن يقرنوه

دائمًا بأثر الإيمان بالصفات، لا ينبغي ولا يصح أن تدرس هذا الأمور خلوًا من الآثار الإيمانية المترتبة عليها، الرسول ﷺ حين قال: «**إِنَّ اللَّهَ لَيَضْحَكُ مِنْ أَزَلِكُمْ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِكُمْ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ: إِنَّ رَبَّنَا لَيَضْحَكُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: لا نَعْدِمُ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا**»[1]. معلوم أن ضحك الخالق ﷻ ليس كضحكنا، وحاشاه ﷻ، ننزه ﷻ عن الشبيه والمثيل والند، نثبت له ﷻ ما أثبت لنفسه وما أثبته له رسوله، مع التنزيه عن المشابه؛ إذًا، انظر كيف هذا الصحابي ﷺ انطبعت هذه الصفة في قلبه، وأثنى على الله بها «**لاَ نَعْدِمُ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا**»؟! سبحان الله! فكم منا من يقرأ ويسمع الأسماء والصفات، فلا تثمر في قلبه. يمر عليه قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠]، فلا يثمر في قلبه، ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]، فلايثمر في قلبه، يمر عليه اسم الله الرقيب فلايثمر في قلبه، يمر

---

(١) هذا حديث أبي رزين العقيلي، واسمه لقيط بن عامر ﷺ، صحابي مشهور بكنيته، أخرجه ابن ماجه (٨١)، والإمام أحمد في المسند (٤/ ١١، ١٢)، والطبراني في الكبير (٤٦٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٤٤)، والدارقطني في الصفات (ص٢٨)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٢٦)، والآجري في الشريعة (٦٨٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤١١)، والطيالسي في مسنده (١٠٩٢)، ومدار الحديث على وكيع بن حدس، ويقال: (عدس) لينه الحافظ في التقريب، وله شاهد عند عبد الله ابن أحمد في زوائد المسند (٤/ ١٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٤٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٤٦٠)، والطبراني في الكبير (٤٧٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٥)، وفيه مقال أيضًا، لكنه يتقوى به. لذا قال ابن القيم: (**صححه بعض الحفاظ**) ا.هـ.

انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣٩)، وحسنه شيخ الإسلام في الواسطية (٢/ ٢٦) مع شرح العلامة ابن عثيمين ﷺ.

عليه اسم الله العزيز الحكيم القدير فلا يثمر في قلبه الشعور بعظمة الله ﷻ، وإنك أيها الإنسان، ليس لك عز إلا بطاعة الله ﷻ، ليس لك فخر إلا بطاعة الله ﷻ، فأنت تفخر - إن كنت واعيًا لنفسك - بأن تكون من الطائعين؛ لأنك انتسبت لطاعة من؟ لطاعة الله ﷻ ومن هو الله؟ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، كل هذه وغيرها من الأسماء الحسنى والصفات العليا، كل هذه تثمر في القلوب ثمرات، يرى أثرها في الاعتقاد والعمل، يرى أثرها في الرقابة، والتمجيد، والعظمة، والتحميد، والتعظيم لله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، إياك نعبد هذه فيها توحيد العبادة، توحيد الألوهية، وكيف فهم منها أهل العلم ذلك؟ لأنه قدم المعمول - يعني: المفعول - على العامل - يعني: الفعل -، قدم (إياك) ما قال: نعبد إياك، قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: نعبدك وحدك، ولا نعبد معك غيرك، والعبادة ما هي؟ العبادة التي لا يجوز أن تصرف إلا لله ﷻ، هي كل عمل فيه مرضاة لله ﷻ مما هو مختص به ﷻ من أفعالك أيها العبد، كالتي قدمنا: دعاء، وطلب الشفاعة، والنذر، والذبح، وغير ذلك مما ذكر، العبادة بمعنى آخر تعرف: بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[١].

إذًا العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هذه العبادة ليست كما يفهمها بعض الناس اليوم، ليست هي الشعائر التعبدية أو الأركان الخمسة فقط، الشهادة والصلاة، لا. والزكاة والصوم والحج، لا. العبادة أوسع، كل ما فيه رضى

---

(١) انظر: (رسالة العبودية) ضمن مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

لله ﷻ اسم جامع لكل ما يحبه الله ﷻ من الأقوال والأعمال.

إذًا، فأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر عبادة، صلتك للرحم إذ أحسنت النية فيها عبادة، دراستك للعلم الشرعي عبادة، دراستك لعلم غيره إذا أحسنت النية فيها عبادة، كل هذه من أنواع العبادة.

معاشر المسلمين: البلاء الذي أصابنا هو تغيير المفاهيم التي جاءت في القرآن والسنة، جاءت بها الشريعة، فالدين - مثلًا - لم يعد يفهم كما كان يفهمه أولئك النفر الأوائل، العبادة لم تعد تفهم كما كان يفهمها أولئك، الألوهية، الربوبية، ونحو ذلك من الألفاظ. ولماذا صار ذلك؟ لأجل أننا أبعدنا عن اللغة، وهذا داء قديم تنبه له بعض أعداء الإسلام، فحاولوا قدر جهدهم واستطاعتهم أن يبعدونا عن اللغة، فطفحت أعمال متبعيهم بإحياء العامية والدفاع عنها، وإماتة اللغة العربية لغة القرآن، بل إنك لا تكاد تسمع إلا لحنًا؛ إما بالأسلوب، وإما في التراكيب، وإما في النحو. وهذا جزء من واقع سبب هبوط المسلمين؛ ولذلك ينبغي لنا جميعًا - وأخص طلبة العلم بذلك - أن نهتم بلغتنا العربية أيما اهتمام، ونعتني بها، ونحتفي بها، فإن بها معرفة معاني كلام ربنا ﷻ. ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فهمنا أنها توحيد العبادة، ثم عطف بعد ذلك ﷻ فقال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، والاستعانة هنا هي التوكل على الله ﷻ، والتوكل عمل قلبي يقوم بالقلب توكلًا على الله ﷻ والتجاء إليه ﷻ، وعدم رؤية للأمور والأسباب التي قد يعتمد عليها، تبرأ براءة من الحول والقوة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يقول أهل العلم: إنه قرن بينهما ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إثباتًا؛ لأن العبادة ينبغي أن تكون مع التوكل على الله؛ لأن العبادة لا يعينك عليها إلا الله ﷻ، كما أنك ينبغي لك

أن تتبرأ من حولك وقوتك وأنت تعبد الله ﷻ.

يقول الله ﷻ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وللحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1]، فانظر وتأمل هذا الفضل العظيم، الذي حباك به خالقك ومولاك وربك، أنزل عليك كتابًا فيه هذه السورة العظيمة، ثم أمرك أن تتعبده بأن تقرأها في كل ركعة في الصلاة، ثم بعد ذلك ومع ذلك إذا دعوت الله بها قال الله ﷻ: «**هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»، فأي كرم فوق هذا، وأي رحمة للعبد فوق هذه الرحمة، وأي فضل كهذا الفضل، فهل يعرف العباد حق ربهم عليهم؟ خلقك وشرفك بعبادته، وأرسل لك الرسل يدلونك الطريق حتى لا تضل، ثم بعد ذلك إذا اتبعت الرسل نلت رضى الله، ونلت الجنة بعفوه ورحمته، فأي فضل فوق هذا الفضل، يأمرك بالشيء ويجزيك عليه، ياله من فضل وإنعام، تنكسر له القلوب، وتحن بطاعة خالقها! . ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، الصراط: هو الطريق، ووصف

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٦).

الطريق هنا بأنه المستقيم، يعني: الذي جمع مع وضوحه قرب الوصول إلى البغية، فإن المستقيم - كما هو معروف -: هو أقرب أو - كما يقوله أهل الرياضيات - أقصر خط يصل بين نقطتين. هذا حقيقة هو وصفه، وصف الصراط المستقيم، إذ على أول الطريق أنت، أيها العبد، وآخر الطريق فيه رضى الله والجنة، وأقصر طريق يوصلك، بل هو الطريق الوحيد هو اتباع الرسل واتباع شرع الله ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، تسأل ربك الهداية، هداية التوفيق والإلهام، للصراط المستقيم، وهذا يجعل القلب يتفكر، ويسأل: ألسنا مهتدين؟ نحن على خير إن شاء الله، ما فائدة هذا السؤال؟ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ تكرره في كل يوم وليلة كذا وكذا مرة، ما فائدة هذا التكرار؟يعلمك ربك أنك لاتظن أن هذا الصراط أنك إذا هديت عليه أول الأمر، أنك لا تحتاج إلى تثبيت الله، تثبيت لسيرك عليه، فإن هذا الصراط المستقيم تحتاج دائمًا إلى العناية بنفسك عليه، وأن تسأل ربك الثبات عليه سؤالًا حينًا بالهداية، وسؤالًا حينًا بالعبادة، وسؤالًا حينًا بالطاعة، وسؤالًا حينًا بالدعوة، كل هذه من وسائل التثبيت على الصراط المستقيم؛ لأن هذا الصراط قد انتصب عليه شياطين الإنس والجن ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، قول إبليس في سورة الأعراف: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]؛ هذا الصراط، يعني: هذا الدين، اتباع الشريعة، هذا القرآن، هذا الصراط قد انتصب لك عليه شياطين الأنس؛ ليضلوك ويثبطوك عن المضي فيه، فاحذر منهم، واسأل الله دائمًا الثبات عليه، اسأل الله دائمًا وأنت تقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، اسأله حقيقة لا لفظًا، اسأله مستشعرًا بحاجتك الملحة للثبات على صراط الله، والصراط المستقيم: هو الإسلام والقرآن والشريعة ونحو ذلك من تفاسير السلف[(١)]، والصراط تنوع في القرآن، أحيانًا يطلق كهذه الآية، وأحيانًا يضاف إلى الله ﷻ كما في قوله ﷻ في آخر سورة الشورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]، فمرة أضافه إلي الله قال: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، ومرة قال ﷻ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، فمرة قال صراط الله، ومرة قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أضافه مرة إلى الله؛ لأنه هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي يفسر به الصراط، وهو الذي تعبدنا بالإسلام، وأضافه حينًا إلي الذين أنعمت عليهم؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنهم هم الذين يسلكونه هم الذين يسيرون عليه، يسيرون على صراط الله، الذين أنعم الله عليهم، يسيرون على صراط الله، هذا تشريف فوق التشريف، أنهم يسيرون على صراط هو صراط الله، هو الطريق الموصل إلى الله؛ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، واعلم أن ها هنا عجيبة دلت عليها هذه الآية، وهو أن الله ﷻ سمى الإسلام، وسمى شرعه، وسمى دينه، وسمى قرأنه صراطًا مستقيمًا، كما أنه ﷻ نصب يوم القيامة علي متن جهنم طريقًا وجسرًا سماه صراطًا، فهنا في هذه الدنيا هناك صراط هو الإسلام، وفي الآخرة هناك صراط منصوب على متن جهنم - أعاذنا الله وإياكم منها -، واعلم أنه لن تعبر ذاك

---

(١) انظر تفسير الطبري (١/ ٧١ - ٧٤)، وتفسير القرطبي (١/ ١٤٧)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٢٣).

الصراط الذي هو على متن جهنم إلا بهذا الصراط، إذا سلكته في الدنيا، صراط الله، الإسلام، الإيمان، لا يعبر ذاك الصراط إلا بهذا الصراط، وذاك الصراط - أيضًا - جعل الله في جنبتيه كلاليب تخدش وتُخطف من هو سائر عليه يوم القيامة[1]، وكذاك على هذا الصراط في الدنيا، هناك كلاليب تخطف السائر على الصراط المنصوب على متن جهنم، وكذلك في هذه الدنيا على هذا الصراط الذي هو الإسلام أو التوحيد، فيه وفي جنبتي الصراط كلاليب - أيضًا - تخطفك عن السير فيه فتنبه لها، إنها المعاصي، إنها الأثام، إنها حظوظ النفس، إنها الشهوات، إنها طاعة الهوى، طاعة إبليس، عبادته؛ لأن إبليس يُعبد بالطاعة، فمن أطاعه فقد عبده عبادة طاعة، كما قال ﷻ في سورة يس: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ - ٦١]، فعبادة الشيطان هي طاعته، وهذا الصراط عليه كلاليب في الدنيا هي المعاصي والآثام، فزن نفسك يا عبد الله عند قراءة هذه الآية في الصلاة كل مرة وفي كل فرض، زن نفسك بما حصل منك بين الفرض والفرض، وكرره، فهل مشيت على هذا الصراط مشيًا جادًا حثيثًا، أم تخطفتك كلاليب؟ فإذا تخطفتك كلاليب بين الفرض والفرض من عبادة

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «... وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَبِهِ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمُ المُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ، ثُمَّ يَنْجُو...».

الشيطان أو طاعته أو المعاصي، فاعلم أنك إن لم تبادر بالتوبة فستخطفك الكلاليب هناك، هذا حق يجب أن نستشعره، ونحن نتلو هذه الآية، وعلى قدر سيرك على هذا الصراط في الدنيا، يكون سيرك على ذاك الصراط في الآخرة، واعلم أنه ﷻ وحد الصراط هنا، فقال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: هو صراط واحد، و‌سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر في آخر سورة الأنعام أن غير سبيله سبل غير صراطه سبل متفرقة، فقال ﷻ أول الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، هذه الآية كان يسميها السلف، أو بعض العلماء يقول: هي آية الوصايا العشر. وهذه آخر وصية.

فإذًا غير صراط الله، فهناك سبل، فصراط الله ﷻ واحد، وسيرك على هذا الصراط الواحد تتجه فيه إلى واحد وهو الله ﷻ، فالصراط واحد، وأنت تتجه إلى واحد ﷻ، لا تشرك في سيرك معه غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبدًا، بل كما أن الصراط واحد؛ فإذًا: هذا الصراط يوصل إلى الله ﷻ وهو واحد، وأيضًا سيرك على هذا الصراط يحتاج إلى شيء، يحتاج إلى أمر، وهو أن تسير عليه على بينة، أن تسير عليه على دليل ووضوح، وهذا هو التوحيد الآخر، الذي دلت عليه هذه الآية، وهو توحيد المتابعة، متابعة الرسول ﷺ، الذي دل عليه القسم الثاني من الشهادة، وهو قولنا: (وأشهد أن محمدًا رسول الله)، يعني: أن طريقه طريقة الرسول ﷺ، وسنته وشرعه هو المقتفى وحده، لا نقتفي غيره أبدًا، فإذا كان السبيل واحدًا وهو الصراط، والمرجو والمراد واحد وهو الله ﷻ، والدليل واحد وهو الرسول ﷺ، فجمعت هذه الآية بلوازمها ثلاثة أنواع من التوحيد، فانظر قلبك كيف إذا كان عالمًا بهذه المعاني؟ كيف تستشعر تعظيمه وما يجب له من أنواع الجلال والتعظيم؟

ولذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته[١] :

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحَدًا فِي وَاحِدٍ   أَعْنِي سَبِيلَ الْحَقِ وَالْإِيمَانِ

(**فَلِوَاحِدٍ**) يعني : لله عَزَّ وَجَلَّ (**كُنْ وَاحَدًا**) في قصدك وإرادتك (**فِي وَاحِدٍ**) في سبيل واحد وهو طريقة الرسول ﷺ، وفسرها قال: (**أَعْنِي سَبِيلَ الْحَقِ وَالْإِيمَانِ**)، وهو طريق الرسول ﷺ.

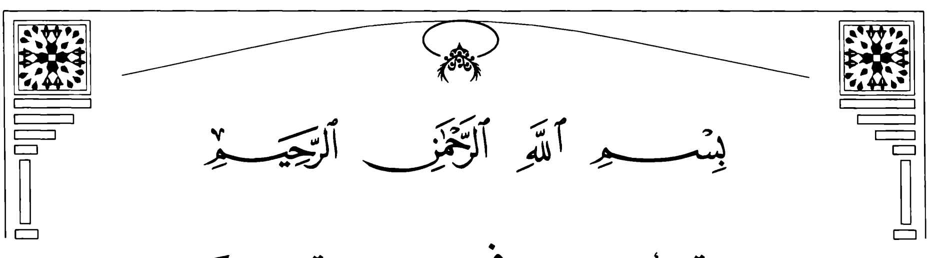
الكلام على هذه السورة وعلى هذه الآيات وما يخطر بالبال عند تلاوتها كثير، ولكن لعل قليلًا ينفع، خير من كثير يذهب، فإن القلة معها النفع، وإن الكثرة قد يكون معها الزلل؛ ولذا أستغفر الله وأتوب إليه في آخر مقالي هذا، وأدعو الله عَزَّ وَجَلَّ لي ولكم بالثبات علي دينه وبالتبصر في طريق الحق وبمعرفة حق الله علينا، فإن حق الله علينا عظيم، ويجب أن نفكر في هذا الحق، وكيف نعبد الله عَزَّ وَجَلَّ، ونتذلل له، ونخضع له، وننكسر بين يديه، وتنكسر قلوبنا لله عَزَّ وَجَلَّ، عسانا نكون من الناجين المفلحين، فإن هذه الحياة - أيها الإخوان - ليست بشيء، من عاش مائة سنة كمن عاش عشرين سنة عند حلول الممات، ولكن الشأن كل الشأن فيما يستقدمه الإنسان في حياته، رب امرئ غرغر - يعني: حضرته الوفاة -، فمرت عليه حياته، يود أنه يرجع فيعمل غير الذي كان يعمل، ولما كان الموت والأجل خفيًّا عنا، أوجب لذوي القلوب التي تخاف الآخرة، وتعلم حق الله عليها، أوجب عليها التوبة من الآن والحين، ولكن ما نقول في زمن إذا أتينا فيه للمساجد رقت قلوبنا، وإذا رأينا خارج المساجد، قست قلوبنا، فنسأل الله العظيم الجليل

---

(١) انظر: النونية لابن القيم مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢٥٨).

بأسمائه الحسنى وبصفاته العلى : أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا ، وأن يذكرنا منه ما نسينا ، وأن يعلمنا منه ما جهلنا ، وأن يرزقنا تلاوته على الوجه الذي يرضيه عنا تلاوة فيها التدبر والتأمل ومعرفة كلامه ﷻ ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





محاضرة تأملات في سورة العنكبوت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، وبعد: أرحب بالحضور الكرام: وفود ملتقى خادم الحرمين الشريفين، الذي ينعقد في بروكسل في عامه الثالث، وأرحب بصفة خاصة بمعالي المشرف على هذا الملتقى، معالي الشيخ: صالح ابن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ورفاقه من العلماء والدعاة والإخوة المشاركين والمنظمين.

وأسأل الله ﷻ أن يجعل ما قدموه ويقدمونه في ميزان أعمالهم الصالحة يوم القيامة، وهم بذلك يقومون بالدعوة إلى الله ﷿، وبتنفيذ السياسة الحكيمة للمملكة العربية السعودية عبر حكوماتها المتعاقبة، التي قامت بإنشاء هذا المركز، وهذا المسجد، ثم العمل في التوسع بالدعوة إلى الله ﷿ في كل بقاع الأرض.

وهم بذلك يعملون برعاية وتوجيه صاحب السمو الملكي/ الأمير عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز، الذي يرعى هذه الملتقيات، والذي يولي الدعوة إلى الله ﷿ جُل اهتمامه، فله منا الشكر، ومن الله ﷿ جزيل الأجر.

أيها الإخوة والأخوات، يقول رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ**

فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

وأي منا أيها الأخوة لا يرد أن يذكره الله، والله ﷻ يقول في الحديث القدسي: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ**»(٢) فعلينا بذكر الله ﷻ والتأمل في آيات الله ﷻ.

في مسجد عمر بن الخطاب، بيت من بيوت الله ﷻ، وعلى مائدة هي القرآن الكريم، وعلى سورة عظيمة، تأملات في سورة العنكبوت، سورة العقيدة بثوابتها، والدعوة بوثائقها، عبر العصور وعبر الأزمان؛ أما المتأمل فهو فضيلة الشيخ: **صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ**، حفيد مفتي الديار السعودية، حامل لواء الدعوة السلفية بالجزيرة العربية الشيخ الإمام المجدد: محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صاحب عهد الدرعية مع الإمام محمد بن سعود، حينما تواثقا وتعاهدا على نصرة العقيدة والشريعة الإسلامية.

ولد الشيخ صالح في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، ونشأ وترعرع فيها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٣٧)، ومسلم (٢٦٧٥).

كلمة معالي الشيخ/ صالح بن عبد العزيز ابن محمد بن إبراهيم آل الشيخ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث محمدًا بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا، اللهم إنا نسألك: أن تجعلنا ممن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وهذه الثلاث هي عنوان السعادة، لمن أراد الله له حياة طيبة في الدنيا والآخرة.

القرآن العظيم هو كلام الله ﷻ، منه بدأ وإليه يعود، القرآن العظيم هو حجة الله ﷻ على الأولين والآخرين، لا خير إلا فيه، ولا شر إلا حذر منه، أمر الله ﷻ أن نتدبر هذا القرآن، وأن نتأمل، وأن لا يكون حظنا من كتاب الله ﷻ الأماني، يعني: التلاوة فقط، بل التدبر والتأمل الذي يخالط القلوب فيؤثر فيها إيمانًا وصلاحًا ونورًا، حتى تعبد الله ﷻ عن محبة ورضًا وخضوع.

لهذا أمر الله ﷻ بتدبر كتابه، في مثل قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

قال طائفة من أهل العلم: دلت الآية على أنه من لم يتدبر القرآن، فإن على قلبه قفلًا منعه من تدبر كتاب الله، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال - أيضًا - ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال أيضًا ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣].

وتدبر القرآن يعني: أن نفهم الآيات معنى، وأن نفهم ما دلت عليه الآيات من الأحكام العقدية والأحكام التشريعية، والعبر في قصص الأنبياء، والسلوك الذي دل عليه القرآن.

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ١ - ٨].

هذا القرآن يجب علينا أن نتدبره؛ ولهذا فإن من أسباب عدم استئناس كثيرٍ من الناس لقراءة القرآن - يعني: من المسلمين -: أنهم لا يتدبرون القرآن، بحيث تكون قراءتهم وتدبرهم متعة ولذة للروح، تفوق كل المتع وكل اللذات، لو كانوا يعقلون[1].

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

فَتَدَبَّرِ القُرآنَ إن رُمتَ الهُدَى ... فَالعِلمُ تَحتَ تَدَبُّرِ القُرآنِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٣١٥).

هذه المحاضرة أو هذه الكلمات هي من وحي تدبر كلام الله ﷻ، قد قال العلماء: إن أكثر سور القرآن لها موضوع تتحدث عنه، لها موضوع واحد تدور عليه السورة من أولها إلى آخرها، وهذا الموضوع الواحد منه موضوع سورة العنكبوت، وهذا الموضوع هو الفتنة التي ابتلى الله ﷻ الناس بها، واقرأ في مطلعها قول الحق ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢]، هذا المطلع لهذه السورة العظيمة دل على أن الله ﷻ اقتضت حكمته وإرادته العلية أن يجعل الناس يفتنون، كلٌّ يفتن بحسب ما هو فيه، والعلة في ذلك: أن يختبر الله الناس هل هم صادقون في إيمانهم، أم أنهم غير صادقين في إيمانهم؟ ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢].

المعنى الحقيقي للفتنة: هو كل ما يرد على القلوب؛ ليفتنها وليختبرها هل هي مستسلمة لأمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ، أم ليست مستسلمة؟

والفتنة في القرآن من أوله إلى آخره تدور حول هذا المعنى، ما يرد على القلوب، ويرد على الإنسان بروحه وبدنه؛ ليختبر هل إيمانه صحيح قوي صادق، أم أنه آمن إيمانًا ضعيفًا غير قوي الصدق فيه، أم أنه ليس بمؤمن أصلًا، بل هو من المنافقين؟.

وهذه السورة العظيمة دارت حول هذا الموضوع، فذكر الله ﷻ فيها أمورًا كثيرة مما تفتتن به الناس، ويفتن به الناس، ويختبر به الناس، ويبتلى به الناس، كل بحسب ما هو فيه.

قال ﷻ في أولها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [العنكبوت: ٨]، فهذه من الفتن العظيمة، أن يكون المسلم يريد رضا الله ﷻ، ويستمسك بتوحيده، ومقتضى ذلك التوحيد، وهو الثبات على سنة النبي ﷺ، وأقرب الأقربين وأعز الأعزاء عليه وهما والداه يجاهدانه، ولاحظ لفظ يجاهدانه، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ [العنكبوت: ٨]، أي: ليست كلمة مرة واحدة قالها الوالد، أو قالتها الأم في أن تصرف المرء عن الاستمساك بتوحيده وعدم الإشراك بالله أو على الاستمساك بالدين؛ وإنما ثَمَّ مجاهدة، يعني: مرة، ومرتين، وثلاثًا؛ حتى ذكر العلماء في سبب نزولها قصة سعد بن أبي وقاص، وكان أبر الناس بأمه في مكة، قالت له: لن أذوق الطعام قط؛ حتى تترك دين محمد. فما أعظم هذا الابتلاء، والله ﷻ بيّن إيذاء هذه الفتنة العظيمة التي يمكن لك أن تتدبر وأن تتوسع في معناها، إذا كان الوالدان في البيت الذي تعيش فيه، وتصبح فيه، وتمسي فيه، وتأكل معهم، يجاهدان الإنسان على غير دين الله، فمن الناس من لا ينجح في الفتنة، من لا ينجح في هذا الابتلاء، ويكون راسبًا في هذا الاختبار بأحد سبيلين:

الرسوب الأعظم: وهو أن يطيع والديه في معصية الله ﷻ وفي الشرك به، أو في ترك الالتزام، أو في ترك التدين، ويجعل رضا المخلوق مقدمًا على رضا الرب ﷻ، وهذا إذا حصل منه، فقد تخلف إيمانه، ولم ينجح في هذا الابتلاء.

والنوع الثاني من الفتنة: أن ينجح في الاستمساك، ولكنه يرسب في طريقة معاملة لوالديه؛ ولهذا قال ﷻ في هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

حُسۡنٗاۖ﴾، أي: أن يعمل معهم عملًا فيه الإحسان، وبأحسن ما يجد، ولكن أيضًا: ﴿لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾، وفي الآية الأخرى في سورة لقمان قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥].

فهذا التوازن العظيم هو مصدر النجاح في هذا الابتلاء الذي يقع في البيت عند كثيرين من الناس، الوالدان يرفضان الالتزام والتدين، وهو تأخذه قوته واستمساكه بدينه، فينجح في الثبات على دينه، ولكنه لا ينجح في الإحسان لوالديه؛ ولهذا جمع الله ﷻ النجاة من هذا الافتتان بقوله ﷻ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: ٨].

والحظ - أيضًا - في قوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، أن هذا يشمل الرجل، ويشمل المرأة، وأن هذا قد يقع على المرأة أكثر مما يقع على الرجل، والمرأة بطبيعتها رقيقة، تتأثر بالأقوال، وتتأثر بالعواطف، فربما كانت المرأة المسلمة - الملتزمة بدينها، المعتزة بإسلامها - لقيت من الفتنة، وربما لقيت من الصد والإقناع والحوار والكلام؛ حتى تتخلى عن إيمانها، وعن حجابها، وعن صلاتها، ربما لقيت أشد مما يلقى الرجل نفسيًا ومعنويًا؛ فلذلك هي مخاطبة - أيضًا - بذلك، بأن تنجو من هذا الافتتان، وأن تكون صادقة في إيمانها، وفي استمساكها، وفي برها بوالديها.

الوقفة الثانية: في هذه السورة عند قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥]،

قصة نوح عليه السلام جاءت في سور من القرآن مطولة، بل هناك سورة في القرآن هي سورة نوح عليه السلام، وقد جاءت في عدد من السور مختصرة ومطولة، فلماذا يكرر الله عز وجل قصص الأنبياء في كتابه في سور كثيرة؟ هل هو تكرار كما قال بعض الناس؟ ليس كذلك، فلكل قصة نبي جاءت في سورة لها هدف، ووارئها درس وعبرة، ليس هو الذي في السورة الأخرى، والحظ هذا في قصة نوح هنا في سورة العنكبوت التي موضوعها الفتنة التي تعرض على القلوب والعقول، فأتت قصة نوح عليه السلام في آيتين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥].

ما صلة هذا بموضوع السورة؟ الصلة في قوله عز وجل: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وكل بلاء جاء الناس الذين لم يتمسكوا حقيقة بهدي الأنبياء والمرسلين، جاء نتيجة للاستعجال في أمورهم، وفي دعوتهم، وفي طلبهم للنتائج قبل الأوان.

نوح عليه السلام أليس هو أول رسول؟ بلى، أليس هو الرسول المؤيد بالمعجزات والبراهين والآيات من الله عز وجل؟ بلى.

أليس هو أكرم على الله عز وجل من غيره من الناس من غير الأنبياء والمرسلين من عامة أتباع الأنبياء والمرسلين؟ بلى.

ومع ذلك ابتلاه عز وجل، وابتلى من معه، وكانوا قليلين، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ابتلاهم بألف سنة إلا خمسين عامًا، يؤمنون، ولا يؤمن معهم إلا القليل، ويرون الشرك الأكبر؛ عبادة ود، وسواع، ويغوث،

ويعوق، ونسر، ويرون الصد، قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝﴾ [نوح: ٨ - ٩]، ونحو ذلك بأنواع الدعوة، لم يستجب أحد، ومع ذلك جاء الابتلاء العظيم والفتنة العظيمة، يعني: الاختبار العظيم، أن يمكث تسعمائة وخمسين سنة، لا يتنزل عليه نصر الله، أليس هو بعزيز على الرب ﷻ؟ أليس هو حبيب الرب ﷻ؟ بلى، ولكن عبرة لقومه، وعبرة لأتباع الأنبياء إلى قيام الساعة، وهي الفتنة التي ترد علينا جميعًا، ولكن قل، بل ندر من يسلم قلبه من تسويل الشيطان فيها، قال ﷻ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

هذا الصبر هذه المدة الطويلة، والإنسان يرى أنه على دين الإسلام والحق، ويرى الشرك، ويرى الكفر، ويرى المعاصي، ويرى الذنوب، ويريد أن يتخلص منها بسرعة في سنة، في سنتين، في خمس، في عشر، ولكن الله ﷻ لم يرد ذلك، بل اقتضت حكمته العظيمة أن يمضي قدره، وأن تمضي حكمته وفق ما شاء، لكن العبد عليه أن يسلك الصراط المستقيم، وليس عليه أن يرى النتائج.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٤١ - ٤٤] إذًا، مضى الزمن، وعدم تنزل نصر الله ﷻ، وأن لا يرى المسلم، أن لا يرى المؤمن، وهو الذي يعتقد ويرى أنه على الحق، وهو كذلك، أن لا يرى نتيجة عمله، نتيجة دعوته، هذا لا شك يعرض على القلوب، فيحدث لها أنواع من الفتنة.

أما الفتنـة الأولى: فأن يستعجل، فيسلك صراطًا آخر، إما بعنف، وإما بشيء نفسي يختاره لنفسه، وهو لا يتصل بدين الله، وهذه فتنة وقع فيها من وقع.

الفتنـة الثانيـة: أن يأتي أناس، فيوقعوه في اليأس، ينظر استقمنا سنة، سنتين خمسًا، عشرًا، عشرين، استقامة أجيال ما نفع، هذه فتنة، الله ﷻ يقول - في أول هذه السورة -: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٥].

إذًا، المسألة مسألة إيمان، مسألة عقيدة، يتنزل النصر، تنظر إلى النتائج، يهتدي الناس، لا يهتدي الناس، هذا ليس عليك، وإنما إلى الله ﷻ، وإنما الذي عليك أن تستمسك بالذي أوحي ألينا، تستمسك بالذي نزل من الوحي ومن سنة النبي ﷺ، وأن نعمل، وأن ندعوا، وأن نجاهد بحسب شرع الله ﷻ بالطرق التي أذن الله ﷻ بها، ثم رأينا أو لم نر، فهذا نوح عليه السلام مكث ألف سنة إلا خمسين عامًا، ويا له من درس! ما أبلغه من درس! ثم بعد هذه المدة الطويلة، ما النتيجة في دعوة نوح عليه السلام؟ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؛ ولهذا ينبغي أن ينظر المؤمن إلى هاتين النتيجتين: الاستعجال، اليأس.

وأنا أرى من مخالطتي للشباب وللملتزمين ولطلبة العلم: أن كثيرين يأتيهم الخاطر في الأول، في الاستعجال، يريدون أن يعملوا شيئًا، ولكن يراجعون أهل العلم، فيبينون لهم الحق، فيهدءون؛ لأنهم في قلوبهم مستسلمون للكتاب والسنة.

الأمر الثاني: طائفة تركوا الالتزام؛ لأنهم يئسوا، ما نفع، ما وصلنا إلى

شيء، الآن الهجمة على الإسلام عظيمة، الناس كلهم في الشهوات، ثم يتخلى عن دينه، ويا لها من فتنة عظيمة! فتنة اليأس أن يلقي الشيطان في القلب اليأس، أو أن يلقي في قلبه الاستعجال.

والله ﷻ حذر نبيه ﷺ من الاستعجال، فقال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وتأمل بعد هذه المحاضرة قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ لأن الذين لا يوقنون يستخفون المؤمنين؛ أفرادًا، أو جماعات، إلى أشياء. فإذا كانوا مستمسكين بالحق، فإنهم لن يستخفهم الذين لا يوقنون، وإما إن وقعت الفتنة، فإنهم سيستخفهم الذين لا يوقنون، فيقع المحظور.

هذه الوقفة الثانية عند قصة نوح عليه السلام.

الوقفة الثالثة: عند قصة لوط عليه السلام مع قومه.

قال ﷻ - في هذه السورة سورة العنكبوت -: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٨ - ٢٩] قصة لوط عليه السلام جاءت في سور كثيرة، ولكن في هذه السورة ثَمَّ زيادة عن ما في السور الأخرى، وهي قوله ﷻ: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾، أي: أن إتيانهم لهذه الفاحشة وهذه الموبقة وهذا الانحراف العظيم، كان معلنًا به، يجاهرون به، لا يصدهم عنه صادٌّ، وإنما كانوا يأتونها، ويفتخرون بذلك، فيأتونها في النوادي، حيث الناس ينظرون،

ولا يرعون في ذلك حرمة ولا خوفًا من الله ﷻ.

هذا المنكر العظيم الذي وصفه الله ﷻ في هذه السورة في فعل قوم لوط، وهذا الانحراف هو مثال للانحراف البشري في الشهوات الجنسية، إذا أعلن بها الناس، وكانوا لا يأبهون بها، ولا يخافون الله ﷻ في شأنها؛ لهذا ما الذي يعمله الداعية، هذا رسول الله لوط عليه السلام، الذي آمن لإبراهيم الخليل عليه السلام، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، هذا الرسول الكريم قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

فأتاهم من جهة الحوار والإقناع، بأنها فاحشة، والفاحشة ما فحش في النفس، ورفضته النفس السليمة، فأرشدهم إلى مخاطبة النفس التي تنفر من هذا العمل القبيح وتكرهه، ثم قال لهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يرشد إلى أن يتفكروا في أن هذا الذي ابتدعوه، إنما هو خروج عن فطرة الله ﷻ، والله ﷻ لم يخلق الخلق على هذا، وإنما خلق لهم؛ لأجل إتيان الشهوة الطريق الواحد، وهو إتيان المرأة حلالًا في نكاح صحيح، وهؤلاء لما خالفوا هذه المخالفة العظيمة وهذا الإعلان، لم يمنع لوط عليه السلام أن يخاطبهم بهذه الحجة التي تحرك العقول، وتحرك القلوب، ومع ذلك لم يؤمنوا، بعض الناس يقول - إذا أرشد، أو فكر هو بنفسه إلى طريقة مثلى لمخاطبة الناس -: هذا ما ينفع، الشأن في أن يكون احتجاجك صحيحًا، وأن يكون إرشادك صوابًا، نفع أو لم ينفع، هذا من جهة المتلقي، لكن أن يكون أسلوبًا نبويًا، أن تكون على هدي المرسلين، على هدي السلف، على هدي الصالحين في إرشاد الناس إلى الإقلاع عن ما لا يرضي الله ﷻ؛ ولهذا تأتي الفتنة من جهة أن يقول: هذا منكر عظيم، وهذا أعلم به الناس،

فلا يمكن أن أرشد الناس، فيذهب بعيدًا عن محاورة الناس، وعن دعوة الناس؛ ليتخلصوا من هذه الموبيقات.

قال ﷻ - هنا مخبرًا عن قول لوط -: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، وقوله: ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ تنبيه آخر لهم، أن هذا مما اجتمع هو وهم على إنكاره، يعني: كأن فعل الفاحشة منكر متفق عليه؛ لأنه لم يقل لهم، هو عندهم ربما ليس بمنكر ظاهر، لكن في تعبير لوط عليه السلام: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، لابد أنهم كانوا في قرارة أنفسهم، يعترفون بأن هذا منكر، وأن نفوسهم تأباه، ولكن الشهوة تغلب، وهذا هو الذي يوجد - الآن - عند كثير من المسلمين، في أنهم يأتون الشهوات، وفي داخلهم جذوة الإيمان تنبئهم بأن هذا منكر، وأن هذا حرام، وفعل الفاحشة لا يجوز، ويجب عليهم التوبة والإنابة، والصبر على الابتلاء، الذي ابتلى الله به النفس، في أن يكون فيها شهوة متفجرة، وهو منكر في الداخل، ولكنه ربما جادل في الظاهر؛ أما إذا هو استحله ظاهرًا وباطنًا، فنعوذ بالله من الضلال بعد الهدى.

بهذا تلحظ في قوله ﷻ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ إلى الأسلوب الذي يُدعى به من وقع في هذه الأمور، وأن الفتنة تعرض للناس في أن يتركوا أهل الفواحش، لا ينصحونهم ولا يدعونهم، وإنما يقال: هؤلاء فيهم البلاء كذا، وهؤلاء أهل معصية وأهل فساد، ويتركون ولا ينصحون.

لابد أن ينصحوا، كيف ينصحون؟ لوط عليه السلام قال لهم قولًا يخاطبهم به، قول عقلي وقول لغوي، يدعوهم إلى أن يحركوا قلوبهم وعقولهم في إنكار هذه الفاحشة، ثم هو مع ذلك أراد أن يقيم الحجة عليهم بأنه رسول من عند

الله ﷻ، سواء أنها نفعت، أم لم تنفع، هذا الحوار الذي جاء في هذه السورة، حوار لوط عليه السلام مع قومه، أو قل دعوة لوط عليه السلام مع قومه، وهو الصحيح، دعوة لوط عليه السلام لقومه في عدم إتيان الفاحشة، نفع أو لم ينفع؟ لم ينفع.

امرأته في بيته كانت تدل الناس على الفاحشة، أليست هذه فتنة عظيمة؟ الله ﷻ نبه على الفتنة التي وقعت بوجود المرأة، فقال ﷻ - في آخر القصة - ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، هل نفعت دعوة لوط عليه السلام؟ قال ﷻ - مخبرًا عن قول قوم لوط عليه السلام -: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وعلماء اللغة يقولون: (ما، وإلا) تدل على الحصر والقصر، يعني: لم يجيبوا إلا بهذا الجواب: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: إذا كنت من الصادقين، فاجعل العذاب يأتينا.

وهذه المشكلة التي يواجهها من يعيش في الأوساط المادية، مثل: من يعيش في هذه البلاد، يرون أن المسألة لا وجود لعذاب الله، إنما هي ظواهر، إنما هي طبيعيات، أو لا عذاب في الآخرة، يرون هذا عاش ما عاش في الفواحش ومات، ولم يحصل له شيء، وآخر عاش، وهو منعم واغتنى، وأثني عليه، ولم يحصل له شيء.. إلى آخره.

وهذا وجد في هذه السورة؛ للتنبيه على هذه الفتنة التي تصد القلوب.

قال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾، توجه إلى أي شيء؟ إلى الله ﷻ؛ لأن الداعية والمصلح قد يخالط الناس، ويصلح،

ويدعو، لكن عن طريقة عقلية، ويغفل عن قوة الاتصال بالله ﷻ والإخبات والإنابة والدعاء، فهناك من الدعاة من ينكرون، أو يدعون، أو يخاطبون، لكن مع ضعف في التعبد، وفي الدعاء، وفي الاتصال بالله ﷻ، وهذا قصور.

الله ﷻ نبه هنا في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ونصره الله ﷻ بعد حين.

الوقفة الرابعة: عند قوله ﷻ: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨]، تارة في القرآن تأتي قصة عاد وثمود كل واحدة منفردة؛ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: ٥٠]، ثم تأتي قصة طويلة بعدها: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود: ٦١]، في قصة طويلة، لكن هنا جمع القبيلتين، أو جمع الرسالتين في هذه الآية: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨]، فما الفتنة في هذه الآية؟ ما الفتنة عند عاد وثمود التي اختبروا بها ولم ينجحوا؟ هي ما جاء في آخر الآية: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾، أي: كانوا عالمين، كان عندهم بصيرة البصيرة للقلب في إدراك المعلومات كالبصر للعين في إدراك المرئيات، وكانوا مستبصرين.

إذًا، زين لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل، بجهل منهم، لعدم

علم، أم أنهم يعلمون وخالفوا؟ يعلمون التوحيد، واختاروا الشرك، يعلمون السنة، سنة نبيهم، واختاروا غيرها، يعلمون العبادة ولم يتعبدوا، يعلمون الطاعة وعصوا، يعلمون الحق واختاروا غيره؛ رغبة وهوى من أنفسهم.

هل كان هذا عن جهل؟ لم يكن عن جهل، ولم يكن عن ضعف حجة، وإنما كانوا مستبصرين، وهذا فيه فتنة عظيمة تدرك الأفراد، وتدرك الجماعات، وتدرك المجتمعات - أيضًا -، وهي أن يكون الفرد أو الجماعة أو المجتمع عالمًا، الحجة قائمة، البيان واضح، لكن القلوب لا تقبل، بل يزين لهم الشيطان أعمالهم، فيصد الشيطان أولئك الناس عن الحق والهدى، وهم مستبصرون، وهم يعلمون، والبيان واضح، وما أشبه الليلة بالبارحة، هل المسلمون اليوم ينقصهم البيان؟ الآن في القنوات والصحف والمجلات.. إلى آخره، أكثر الناس يطلعون، يسمعون الفتوى، ويسمعون الخطب، ويرون الخطبة في الحرمين وصلاة التراويح والدعاء، ومع ذلك يختارون غير سبيل الله ﷻ.

ما هذا الوضع بالنسبة إلى الوضع السابق في العصور التي ليس فيها وسائل اتصالات، ليس فيها كتب توزع، ليس فيها رسالة ودعوة تأتي إلى الإنسان في بيته.

إذًا، الفتنة الآن أقل، أو أكثر؟ الفتنة الآن أعظم، الفتنة بالعلم، الفتنة بما يوصلك إلى الله ﷻ، وأنت لا تريد، فالكل الآن يأتيك، وأنت ترى ذلك، لكن لا تريد، القلب يقسو، فلا يرى الحق حقًا، ولا يرى الباطل باطلًا؛ كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]

هذا القلب، تارة الإنسان منا يرى في نفسه، يرق قلبه، فتدمع عينه، وتارة يسمع القرآن، ويسمع الحجج، ويأتي وقت العبادة، وتأتي حرمات الله، ولا يبالي، لماذا؟ لأن القلب قسا، وقسوة القلب ليست نتيجة عن عدم العلم؛ ولكن نتيجة لتزيين الشيطان؛ كما جاء في هذه الآية: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

إذًا، الفتنة الآن والاختبار، الفتنة بمعنى: الاختبار، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١]، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، الفتنة بالعلم، فهؤلاء عاد وثمود كانوا مستبصرين، على علم، وعلى بيان، ومع ذلك يختارون غير الحق والهدى، يختارون الضلال، يختارون الشرك، يختارون عدم طاعة الرسول ﷺ، يعني: رسولهم، يختارون، ولكن كانوا مستبصرين.

فإذًا، العلم قد يكون نعمة، وقد يكون ابتلاءً، بل هو ابتلاء، والعلم لا نعني به العلم الكامل، العلم بالجزئيات، إذا علمت شيئًا، فإنه يجب عليك أن تتبعه، علمت أن الصلوات مفروضة، لا بد أن تؤديها مهما كان، المرأة المسلمة علمت أن الحجاب مفروض، وليس لها أن تتبرج بزينة، فهذا يجب عليها أن تأخذ به مهما كان، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]؛ إذًا، هل مشكلة الرجال والشباب والنساء عندنا مشكلة عدم علم؟ لا، المشكلة هي أن الفتنة حصلت بالعلم، والاختبار وقع أنهم يعلمون، ولكن ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ما المخرج من هذه الفتنة؟ أن تنتبه لتزيين الشيطان، ولقسوة القلوب، وأن الشيطان يصد الناس عن سبيل الله.

الوقفة الخامسة: عند قوله ﷻ - في سورة العنكبوت -: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤٤] قصص مرت معنا متنوعة، ثم ضرب الله ﷻ المثل ببيت العنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، ثم أتي بآية واحدة ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤٤].

ما علاقة هذه الآية بموضوع السورة، موضوع الاختبار والابتلاء والفتنة؟ تلحظ أن الموضوعات متنوعة في السورة، لكن الرابط واحد، آيات الله ﷻ، منتشرة في الآفاق وفي النفس.

نظر المؤمن للسماء وللأرض غير نظر المادي والكافر، فالمادي والكافر ينظر إلى السماء، وليست هي السماء والنجوم، وليست هي النجوم والأرض بما فيها من جمال وبديع صنع الله ﷻ، ولا يتأمل، ولا يعتبر.

هذه الدلالات على عظمة الله ﷻ التي تصبح معك، وتمسي معك، أليست ابتلاء لك؟ تصبح وأنت ترى النور، وترى الشمس، وترى السماء، وترى الأرض بما فيها، تصبح وأنت ترى النبات يترعرع، تصبح وأنت ترى النمو، ترى الصبح يتنفس، ثم في الليل تنظر إلى النجوم، تنظر إلى السماء، هذه الآيات المتوالية بالهواء، والآيات التي في السماء وفي الأرض، أليست ابتلاء لك؟ هل تنظر إلى عظمة الله ﷻ، أم لا تنظر؟

المصيبة أن القلوب غفلت عن تأمل هذا الكون، والله ﷻ في آياتٍ كثيرة دعا وحض على التفكر والتدبر، فقال ﷻ - مثلًا -: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦]، وفي القرآن آيات كثيرة، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، بل تأمل أعظم وأعظم في قول الله ﷻ - في سورة الرعد -: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤]؛ أرض واحدة، ماء واحد، هذه شجرة طويلة، وهذه صغيرة، هذه وردة حمراء، وهذه وردة بيضاء، هذه زهرة شكل هذه، لها رائحة، وهذه رائحتها مختلفة، والماء واحد، والأرض واحدة، والرعاية واحدة، فتتنوع تنوعًا غريبًا أكثر من تنوع الناس في صفاتهم ولغاتهم.

إذًا، نحتاج إلى تأمل وتدبر، هذه الآية تبين لك أننا ابتلينا جميعًا، وافتتنا بما خلق الله ﷻ حولنا، نعم، الله سخر هذه الأشياء لكم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، والتسخير لا يعني عدم الاعتبار وعدم التفكر؛ لهذا ينبغي للإنسان ألا يحجبه الإلف والتعود عن التأمل في عظمة الله ﷻ في هذا الملكوت.

وما أحسن قول الحسن البصري! الإمام الزاهد، من سادات التابعين في البصرة، وهو يخاطب نفسه، ويخاطب من أمامه وهو يعظ، وهو كان من أفضل الوعاظ في زمانه، يرقق القلوب، وبعد مواعظه تدمع العيون،

وتنشرح النفوس لقبول الهدى والاستقامة على طاعة الله ﷻ، ما أعظم قوله! وهو يتحدث عن التفكر متأثرًا بما قالت أم الدرداء ﵂: «**كانت أكثر عبادة أبي الدرداء ﵁ التفكر**»[1]، أبو الدرداء ﵁ الصحابي الجليل، قال الحسن البصري للناس، وتأملوا ما قال:

يقول: (**عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر، فرجعنا بالتذكر على التفكر، وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار**)[2]. أولًا التفكر، ثم التذكر.

(**عاملنا القلوب بالتفكر**)، التفكر في خلق الله، التفكر في آلاء الله، التفكر في النفس، التفكر في البداية، في النهاية. عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر، يعني: كانت النتيجة أنْ تَذَكَّرَ القلب وَحَيَا، هل اكتفى بذلك؟ لا، قال: (**فرجعنا بالتذكر على التفكر**)؛ لأن القلب كان غافلًا، فتفكر، فحدثت عنده جذوة من التذكر، هل اكتفى؟ ما اكتفى بذلك، فرجع بالتذكر مرة ثانية على القلب، فينظر من جديد متفكرًا في خلق الله بعد أن صار عنده تذكر.

قال: (**فرجعنا بالتذكر على التفكر، وحركنا القلوب بهما؛ فإذا القلوب لها أسماع وأبصار**).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٠٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ١٤٩)، وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٠٤)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٥١٧)، والاستقامة (١/ ٢١٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية ؒ، ومدارج السالكين (١/ ٤٤١)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٢١٣) لابن القيم ؒ.

أعيدها عليكم لتحفظوها، كلمة عظيمة، وعندكم آيات الله ﷻ العظيمة، كيف تتذكرون عظمة الرب ﷻ، وهي أمامكم صباح مساء! كما قال أبو العتاهية الشاعر رحمه الله[١].

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةً ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

قال الحسن البصري: **(عاملنا القلوب)**، يعني: فتشنا عن القلوب، ما يصلحها، **(عاملنا القلوب بالتفكر، فأورثها التذكر، فرجعنا بالتذكر على التفكر، وحركنا القلوب بهما؛ فإذا القلوب لها أسماع وأبصار)**.

يعني: أصبحت تسمع شيئًا، ما كانت تسمعه، تبصر شيئًا، ما كانت

---

(١) هي للشاعر المشهور إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق العنزي، المعروف بأبي العتاهية، ولد سنة ثلاثين ومائة، أصله من عين التمر وهي بليدة بالحجاز ومنشؤه الكوفة، ثم سكن بغداد، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء، ثم تنسك وصار قوله في الوعظ والزهد، وأبو العتاهية لقب، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٠)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ١٧٤٩)، والمنتظم (١٠/ ٢٣٦)، ووفيات الأعيان (١/ ٢١٩)، والوافي بالوفيات (٩/ ١١١)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٦٥)، والمستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١٦). ونسب ابن خلكان هذه الأبيات لأبي نواس في وفيات الأعيان (٧/ ١٣٨).
وقال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ رَأَيْتَهُ ... إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعُمْيَانِ

بِشَهَادَةِ الْإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا ... لِلَّهِ لاَ بِشَهَادَةِ النُّكْرَانِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ١٩٩).

تبصرة، كان أصمًا، فالقلب صار سميعًا، كان أعمى، فأصبح بصيرًا، لما ابتدأ بالتفكر، فنتج عنه التذكر.

ولذلك هذه الآية فيها بيان الفتنة والابتلاء من خلق الله ﷻ، في هذه الآية الواحدة في سورة العنكبوت التي مدارها على الابتلاء والفتنة، قال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

وفي ختام الآية تنبيه لطيف على أن المنتفع بخلق الله ﷻ الذي يتأمل، وينظر إلى الحق، ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ ينظر ما وراء ذلك، إنما هو المؤمن، لكن غير المؤمن ينظر إلى السماء، ويقول: ما هذه؟ نراها كل يوم، ينظر إلى بديع صنع الله ﷻ، مات فلان، مات انتهى، ولد فلان انتهى.

لكن المؤمن ليس كذلك، له في كل خلق من خلق الله وقفة وعبرة، بها يحيا القلب ولا يقسو؛ لهذا قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾، وأنتم من المؤمنين، فهيا إلى ميدان التفكر ثم التذكر.

الوقفة السادسة والتأمل السادس:

إن قوله ﷻ - في سورة العنكبوت -: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

هذه الآية في هذه السورة هي في الموضوع ذاته، وهو موضوع الفتنة والاختبار.

في عهد النبي ﷺ كان اليهود في المدينة، وكان في جنوب الجزيرة العربية النصارى وبعض اليهود - أيضًا -، وهي - أيضًا - توجيه للأمة جميعًا؛ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ المجادلة: هي التي تسمى في العرف المعاصر الحوار، (جادل) بمعنى: مأخوذة من الجديل، وهو الحبل الذي يلف بعضه على بعض، فيكون جديلًا، ومنه شعر المرأة إذا جدل صارت جديلة أو جدائل؛ لأنه يلف بعضه على بعض[١].

سمي الحوار جدلًا ومجادلة؛ لأن الأقوال المختلفة يلف بعضها على بعض محاولة من كل طرف أن يقنع الطرف الآخر، ووجود الحوار، وجود التعايش، وجود المسلم بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن غيرهم - أيضًا - لابد أن يتكلم معهم، لابد أن يحاور، لابد أن يجادل، فالفتنة حاصلة، هل يكون جداله ناجحًا فيه، أم لا يكون؟ لأن من الناس من يحاور ويجادل فيما يراه هو، لا فيما هو متيقن أنه من الشرع والدين؛ ولذلك تأتي شبهات كثيرة في الحوار والنقاش والمجادلة، ومشكلات - أيضًا - تعرض بعض نقاشات نتيجة إلى أن فلانًا من المسلمين حاور فلم يحسن الحوار، فلان من المسلمين جادل، فعرض للقضية عرضًا غير شرعي، ما عنده فقه في العقيدة الصحيحة، ما عنده حكم شرعي في الأحكام، تعرض له مسائل المرأة، لا يعرف أن يتكلم فيها بالوجهة الشرعية الصحيحة، تعرض له مسائل حقوق الإنسان ونظر الإسلام إليها، لا يتكلم عليها بالنظرة الشرعية

(١) انظر: العين (٦/ ٧٩)، ولسان العرب (١١/ ١٠٥)، ومقاييس اللغة (١/ ٤٣٣).

الصحيحة، تعرض إليه مسألة الحوار والمجادلة، لا يتكلم فيها بالوجهة الشرعية الصحيحة، وهكذا.

إذًا، قد يفتن المرء بالحوار وبالمجادلة، فما المخرج؟ المخرج في هذه الآية، قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، وكما قدمت لك أن (لا، وإلا) تفيد الحصر، يعني: إذا جادلتهم، فجادلهم بالتي هي أحسن؛ كما قال ﷻ - في سورة النحل -: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]

قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أهل الكتاب: هم من لهم كتاب سابق، سواءً أكان كتابًا بقي على صحته، أم محرفًا، والآن الكتب الموجودة، الإنجيل والتوراة، محرفة، زيد فيها لفظًا ومعنى، ومع ذلك هم أهل كتاب، والكتاب الموجود عندهم، التوراة والإنجيل، أصله كتاب الله ﷻ؛ كما جاء في القرآن: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران: ٣-٤] فأهل الكتاب إذا جادلتهم تريد أن تهديهم إلى الحق، كما قال النبي ﷺ: «**فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»(١)، يعني: من أثمن الأشياء في هذه الدنيا، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هل (التي هي أحسن) معناها الحسنى، يعني: بالطريقة الجيدة المناسبة؟

الجواب: لا، إنما (بالتي هي أحسن)، يعني: بالطريقة التي هي أحسن

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

من غيرها، ليس فقط أن تكون الطريقة حسنة ومقبولة، بل أمر الله ﷻ هنا بأن تكون الطريقة أحسن ما تجد.

لماذا أحسن ما تجد؟ لأن القوي حجة، والقوي إيمانًا، والذي يمسك المعلومات والحقائق بيده لا يمكن أن يغضب؛ لأن حجته قوية، لا يمكن أن يستفزه الخصم الذي أمامه، فيوقعه في مغالطات.

وأنا من واقع التجربة، ومن ملاحظة الذين يحاورون ويجادلون، وجدت أن كثيرين وقعوا في الغلط لما غضبوا، لكن لو استمر على هدوئه في النقاش من أوله إلى آخره، كانت المعلومات - بتوفيق الله ﷻ - تتوارد عليه بهدوء، وتكون الحجة معه.

وإذا كنت هادئًا في الحوار والنقاش والمجادلة والدعوة مع أي أحد تختلف معه، أنت الذي تمسك الزمام بيدك؛ أما إذا غضبت فالإنسان بطبيعته إذا غضب، «**لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»[1]؛ لأنه القضاء هنا ليس المقصود القاضي الشرعي، يعني: في المحكمة، حتى القاضي في المسائل العلمية، حتى في المسائل المختلف فيها.

إذا كنت غضبان لن تدرك وجه الصواب، لن تدرك وجه الحقيقة؛ لهذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، وقوله: (بالتي هي أحسن) فيها سلسلة من آداب الحوار الذي قل من ينجو من فتنته ومن اختباره.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧).

فبعض الناس يجني على الإسلام؛ لأنه لا يعرف يحاور، يجني على الإسلام، يذكر معلومات شرعية غير صحيحة، هكذا من واقع الغيرة، هل الغيرة دائمًا محمودة؟ هل الغيرة على الدين دائمًا محمودة؟

الجواب: لا، بل الغيرة المحمودة ما وافقت العلم الصحيح والشرع، وأضرب لك مثلين في السيرة، لم تكن فيهما الغيرة هي الأصوب، بل كان هدي النبي ﷺ، هو الأصوب.

أما الموضع الأول: فلما جاءت قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، القصة المعروفة[1]، لما أرسل بسر النبي ﷺ إلى المشركين، «**فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا ولا ارْتِدَادًا، ولا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ صَدَقَكُمْ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**».

إذًا، صارت المسألة ليست مسألة اختيار للنفاق وللكفر، عمر رضي الله عنه قال: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ**»، كانت غيرة في مكانها، لكن

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه صحابي جليل شهد بدرًا وقصته أخرجها البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٨/ ٥٢)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٣٢٥)، والدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٤٧٣).

النبي ﷺ وهو مربي هذه الأمة، وهو الذي يمتثل القرآن، وكان خلقه القرآن، «**فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ: **يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟**» بقية الاستنتاجات من القصة عليك.

أيضًا في قصة صلح الحديبية، لما أراد النبي ﷺ أن يتنازل عن بعض، أو يتساهل في بعض الشروط؛ رغبة في مصلحة للدعوة الإسلامية، ولنشر الإسلام أعظم، قال عمر رضي الله عنه: «**أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ، وَلَمَّا يَحْكُم اللَّهُ بَيْنَنَا، فَقَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا**»[١].

ومع ذلك أرشده النبي ﷺ إلى ما أرشده؛ لأنه كان يتصرف بوحي من الله، فكان صلح الحديبيَة فتحًا، الحديبِيَة بالتخفيف والحديبيَّة بالتشديد، يصح الوجهان، كان ذلك الصلح فتحًا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]

إذًا، هنا في موضوع الحوار والمجادلة قد تأتي قضية يشتد فيها الأمر، مثلًا: يتكلم عن حقوق الإنسان وظلم الإسلام، قد يأتي واحد يستفزك، ويقول: الإسلام يظلم المرأة، الإسلام يقتل في الحدود، الإسلام يقطع يد السارق، الإسلام يفعل، الإسلام يفعل.

طبعًا، الشبهة تأتي من الشيطان، لكن لو كان هنا عالم يرد، لكانت المسألة مقنعة لمن أراد الله هدايته، لكن ما الذي ينبغي عليك؟

ألا تنفعل وتذهب حجتك إلى الغضب، وتصبح لا تدلي بحجة واضحة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥).

بينة؛ لأن الحجة الواضحة البينة لا تحتاج معها إلى غضب، لا تحتاج معها إلى عنف في القول؛ لأنها هي في نفسها تدخل للقلوب، لأن الواحد يفكر في الحجة ويتأمل، كلمة واحدة ربما تسقط الذي أمامك.

مثلًا يقول القائل، وهي مسألة أعرض لها في لحظة وأمشي عنها، ولا تنشغلوا بها، مثلًا يقول: الإسلام يعطي المرأة في الميراث النصف من الرجل، لماذا الإسلام يعطي المرأة النصف من الرجل؟ هذه قضية دائمًا تورد صحيح، أو لا ؟ نعم.

لكن يأتي الفقيه، ويقول: ليس دائمًا المرأة تأخذ النصف من نصيب الرجل، وإنما هذا في حالة واحدة، وهي إذا اجتمع الإخوة والأخوات، الأبناء والبنات، ومات الأب، أو ماتت الأم؛ أما بقية الحالات في الميراث فقد تأخذ المرأة أكثر من الرجل في بعض الحالات، في حالات كثيرة، فتأخذ المرأة أكثر من الرجل.

فيكون - مثلًا - القريب يأخذ السدس، والمرأة تأخذ الثلثين، أحيانًا يأخذ القريب الثلث، والنساء يتقاسمن الثلثين، وقد يكون في بعض مسائل الميراث أن المرأة والرجل يأخذ نفس القسمة.

إذًا، في المسائل إذا أتى المخاصم، وجادل بهذه، وقلت له: في الفقه ليس دائمًا الرجل يأخذ ضعف نصيب المرأة، هززت المعلومة التي قدمها؛ فإذًا هو سيهتز.

فهناك - إذًا - بعض الوسائل في الحوار مهمة، وهي أن تلقي كلمة واحدة، تهز مصداقية المجادل، فإذا هززت مصداقية المجادل، إما في دقة

معلوماته، أو في حسن ما أبدى من الملاحظة أو المداخلة، أو نحو ذلك، هو يهتز، يحس بالضعف في نفسه.

إذًا، فالمجادلة بالتي هي أحسن أن تبحث عن أحسن الطرق، لكي تؤثر في الناس بيانًا لحجة الله ﷻ، ومع ذلك مع المجادلة، المسلم المؤمن يختلف عن أهل الكتاب في شيء أرشدت إليه الآية، وهذه مهم أن يذكرها كل أحد يجادل أحد من اليهود أو النصارى في أي مكان من الأكاديميين، أو في مجال العمل، أو في أي مجال.

قال الله ﷻ: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] نحن نؤمن بالتوراة، ونؤمن بالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى والتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، هل هم يؤمنون بالقرآن؟ لا يؤمنون بالقرآن.

نحن نتولى موسى عليه السلام ونتولى ونحب، ونصلي - كلما ذكرنا - على موسى عليه السلام وعلى عيسى عليه السلام، وعلى إبراهيم الخليل عليه السلام، فأي محبة أعظم من هذه المحبة؟ نتواصل طريق الإيمان، نتولى جميع الرسل، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] هم يؤمنون بمحمد ﷺ؟ لا.

إذًا، نحن متفوقون عليهم في موالاة جميع الأنبياء وجميع المرسلين، وفي الإيمان بكتب الله ﷻ، وهذا يعني: في الحوار، يعني: في المجادلة أنت الأعلى بحجتك؛ لأنك تسير مع جميع الأنبياء والمرسلين؛ أما هم فيفرقون بين الله وبين رسله، ويقولون: نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، قال ﷻ ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

الوقفة السابعة: عند ختام هذه السورة، في الآية الأخيرة، قال الله ﷻ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذه الآية ما صلتها بالموضوع؟ هذه الآية هي جواب السؤال، الذي افتتح الله ﷻ به السورة، في آخر آية الجواب، وفي أول السورة السؤال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، إذًا صارت الفتنة موجودة، كيف يتخلص الإنسان من الفتنة؟ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ هناك الأشياء التي مرت معنا وثَم غيرها، ولعلكم أن تتأملوا السورة، وتخرجوا ما فيها - أيضًا - من أنواع الابتلاء، وما تنشرح به الصدور.

لكن ما الوسيلة والإعداد النفسي والإيماني الذي يمكن المرء به أن لاتضره فتنة؟ وأن يكون كأصحاب رسول الله ﷺ، وكالتابعين لهم بإحسان في الثبات، نسأل الله ﷻ ذلك.

ما الجواب؟ الجواب في عدة آيات: منها ختام هذه السورة، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ يعني: أن الهداية إلى السبيل الحق؛ لأن سبيل الله ﷻ واحد، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وحد وقال: سبيله. وقال: ولا تتبعوا السبل. لكن في هذه الآية قال: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، فالْحَظْ أنها سبل الرب ﷻ، وهي طرق الطاعات المختلفة وطرق الاستجابة لأمر الله ﷻ، فكأن كل مسألة من مسائل العقيدة تحتاج إلى مجاهدة لتثبت عليها، وتسير على سبيلها، وكأن كل مسألة

من مسائل العبادة؛ من المحافظة على الصلاة، وأداء زكاة الأموال، والمحافظة على الأعراض، والاستقامة، والعلاقة الحسنة بالناس، وبر الوالدين، وجميع الأخلاق والعبادات، كل واحدة منها سبيل يحتاج إلى مجاهدة للثبات والهداية عليه.

وهذه المجاهدة لابد أن تكون منك، الله ﷻ ابتلاك بالحياة، ولكن هذه الحياة ابتلاء عصيب، نعم، لكن الآخرة طويلة لا انقضاء لها، وهي: إما جنة، وإما نار.

ولهذا ذكر ربنا ﷻ آية في أول السورة، تأملها، وهي قول الله ﷻ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦] قد يأتي للمرء قول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾، يأتي للمرء أنه جاهد وجاهد، فيَمُنّ على ربه ﷻ.

الله ﷻ بين في كتابه أنك لا تتفضل على الرب ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، فالمجاهدة هذه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ هذه المجاهدة مجملة بما نجاهد؟

بين الله ﷻ أيضًا في السورة نفسها طريقة المجاهدة، في آخر آية من الجزء الذي في داخل السورة، قال ﷻ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إذًا، سبل المجاهدة تلاوة القرآن التلاوة التي معها التدبر، الآن نسمع

القرآن، نسمع سماع استمتاع، لكن قليلًا الذي يسمع القرآن، ويخالط قلبه، وتدمع عينه لسماع كلام الله ﷻ.

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ أي: تصلي الصلاة كما صلاها النبي ﷺ، (تقيم الصلاة) بمعنى: أن تأتي بأركانها وشروطها وواجباتها، وأن تتخلص فيها من الغفلة، وتخشع، صلاة بلا خشوع هل هي تنفع في السلوك؟ لا تنفع، لكنها تؤدي الواجب عليك، وتؤجر عليها بحسب ما أديت منها، لكن كلما خشع المرء في صلاته، كلما نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وأقبل على الطاعة.

لذلك من الوسائل المفيدة في الصلاة أن تطيل في الصلاة، تسبح؛ لأن أحيانًا يأتيك الذكر الذي في الصلاة في التسبيح في السجود والركوع على أنه إلف، (سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم)، لكن أين التدبر في معنى التسبيح؟ إذا سبحت بأناة وهدوء، رأيت الصلاة غير الصلاة.

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢] «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»[1]، يكون في أمر عصيب عصيب، واحد يقول: أنا تعبان، ما أريد أن أصلي، يعني: أصلي بعد ذلك، النبي ﷺ إذا تعب توجه إلى الصلاة ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ [الشرح: ٧]، أي: إذا فرغت فانصب في العبادة، في الطاعة؛ لأنها هي الراحة، وهي الطمأنينة لمن صلاها بخشوع وحضور قلب.

إذًا، الفتن إذا عرضت بجميع ما ذكرنا من الأنواع والأصناف، وما في السورة مما ستتأملون وتتدبرون الليلة أو غدًا - إن شاء الله تعالى -،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥).

أو الجمعة، أو أي وقت يتاح لكم، إذا تأملت ذلك فاعلم أن العلاج في قوة القلب، وقوة القلب تأتي بتلاوة الوحي أولًا، الثاني: إقامة الصلاة، الثالث: كثرة ذكر الله ﷻ، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أسأل الله الكريم بمنه وفضله أن يجعلني وإياكم ممن رضي قولهم، ورضي فعلهم، اللهم اجعلنا من أهل الجنة، ونعوذ بك أن نكون من أهل النار، اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم نسألك نورًا في قلوبنا، ونورًا في اسماعنا، ونورًا في أبصارنا، ونورًا أمامنا، ونورًا خلفنا، اللهم واجعل لنا نورًا، نسألك اللهم أن تصلى وتسلم على عبدك ورسولك محمد كلما صلى عليه المصلون، وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

(جزى الله شيخنا العلامة الشيخ/ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، جزاه الله خيرًا على هذه الوقفات، وهذه التأملات في هذه السورة العظيمة، والآن جاء دور الأسئلة، حقيقة الأسئلة كثيرة جدًا، وسنحاول عرض ما نستطيع منها، ودمج بعض الأسئلة المتشابهة أو المتقاربة مع بعضها البعض، ونحاول أن نأخذ المواضيع الأقرب لهذه المحاضرة).

الأسئلة

السؤال (١): فضيلة الشيخ من الوقفات التي تعرض لها فضيلتكم من دروس سورة العنكبوت، أنه ينبغي للمسلم أن لا يستعجل النتائج، والسؤال: ألا ترون أن من أسباب أخطاء بعض الدعاة وبعض الأحزاب استعجال قطف الثمار، ونتج عن ذلك الفتنة القائمة بين الحاكم والمحكوم؟

الجواب:

الحمد لله رب العالمين، أمامنا مدرسة عظيمة وقدوة كاملة، وهم أنبياء الله ﷺ ورسله - عليهم صلوات الله وسلامه- والأسئلة التي تنفع الناس في هذه البلاد هي التي ينبغي أن تطرح، والقضايا الإسلامية كثيرة ومتنوعة، ولا يمكن أن تستوعب في أسئلة ولا في إجابات.

لهذا نقول إن استعجال النتائج يقع فيه الفرد، وتقع فيه الجماعة، ويقع فيه المجتمع أحيانًا، فهو سلوك نفسي يرضى به المرء عن نفسه أنه قدم شيئًا، وهو مستعجل؛ ولذلك يقول القائل: وقد يكون مع المستعجل الذلل، وهذا واقع، فالمهم لجميع الدعاة وجميع المربين والمسلمين أن يلتزموا هدي الكتاب والسنة، وأنهم إن أشكل عليهم شيء، الواجب عليهم أن يراجعوا أهل العلم الراسخين؛ ليبينوا لهم الطريق النبوي وهدي السلف الصالح في علاج المشكلات؛ أما أن يظن المرء أن الحل في هذا الطريق، ثم يسلكه ولا يراجع من هو أرسخ منه علمًا وفقهًا وإدراكًا للعواقب والحكمة في الأمور، فهذا يسبب أشياء قد يكون لها ضرر، كما يكون تارة هنا وهناك،

وهذا الموضوع عرضت له في التأملات، وفيه كفاية - إن شاء الله تعالى -.

ووصيتي للدعاة هنا وفي كل مكان: أن يكون همهم هداية الخلق، والسعي فيما ينفع الناس، وأن يلتزموا منهج السلف الصالح في أمور التعامل؛ لأن الشريعة كاملة، الشريعة كما جاءت بالعقيدة، يعني: الإسلام كما فيه العقيدة فيه الشريعة، أيضًا فيه كيف تعامل كل أصناف الخلق؟ كيف تعامل نفسك؟ كيف تعامل والديك؟ كيف تعامل الأعداء؟ كيف تعامل المخالفين؟ كيف تعامل المفسدين؟ كيف تعامل أهل البدع؟ كيف تعامل أهل الكفر؟ كل صنف من الناس في الشريعة بيان طريقة التعامل معه، والذي ألحظه على كثير من التصرفات أنها ينقصها العلم الصحيح الذي في الكتاب والسنة؛ ولذلك تحصل أخطاء، ويحصل فيها ما لا يحمد؛ لأجل نقص العلم.

وأعظم ما يرشد إليه الناس الازدياد من العلم؛ لأن بالعلم الاقتداء بالأنبياء، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

وتأمل في جواب السؤال قصة عمر رضي الله عنه التي ذكرت لك، ليست دائمًا الغيرة تكون الصواب، قد يكون مع التأني الصحة، عمر رضي الله عنه في موقف آخر هدأ في حروب المرتدين، وكان أبو بكر رضي الله عنه في القضيتين اللتين ثار فيهما عمر رضي الله عنه هادئًا، ينتظر توجيه وإرشاد النبي ﷺ، فلما جاءت حروب الردة، استغرب عمر رضي الله عنه أن يمضي أبو بكر رضي الله عنه في حرب المرتدين الذين يريدون تفكيك الالتزام بخلافة أبي بكر رضي الله عنه، فقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ**

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلاَّ بِحَقِّهَا؟ قال أبو بكر: فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلى رَسُولِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ على مَنْعِهَا»(١).

فأبو بكر رضي الله عنه كان أثبت منه في هذا المقام، وعمر رضي الله عنه له من الفضائل، وقد وافقه القرآن العظيم في أشياء اجتهد فيها، فجاءت الموافقة من الله عز وجل، ويسميها العلماء (موافقات عمر)، يعني: ما جاء القرآن فيه موافقًا لقول عمر رضي الله عنه(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢)، ومسلم (٢٤٠٥)، واللفظ لمسلم.

(٢) من ذلك ما أخرجه البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله عنه: «**وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَفِي الْحِجَابِ، وَفِي أُسَارَى بَدْرٍ**»، وهذا لفظ مسلم. قال ابن حجر في الفتح (١/ ٥٠٥): وليس في تخصيصه العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين وهما في الصحيح، [البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٤٠٠)] وصحح الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «**مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيْهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ أَوْ قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ فِيْهِ شَكَّ خَارِجَةُ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ**»، وهذا دال على كثرة موافقته.

وقد وافق عمر رضي الله عنه ربه في مواضع منها: قوله لأزواج النبي ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ . . . ، فنزلت الآية كما قال، انظر: البخاري (٤٩١٦)، ومسلم (١٤٧٩).

ومنها موافقته في آية المؤمنين كما روى أبو داود الطيالسي في مسنده برقم (٤١): وافقت ربي لما نزلت ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فقلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت.

ومنها موافقته في تحريم الخمر، كما عند النسائي (٨/ ٢٨٦)، ومنها موافقته في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الآية، «**إِنَّ يَهُودِيًّا لَقِيَ عُمَرَ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ جِبْرِيلَ** =

المقصود أن نسير على الهدى، أن نسير على الشريعة، أن لا نستعجل؛ لأن هذه أمور بيد الله ﷻ، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٣].

السؤال (٢): سائل يقول: لقد ذُكِر الجهاد في هذه السورة الكريمة في أكثر من موضع؛ في قوله ﷻ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ [لقمان: ١٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] يقول: هناك من يحصر معنى الجهاد في القتال، في حين أن القتال لم يؤمر به إلا في الحياة المدنية، يقصد في المدينة بعد الهجرة، وسورة العنكبوت كما تعلمون سورة مكية، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] في سورة الفرقان، وسؤالي ما هو الجهاد في السور المكية؟

الجواب: الجهاد جهاد فعال من بذل الجهد في إظهار ونصرة الحق، أو رد العدو، تارة يكون هذا الجهاد في البيان؛ كما قال ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [لفرقان: ٥٢].

الجهاد البياني، الحجة الماضية الوضوح، بيان الدلائل، بيان البراهين العقلية والنقلية بما يخاطب العقول والقلوب، هذا نوع من الجهاد، هذا في مكة كما ذكر السائل، والحقيقة أنه يظهر منه أنه طالب علم جيد، كما ذكر

= الَّذِي يَذْكُرُهُ صَاحِبُكَ هُوَ عَدُوٌّ لَنَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ. قَالَ: فَنَزَلَتْ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»، كما ذكره الطبري في تفسيره (١/ ٤٤٧).

السائل الجهاد في مكة مطلوب، ولكنه جهاد عدو ليس بالسنان، ليس جهاد بالسيف، الجهاد بالسنان هذا رد للأعداء، أو رد لمن يريد الكيد على المسلمين من أنواع الأحزاب والأعداء.

لهذا أكثر أنواع الجهاد:

جهاد قلب، جهاد النفس، جهاد بياني، جهاد دعوة، جهاد الشيطان؛ أما الآخر فهو الجهاد بالسيف، فكما يقول العلماء - ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: الأصل الجهاد بالحجة والبيان، ولهذا كان في مكة، وأما الجهاد بالسيف والسنان فإنما جاء في المدينة؛ لرد الأعداء عن النيل من المسلمين.

وكل دولة من دول العالم في قوانينها جهاد، لكن يسمونه قتالًا، يسمونه رد الغازي، يسمونه أي تسمية أخرى.

والجهاد تارة يكون للطلب، وتارة يكون للدفاع في الفقه وفي أحكام الشريعة.

المقصود أن السورة اشتملت على نوعين من الجهاد، وهو جهاد النفس، والجهاد بالحجة والبيان، جهاد الشيطان، وهذه كلها من أنواع الجهاد المستمرة، فإننا مطلوب منا في كل وقت أن نبذل جهدنا في رد هذه العداوات.

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣]، الشيطان عدو؛ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، أي: جاهد الشيطان، وجاهد النفس والشيطان واعصهما، وإن هما محضاك النصح فأتهم؛ إذًا، نحتاج في الجهاد إلى تأمل، وما يمكن أن الواحد يستقيم على دين الله ﷻ بالراحة

وبالورود وبالرياحين، ويرى أنه لا يحصل له ما ينغص عليه، لا ؛ لأن الجنة غالية، سلعة الله غالية، فلابد من الابتلاء، والناس في عرفهم يقولون: (إن الذي يتعب أكثر، يأخذ أجرًا أكثر)، صحيح، هو في الحديث الأجر على قدر المشقة، فأنت الآن تتعب في عملك الدنيوي، وتأخذ أكثر، تعمل ثم تعمل في خارج الدوام، ويعطونك زيادة، أو عمل إضافي. .إلى آخره.

الله ﷻ، وهو الحكم العدل، كلما كانت المشقة عليك أكثر - والجهاد في الثبات على دين الله أعظم، ومجابهة وساوس الشيطان والنفس في الخروج عن الصراط أعظم -، كلما كانت الرفعة والأجر أعظم وأعظم وأجزل، وفق الله الجميع لما فيه رضاه.

الحقيقة هناك العديد من الأسئلة حول أحكام بعض الأمور، التي يتعرض لها أبناء الأقليات والجاليات الإسلامية، سنطرح بعض هذه الأسئلة، منها هذا السؤال لأحد الأخوات تقول:

السؤال (٣): أنها امرأة مسلمة متحجبة، وتريد اجتياز امتحان الحصول على جواز القيادة في فرنسا، وذلك لضرورة ملحة، ولكن مسؤولية اشترطوا عليها أن تصور صورة شخصية تظهر فيها أذنها، فاحتارت في أمرها، علمًا بأنها تسكن في بيت لا يوجد فيه مواصلات عمومية؟

الجواب:

الحمد لله، المرأة المسلمة إذا احتاجت إلى ذلك، وكانت ملتزمة بحجابها، ومأمونة على نفسها، فإنه لا حرج عليها في ذلك في مثل هذه البلاد، وقد أفتى عدد من العلماء بجواز ذلك، وهذه تختلف الفتوى فيها

باختلاف الزمان والمكان والوضع، وإنما المقصود أن المرأة المسلمة إذا احتاجت إلى ذلك فلا حرج عليها في ذلك - إن شاء الله تعالى -، والصورة تحريمها في الأصل من باب سد الذرائع، وما حرم سدًا للذريعة قد يباح في الشريعة لمصلحة راجحة، ومن العلماء من أجاز التصوير الفوتوغرافي، كما هو معلوم، وهو الذي عليه كثير من علماء الغصر وفقهاء الشريعة.

أما إظهار الأذنين، فقول النبي ﷺ: «**الأُذُنَانِ مِنَ الرَّأْسِ**»[1]، يعني: في الوضوء، ولا يعتبر حجاب المرأة الذي يكون في رأسها، ولا يكون في وجهها في مثل هذه البلاد عند بعض الأخوات، لا يكون إظهار الأذنين في مثل هذه الحالة من الرأس؛ لأن المقصود من قوله ﷺ: «**الأُذُنَانِ مِنَ الرَّأْسِ**» يعني: أن الأذنين تتبع الرأس في المسح، ولا تتبع الوجه في الغسل.

أما في أمر الحجاب، فإذا احتاجت المرأة إلى كشف أذنيها في مثل هذه الحالة، فإنه لا حرج عليها، مع أن الأصل في ذلك أن تغطي ما جرت العدة بتغطيته عندهن.

الحقيقة هناك عدد من الأسئلة حول الصلاة بالنسبة لأبناء المسلمين، أو الجيل الثاني، أو الثالث من أبناء المسلمين، هذا أحد الأسئلة:

السؤال (٤): من امرأة تقول: أن ابنها تجاوز السادسة عشرة من عمره، وبدأت في نصيحته بالصلاة، ولكنه امتنع، ويقول: إنه غير مقتنع بهذه الصلاة، فتسأل هل تتركه لحاله، أم ترغمه على الصلاة؟

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٤)، والترمذي (٣٧)، وابن ماجه (٤٤٤)، وأحمد (٣٦/ ٦١٣).

الجواب: النبي ﷺ أمر الوالد والوالدة أن يأمر الابن أو البنت بالصلاة لسبع، قال: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١)، وهذا لأجل التعويد أن يتعود؛ لأن الطفل الصغير إذا ألف الصلاة فإنه يعتاد عليها، فتكون سهلة عليه إذا راهق، وإذا قرب من البلوغ.

أما إذا صار في وقت فورة النفس والمراهقة، الآن بدأ يأمر بالصلاة، فإنه قد ينفر من ذلك؛ لأجل أن الطبيعة لا تقبل الانقياد في ذلك السن، وقل من يحافظ على الصلاة إذا أمر بها في سن أربعة عشر، خمسة عشر، وهو ليس في صحبة خيرة، ومع أناس ملتزمين.

لهذا والذي ينبغي أن نهتدي بهدي النبي ﷺ في أن الوالد والوالدة يحضان على أداء الصلاة الابن أو البنت، الصغير والصغيرة من بداية سبع سنوات، وهذا إذا تعود عليه بعد خمس سنوات، وصل سن اثنا عشر، ثلاث عشر، وهو يصلي كل يوم خمس صلوات، يصير جزء من جسمه، فيكون أرشد الابن والبنت إلى ما فيه فلاحه ونجاحه.

في مثل هذه الحالة التي سألت السائلة، هذه ينبغي عليها أن تصبر، وأن ترشد، والله ﷻ يعين الصابرين، تبين له بطرق مختلفة، وبوسائل مختلفة؛ بالترغيب، بالذكر، بسماع الأشرطة النافعة؛ لأن تارة الصلاة تكون ثقيلة، لكن إذا جاء النور إلى القلب، سهلت الصلاة؛ فإذًا: ابذل أسباب النور، حتى تسهل الصلاة؛ ولهذا ينبغي عليها أن تبذل أسباب النور الأخرى، بعض

---

(١) أخرجه: أبو داود (٤٩٥) واحمد (٢/ ١٨٠) من حديث عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الآباء والأمهات إذا دخل الابن أو البنت الصلاة، هو لا يشعر بما يشعر به والده من الواجب، واجب الصلاة، لا يشعر بلذة الصلاة، لا يشعر بأنه لابد أن يصلي، وأنها نجاته، يحس بأن الأب أو الأم يريدان أن يفرضا عليه شيئًا، وهو لا يريده، وهو لا يشعر بالشعور الإيماني، كيف تحتال عليه؟ والحيلة هنا مطلوبة شرعًا، تحتال عليه بأن تدخل له نور الإيمان بوسائل أخرى، يمكن أن تنفع - إن شاء الله -، ولكل حالة مقال.

السؤال (٥): أخ يسأل عن قوله: «مستبصرين»، يقول هل تعني يمتلكون آلات العلم وأدواته التي تدل على رقي فكري، بدليل أن عادًا بنوا أرمَ التي لم يخلق مثلها في البلاد، ونحتت ثمود الجبال بيوتًا، ولكنهم لم يكونوا متبصرين مبصرين، فهم يملكون ما ينتظر أن يوصلهم إلى الحق الذي هو نتاج الفطرة السليمة، ولكنهم عطلوا ذلك عنادًا وكفرًا واستسلامًا لتزيين الشياطين أعاذنا الله منها؟

الجواب: كلمة مستبصرين، استبصر هذه استفعل، والأصل في اللغة العربية أن استفعل تكون لطلب الفعل، استسقى يعني: طلب السقيا، استعان يعني: طلب العون، استغاث يعني: طلب الغوث، ونحو ذلك، ولكن هذه ليست قاعدة.

فقد يأتي استفعل للدلالة على تمكن المصدر، يعني: تمكن الحدث، تمكن الوصف المستكن في الفعل، واستبصر منها، كانوا مستبصرين لا يعني: كانوا يطلبون البصيرة، بل يعني: كانوا مبصرين البصيرة القلبية العظيمة، فاستبصر هنا مستبصرين، يعني: كانت البصيرة عندهم قوية وقوية

وعظيمة، دل عليها استفعل هذه استبصر، مثال آخر يبينها لكم أكثر: قول الله ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، استغنى ما معناها؟ يعني: طلب الغنى؟ حاش وكلا، إن الله هو الغني الحميد، لكن استغنى أن الله ﷻ موصوف بالغنى عن خلقه وصفًا عظيمًا، فهو في غناه مستغني الغنى العظيم الذي لا يمكن أن يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، ولا في فرد من الأفراد؛ فإذًا: استغنى هنا، يعني: أن وصف الغنى لله ﷻ صار متمكنًا وعظيمًا وقويًا أعظم من كلمة غنيًا، قل: فلان غني، هذا درجة، لكن الأرفع منها فلان مستغني، مستغني يعني: ليس له حاجة ألبتة؛ فإذًا: كلمة مستبصرين، يعني: كانت بصيرتهم قوية، كانت بصيرتهم عظيمة، وهذه البصيرة بوسائل العلم المتاح في وقتهم، ووسائل العلم تارة تكون من الوحي، وتارة تكون من النظر والتفكر، وما عندهم مثل ما ذكر السائل، وأظن المعنى يشمل هذا وذاك.

السؤال (٦): سائل يسأل يقول: هل يصح القول أن الواجب هو الاشتغال بالقضايا المعاصرة، وأن الاشتغال بالدعوة إلى التوحيد - مع مراعاة التدرج - يتعارض مع القضايا المعاصرة، كرد شبهات الإلحاد وكيد أعداء الإسلام؟

الجواب: الواجب هو أن نأخذ الشريعة بكاملها، وأن لا نفرق بين حكم وحكم في كتاب الله ﷻ، هذا هو الواجب؛ لأن الكل من عند الله ﷻ، والكل يجب علينا أن نؤمن به، وأن نطبقه، وهذا هو منهج النبوة في أننا نجاهد بالقرآن، ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن، فنأخذ القرآن، ولا نفرق بين آية وآية، ولا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض.

ومن الناس من يكون له تخصص في رد شبهات الملحدين أو الشبهات المادية، أو أن يكون عنايته الإسلامية بجانب معين، ومن الناس من يكون تخصصه وقوته في بيان العقيدة للناس والتوحيد، ورد الشرك بالله ﷻ وبيان حق الله ﷻ، وهذا جاء في القرآن، بل كل القرآن جاء في توحيد الله ﷻ بصورة أو بأخرى، من الناس من يدعو إلى العبادات، يفتي في الفقهيات، متخصص في الفتوى؛ في الصلاة، في الزكاة، في المعاملات، في البيع، في الشراء، من الناس من هو متخصص في القضاء، يفتي في القضاء، يحكم في القضاء، ويفصل في الخصومات. . . إلى آخره.

شريعة الله ﷻ مجموع هذا؛ ولهذا نقول: الدعاة يجب عليهم أن يؤمنوا أن الشريعة كاملة، فمن دعا إلى التوحيد، فهو على صواب وحق، وجزاه الله خيرًا، بل هذا هو أصل الأصول، الدعوة إلى توحيد الله والعقيدة الصحيحة لأنه إذا صلح التوحيد، وتخلص القلب من الشرك، ومن الأغيار، ومن رؤية غير الله ﷻ، ومن التعلق بغير الله ﷻ، فإنه يعظم المقام، النبي ﷺ علم ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات؛ إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»، هذا تعليم الطفل التوحيد، تعليم العقيدة الصحيحة مطلوب، وهو الركن الأعظم في الشريعة؛ لأنه هو معنى الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله.

الناس يحتاجون إلى من يبين أحكام الصلوات، هذا يؤدي واجبًا، ويحتاجون من يرد على الخصوم، ويحتاجون من يرد على شبهات أهل الكتاب، ومن يجاهد في ذلك، فكل في مجاله يجاهد، فالواجب علينا التعاون فيما يصلحنا، وأن نكون ممتثلين لشرع الله ﷻ؛ أما أن يأتي آت

ويقول: نحن في زمن مادي، ما نحتاج لدعوة التوحيد. هذا يرد على القرآن؛ لأن القرآن والنبي ﷺ وهدي السلف الصالح على هذا، وإنما أوتي من قصوره، أنه يريد أن يأخذ بعض الإسلام، ولا يأخذ البعض الآخر؛ ولهذا يجب علينا أن نهتم بأصل الأصول، ونهتم بجميع فروع الشريعة، وأن كل واحد منا لديه قوة في أن ينصر الإسلام في جانب من الجوانب العلمية أو الفكرية، أو البذل في الإعطاء وفي الإغاثة، في أي جانب من الجوانب فإنه يبذل، وجزاه الله خيرًا، وقد قال نبينا ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وهذا هو الواجب علينا أن نأخذ الإسلام كلًّا، وأن لا نفرق بين أحكام الله ﷻ العقدية والتشريعية.

هناك العديد من الأسئلة حول موضوع العقيدة، نختار بعضًا منها، منها هذا السؤال:

السؤال (٧): ما أنواع الشرك؟ وهل يعذر المرء بالجهل إذا مات وكان عنده خلل في العقيدة، بمعنى: كان لديه بعض الأمور الشركية؟

الجواب: الشرك معناه حسب التعريف الاصطلاحي: هو اتخاذ الند مع الله ﷻ، أو بمعنى آخر: أن يشرك العبد مخلوقًا في عبادته مع الله ﷻ، أو هو دعوة غير الله معه، يعني: أن الشرك أن تتوجه بشيء من أنواع العبادة لغير الله ﷻ، تتوجه بالدعاء تدعو وليًا، تدعو ميتًا، تسأله وترجوه ويتعلق قلبك به، النبي يقول: «**إذا سألت فاسأل الله**»، هذه حجة معك تختلط بالقلوب، الله ﷻ في القرآن يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، الولي أحد، أم ليس بأحد؟ هو أحد، يدخل - أيضًا - في هذا العموم.

والشرك منه أكبر ومنه أصغر، الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، وكالحلف بغير الله ﷻ، وتعليق التمائم، ونحو ذلك، هذه مهمة في أن يتخلص المرء من الشرك كبيره وصغيره.

ولهذا الذي ينبغي على العبد أن يتعلم، ما رأيكم في إبراهيم الخليل عليه السلام؟ أَمِثْلُه يخاف أن يعبد غير الله ﷻ؟ هو خليل الله، هل خليل الله الذي أكرمه الله بالرسالة وبالخلة يخاف أن يعبد غير الله ﷻ؟ لنتصور أنه ما يخاف، ولكنه عليه السلام كان خائفًا؛ لهذا قال في دعائه المخلص المخبت لله ﷻ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم: ٣٥]، قال - في سورة العنكبوت، وهذه ما عرضت لها قصة إبراهيم عليه السلام مع طولها -: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، الأوثان أعم من الأصنام، الصنم: الذي هو صورة مصورة على صورة كوكب، كان بعضهم يعبد الكواكب أو صورة عبد صالح، مثل: اللات، والعزى، اللات: عبد صالح كان يلت السويق، فلما مات عكفوا على قبره؛ أما الأوثان: هي كل ما عبد مما له صورة أو ليس له صورة.

فإذًا، إبراهيم عليه السلام كان يخاف، قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، إذا خفنا مثل ما قال إبراهيم التيمي من سادات التابعين الذين يفسرون القرآن، لما أتى إلى هذه الآية، اضطرب وقال: يا رب، من يأمن البلاء بعد إبراهيم.

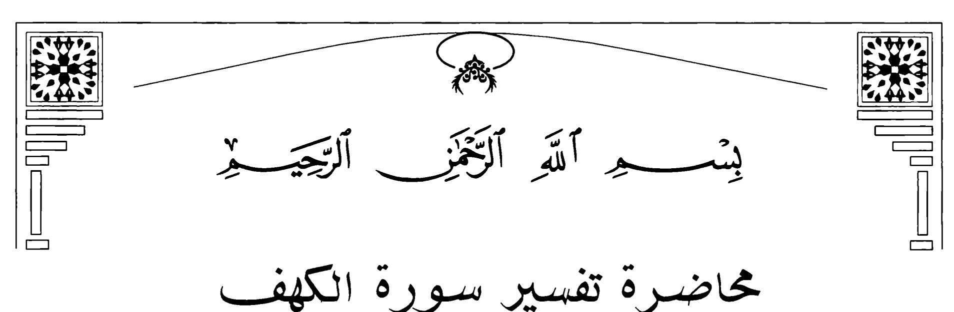
إذا كان إبراهيم عليه السلام، وهو المضمون ألا يزيغ قلبه، قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، خائف أن يعبد الأصنام، خائف أن يضل، فكيف نحن! قال: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم.

إذا خفت من شيء هربت منه، كيف تهرب من الشرك؟ بالتعلم، لابد أن تتعلم التوحيد، تتعلم ضده حتى تعرف، أعظم ما يتميز به الإنسان أن يكون موحدًا لله ﷻ.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين، اللهم انفعنا بما علمتنا، واجعله حجة لنا لا علينا، اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

اللهم تقبل صيامنا وقيامنا، اللهم إنا نسألك الاستقامة حتى نلقاك، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.





محاضرة تفسير سورة الكهف

بمسجد خادم الحرمين الشريفين ببريدة ١٤٢٤/٢/٢١هـ

الحمد لله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني، وإياكم ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث هي عنوان السعادة، وأسأله ﷻ أن يجعلني، وإياكم ممن حمل القرآن تلاوة، وتدبرًا؛ امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، فوصف الله ﷻ كتابه بأنه مبارك، ووصفه بالمبارك يعني: كثير الخير لمن أقبل عليه، والخير كله في القرآن، خير الدنيا، وخير الآخرة، فخير الدنيا لمن آمن به، وعمل بما فيه، وخير الآخرة لمن آمن به، وعمل بما فيه، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، في الدنيا، ولا في الآخرة.

ووصف الله ﷻ كتابه بالبركة؛ لأن الناس يحتاجون إلى الخير الدائم

الكثير في تقلبات حياتهم، ومهما امتد زمانهم، وتنوعت بلدانهم؛ لأن الخير كله في القرآن أمرًا به، وحرصًا عليه؛ ولأن التحذير من الشر نصًا، أو استنباطًا بالقرآن العظيم - أيضًا - لمن أراده، وأقبل عليه، وإنزال القرآن لعلتين ذكرهما الله ﷻ في هذه الآية: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه هي الأولى، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فتدبر القرآن مطلوب، ولم ينزل الله ﷻ القرآن ليتخذ أماني، أي: قراءة، وتلاوات دون عمل به، بل الذي يقرأ القرآن، ولا يعمل به، القرآن حجة عليه، وليس بحجة له، وأما التذكر، فهو فرع التدبر، فمن تدبر حقًا، فإنه سيتذكر، وقد قال الحسن البصري رحمه الله مبينًا كيف يكون صلاح القلوب بهذا القرآن، وبالعقيدة عمومًا، وبتدبر، وتأمل فضل الله ﷻ على عباده، قال: **«عَامَلْنَا الْقُلُوبَ بِالتَّفَكُّرِ، فَأَوْرَثَهَا التَّذَكُّرَ، فَرَجَعْنَا بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَحَرَكْنَا الْقُلُوبَ بِهِمَا، فَإِذَا الْقُلُوبَ لَهَا أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ»**(١).

وهذه كلمة جليلة، وحسنة من الحسن البصري رحمه الله، وهو من أجلة علماء التابعين، قال: **«عَامَلْنَا الْقُلُوبَ بِالتَّفَكُّرِ»**، أي: أن إصلاح القلب يكون بالتفكر فيما أمر الله ﷻ بالتفكر فيه، وبالتدبر فيه، **«فَأَوْرَثَهَا التَّذَكُّرَ»**؛ لأن التفكر، والتدبر الصحيح يورث التذكر، تذكر الله ﷻ، وتذكر الآخر، وتذكر حق نبيه ﷺ، تذكر واجب المؤمن في هذه الحياة، قال بعد أن أورث قلبه التذكر: **«فَرَجَعْنَا بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ»**، يعني: مرة أخرى لما تذكر رجع

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى(١٢/ ٤٠٤)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٥١٧)، والاستقامة (١/ ٢١٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ومدارج السالكين(١/ ٤٤١)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٢١٣) لابن القيم رحمه الله.

متفكرًا مبتدئًا بتفكر، وتدبر جديد، فسيكون تذكره غير الأول؛ لأنه زاد تدبره بما أيقن الله به قلبه، قال: «**وَحَرَكْنَا الْقُلُوبَ بِهِمَا، فَإِذَا الْقُلُوبَ لَهَا أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ**».

إذًا: القلب ليس هو بالقلب الأول، وإذًا: العقل ليس هو بالعقل الأول، بل هناك سمع، وهناك بصر، سمع للقلب لما ينفع، وفيما ينفع، وبصيرة للقلب فيما ينفع، وتدبر القرآن العظيم يورث التذكر، ويورث صلاح القلب، وصلاح العباد، ولهذا أمر الله به في غير آية، قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال -أيضًا-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

قال جمع من علماء السلف: «**مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ عَلَى قَلْبِهِ قُفْلًا مَنَعَهُ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ**»[١].

وتفسير سورة «الكهف» مهم، والتدبر في هذه السورة، والتفكر مطلوب، كالتدبر، والتفكر، والعلم بتفسير كتاب الله ﷻ؛ لأن العلم بالتفسير من التدبر لكتاب الله ﷻ، وتفسير القرآن عظيم الأثر، فالعلوم كلها في كتاب الله ﷻ، والسنة مبينة للقرآن، وشارحة له.

وسورة «الكهف» جاءت أحاديث كثيرة مرفوعة، وآثار موقوفة تدل على

---

(١) كما جاء عن الإمام القرطبي رحمه الله قوله: (**مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ صَارَ كَالْأَعْمَى الْأَصَمِّ، فَهُوَ يُنَادَى مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ فَيَنْقَطِعُ صَوْتُ الْمُنَادِي عَنْهُ وَهُوَ لَمْ يَسْمَعْ**). انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٠).

أن لهذه السورة فضلًا في تلاوتها في يوم الجمعة، كقوله ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَومَ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِن النُّورِ مَا بَينَ الْجُمُعَتَيْنِ»**(١)، وفي هذا المعنى عدة أحاديث، وآثارها، ومجموعها يدل على أنها حسنة، أو صحيحة، وثبت في صحيح مسلم، وفي غيره أن النبي ﷺ حث على تعلم أول هذه السورة، وعلى تعلم آخرها، فقال ﷺ: **«مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْف، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»**(٢)، وفي لفظ: **«مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»**(٣).

وبسط تفسير السورة بتناول آياتها يطول به المقام؛ ولهذا أسلك في تفسيرها، وبيان ما اشتملت عليه مسلك كثير من العلماء، إذا أراد اختصار التفسير بذكر مقصد السورة، وبذكر موضوعها، كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير سورة «البقرة»، وفي تفسير سورة «المائدة»، وفي تفسير سورة «سبح اسم ربك الأعلى»، وفي تفسير سورة «الإخلاص»، وغير ذلك من السور، وكما فعل ذلك عدد من أهل العلم في هذا الصدد، وهو الذي يسميه عدد من العلماء المتأخرين: التفسير بموضوع السورة، أو بما اشتملت عليه السورة من مقاصد، أو موضوعات.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٩)، والبيهقي في الدعوات الكبير (٢/ ١٣٣)، وفي السنن الصغير (١/ ٢٣٣، ٣٤٢)، وقال الحاكم: (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧) (٨٠٩).

(٣) **أخرجه أحمد (٤٥/ ٥٠٩)، وأخرجه مسلم (٨٠٩)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٥، ١٠٧٨٤، ١٠٧٨٥، ١٠٧٨٦)، وفي عمل اليوم والليلة (٩٤٩)، وابن حبان (٧٨٦)، والترمذي (٢٨٨٦)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٣٢).**

سورة «الكهف» ذكر الله ﷻ في أولها: أنه جعل ما على الأرض زينة لها، قال ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: ٧، ٨]، فكل ما على الأرض جعله الله زينة لها؛ لأجل الابتلاء، ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾، والابتلاء هو موضوع هذه السورة، والناس حياتهم كلها ابتلاء؛ كما ثبت في صحيح مسلم من حديث عِيَاضِ بن حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «**إنما بَعَثْتُكَ**» يعني: يا محمد، «**لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»(١)، والابتلاء يكون بالخير، وبالشر، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والنجاة من الابتلاء هو النجاح، والسعادة في هذه الحياة، ولهذا في هذه السورة مواضع من ابتلاء الله ﷻ لعباده، وهذه السورة عدة مواضع فيها قصص لمن سلف، فقصة أصحاب الكهف قصة فيها العبرة العظيمة، وأصحاب الجنتين ذكرهم الله ﷻ؛ لما في ذلك من ابتلاء صاحب الجنتين، وابتلاء رفيقه، والحياة كذلك ابتلاء، وخلق آدم ابتلاء، وقصة موسى مع الخضر ابتلاء، وقصده ذي القرنين ابتلاء.

ففي السورة أنواع من القصص لخلق من خلق الله مختلفين، ابتلاهم الله ﷻ، ولا ينفك أحد منا من أن يكون من صنف من هذه الأصناف، إما أصلًا، وإما فرعًا، وتبعًا.

أما أصحاب الكهف، فوصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وهؤلاء الفتية كانوا قليلين، قال ﷻ:

(١) أخرجه مسلم (٦٣) (٢٨٦٥).

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**أَنَا مِنْ أُولَئِكَ الْقَلِيلِ الَّذِينَ اسْتَثْنَى اللَّهُ، كَانُوا سَبْعَةً، وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**»(١)، وعلى أي فقد كانوا فتية قليلين في العدد، لكنهم عظم شأنهم عند الله ﷻ، وكانت قصتهم، وحكايتهم عبرة لكل موحد، ومؤمن إلى قيام الساعة، قال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، والإيمان بالله هو: توحيده ﷻ، فإن هؤلاء الفتية لم يكن إيمانهم بالله في مخالفتهم لقومهم في أمور من أمور الشهوات فقط، ولا في أمور من أمور الملهيات فقط، ولا في أمور عامة في الاستقامة فحسب، ولكن كان إيمانهم بربهم، وزيادتهم هدى في أعظم أمر، وأعظم أصل، ألا وهو توحيد الله ﷻ لأنهم اعتزلوا، وتركوا عبادة غير الله ﷻ، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]، وهؤلاء الفتية كانوا قلة، والقلة قد تغلب أمام الكثرة الكاثرة، وقد ينصرف القلب مع الكثرة؛ لأن ما يحمله ليس على الحق، فأكثر الناس يغترون بالكثرة، ولا ينظرون إلى الحق من حيث هو، ولكن ينظرون إلى السواد، وإلى الكثرة، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن، والسنة، فالحق يعتبر بنفسه، وقد يكون مع الحق الكثرة، وقد يكون مع الحق القلة.

فهذا نوح عليه السلام، وما آمن معه إلا قليل، وأنبياء الله كان من يتبعهم قليلين، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢١٩)، والبغوي (٢/ ١٨٦)، وابن كثير (٥/ ١٤٨).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (يعني: إلا شبابًا قليلين)[(١)].

فالعبرة إذًا بالحق، ليست هي الكثرة، والكثرة، والنظر إليها ابتلاء، وأن يكون المرء ينظر إلى القلة في العدد، وأنه مع من معه في عدد قليل، وينظر إلى الأكثرين يخالف هذا الأصل الذي دل عليه كتاب الله، ودلت عليه سنة رسوله ﷺ، فقد يبتلى بذلك، فيصرفه واقع الكثرة عن الإيمان بالحق الذي كان عليه أمثال هؤلاء الذي هو: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ ولهذا جعل الله ﷻ عبرة في أولها في دعوتهم للتوحيد، وحتى لما بعثهم الله ﷻ، ثم أماتهم، كان أمرهم عبرة في توحيد الله ﷻ، ومنابذة الشرك، وأهله، فابتلاهم الله، فنجحوا في الابتلاء، فاعتزلوا، ونسبوا إلى الكهف، وصاروا أصحابًا له، ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: ٩]، والأصحاب: جمع صاحب، والصاحب في اللغة يطلق على من لازم ملازمة طويلة[(٢)]، فنسبوا إلى الكهف أصحابًا له؛ لأنهم لازموه ملازمة طويلة خارجة عن المعتاد، ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، لما بعثهم الله ﷻ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، لما بعثوا كان ركودهم في الكهف هذه المدة الطويلة كرامة من كرامات الله ﷻ لهم، والناس يبتلون بوجود الصالحين فيهم، هل يسلكون مع الصالحين مسلك الأنبياء في ذلك، أم أنهم يغالون في الصالحين، ويسيرون خلف الهوى في ذلك على خلاف سنة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٧)، والطبري (١٢/ ٢٤٦)، والبغوي (٢/ ٣٤٣).

(٢) انظر مادة «صحب»: مقاييس اللغة (٣/ ٣٣٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١١)، وتاج العروس (٣/ ١٨٥)، ولسان العرب (١/ ٥١٩).

الأنبياء، وخاصة سنة محمد ﷺ، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ﴾ لكن لماذا حصل ذلك؟ ثم ذهبوا إلى المدينة، ثم رجعوا، والناس معهم، ثم ماتوا، وعثر عليهم الناس أمواتًا بعد ذلك، قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: جعلنا الناس يعثرون عليهم، لماذا؟ هل ليعظم صاحب الكرامة فتنة، وابتلاء؟ هل ليعبد من دون الله فتنة، وابتلاء؟

قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١]، هذه هي العلة، والنجاة في الابتلاء لمثل هذا أنه ينظر إلى المقصود من ذلك، وهو أن الله أعثر عليهم؛ ليعلموا أن وعد الله حق، وأن لقائه حق، وأن نومتهم هذه الطويلة في مئات السنين؛ لتدل على أن البعث حاصل لا محالة، فالذي حفظهم هذه المدة الطويلة، ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ﴾ [الكهف: ١٨]، تكفل الله ﷻ بهم؛ ليبقوا على الحياة هذه المدة الطويلة، ويقلبون، ولا يغمضون أعينهم؛ ليبقوا أحياء، لماذا؟ ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾، لكن الناس أمام هؤلاء الصالحين، ومن أعطوا هذه الكرامة، هل نجحوا في الابتلاء؟ لا، لم ينجحوا في الابتلاء.

قال الله ﷻ في شأن الناس: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، وهذا فيه ذم لهم؛ لأنهم انصرفوا عما جعل الله ﷻ هذه القصة له، وعلى الإعثار عليهم؛ ليعلموا أن وعد الله حق، وأن الساعة لا ريب فيها، انصرفوا إلى تعظيمهم بما لم يشرع الله، وإلى الاعتقاد فيهم، ﴿قَالَ

﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وبناء المساجد على القبور، وعلى الأموات محرم في شرائع الله؛ ولهذا تنظر إلى الذين غلبوا على أمرهم، قال قائل من العلماء: هم أهل الشرك في زمنهم. وقال آخرون: هم أهل الرئاسة، والكبراء في وقتهم، وهذا هو الذي رجحه عدد من المحققين[١]، لكن لم ينجحوا في ذلك، فالابتلاء عظيم، ولم ينظروا إلى أن هؤلاء الصالحين الفتية يقتدى بهم في أنهم وحدوا الله ﷻ حق توحيده، واعتزلوا المشركين، ونابذوهم، فأكرمهم الله ﷻ بهذه الكرامة لهم لا لغيرهم، ولكن هؤلاء جعلوا على قبورهم مسجدًا، وهذا ذم لهم فيما فعلوه، وقد قال ﷺ: **«لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**[٢]، وقال ﷺ -أيضًا-: **«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**[٣].

الموضوع الثاني الذي له صلة بموضوع السورة:

وكل السورة تدور حول الابتلاء، وكيف ينجح الإنسان، وكيف يتجاوز هذا الابتلاء على وفق أمر الله ﷻ، أما الثاني، فهو في قوله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، الإنسان يبتلى في الحياة بأن يكون نظره دائمًا إلى ذوي الثراء، وذوي الوجاهة، وذوي الرئاسة، وذوي الغنى، والجاه، والسمعة،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢١٦)، وزاد المسير (٣/ ٧٤)، وابن كثير (٥/ ١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٨٥).

فيحرص على أن يكون معهم دون نظر في أنه، هل تكون معيتهم في نصرة الدين، أو في تقوية الحق، أو في غير ذلك؛ ولهذا قال ﷻ مبينًا كيف النجاة من هذا الابتلاء لنبيه ﷺ، وهو أكرم الخلق، وأعظم البشر، قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، أي: أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا يحرص على ما ينفعه في آخرته، وما ينفعه في آخرته منه: أن يصحب الأخيار، أن يصحب من يريد وجه الله، والدار الآخرة، ويعينه على الحق، والهدى، قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإن الإنسان قد يعتريه ابتلاء بأن ينظر إلى زينة الحياة الدنيا، وما جعله الله فيها من زينة زائفة من مال، أو من نساء، أو من شهوات، أو من ملهيات، أو من قضاء أوقات فيما لا ينفع، وهذا لهو، وزينة، ولكن الإنسان ينظر إلى أن نجاحه في قوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ثم -أيضًا-: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، فإن نجاحك في الابتلاء في هذه الحياة أن تحرص على ما ينفعك، والناس في الانتفاع يختلفون بحسب ما يصلحهم، وكل حسب نفسه، فالمخالطة ابتلاء، اتصال الناس بعضهم ببعض ابتلاء، والمؤمن ليس له أن يعتزل مطلقًا؛ كما في جاء في كتاب: «الأدب المفرد» للحافظ البخاري رحمه الله: أن النبي ﷺ قال: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، ويصبرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لا يخالط النَّاسَ، وَلَايَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»(١). فالمخالطة ابتلاء،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٩/ ٦٤)، والطيالسي (٣/ ٣٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٠٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٣) وابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فإذا خالطتهم بما ينفعهم، وما ينفعك في دينك، فهذا نجاح في هذا الابتلاء، وتذكر قول الله ﷻ في أول السورة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، فكل ما على الأرض زينة، وهذه الزينة؛ للابتلاء.

فإذًا: تنبه بأن كل ما تخالط للابتلاء، فهل تنجح في هذا الابتلاء، أو لا تنجح؟ سنة محمد ﷺ، وهديه هو المخرج في هذا كله.

أما الموضوع الثالث، فهو في قوله ﷻ: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، والموضع هنا: أن الله ﷻ قدم البصر على السمع، وجل أو أكثر ما في القرآن هو تقديم السمع على البصر، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الإنسان، ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، وهكذا في آيات كثيرة، بل جُل الآيات ما عدا هذه الآية، وآية في سورة «السجدة»[(١)].

كل الآيات تقدم فيها السمع على البصر، يظهر -والله أعلم- أن تقديم البصر في هذه الآية على السمع؛ لأجل أن الابتلاء بالمبصرات، والفتنة بها أكثر من الابتلاء بالمسموعات؛ لأن البصر يشمل كل شيء، فكل ما على الأرض من زينة يحسه الإنسان ببصره، وأقله يحسه بسمعه؛ ولهذا الفتنة، والابتلاء بالبصر أعظم، فقدم؛ لمناسبة موضوع السورة -والله أعلم بذلك-

---

(١) وهي قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السجدة: ١٢].

وأما قصة صاحب الجنتين مع رفيقه، فهي قصة عجب، وهي ابتلاء عظيم، قال الله ﷻ: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢]، وفي هذه الآية عدة أمور:

الأول: أن الله ﷻ جعل العبرة في هذه القصة بحال الرجلين جميعًا، أما أحدهما، فكان في الابتلاء غير ناجح، بل كان هالكًا فيما ابتلي فيه، وأما الآخر، فنجح فيما ابتلاه الله ﷻ فيه، ثم تأمل قوله في بيان هذه القصة، وما فيها: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا﴾، من الذي جعل؟ الله ﷻ، ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾ من الذي حفهما؟ الله ﷻ، ﴿بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾، ثم قال: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وصاحب تلك الجنتين يظن أنه هو الذي جعل، وهو الذي حف، وهو الذي فجر بجهده، وفعله، والله ﷻ يبين أنه سبحانه وتعالى هو الذي فعل ذلك بما أقدر عليه عبده، وبما يسره له من أسباب، فالمنّة لله ﷻ وحده، وهذا إيذانًا من أول القصة بما يحصل به النجاح في الابتلاء، بما يعطي الله ﷻ عباده من أموال، فهذه القصة فيها ذكر ابتلاء الله لنوعين من الناس:

النوع الأول: أصحاب الأموال، والثروات، والمزارع.

النوع الثاني: من يراهم من الناس، ومن ينظر إليهم في ذلك.

فكيف ينجح هذا في الابتلاء، وكيف ينجح هذا في الابتلاء، القصة واضحة في ذلك.

أما صاحب الجنتين، فإنه اغتر بنفسه، وبقوته، وبما عنده، وظن أنه هو الذي فعل ذلك، فكفر بالله ﷻ، وأشرك، قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ

لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥﴾ [الكهف: ٣٥]، هذا اغترار بقوته، واغترار بفعله، ثم كفر بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، شك في قيام الساعة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦]، يظن أن الله ﷻ لما أعطاه المال، فإنه إيذان، وإعلان بأن الله يحبه، وهذا الميزان هو ميزان المفتونين؛ لأن الله يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، ولكن لا يعطي التقوى، والصلاح، والطاعة، والدين إلا من يحبه سبحانه وتعالى[1]، ففشل في هذا الابتلاء؛ حيث كفر بالله ﷻ، وأشرك إذ ظن أن ما حصل له هو بمحض قوته، وأما صاحبه، فإنه نجح في الابتلاء، فنظر إلى هذا المال، وهذا الذي أعطاه الله ﷻ عبدًا من عبيده، فلم يحسده على ذلك، ولم يتطلب مثله؛ لأنه يعلم أن المال فتنة، وقليل من الناس الذي ينجو فيه، ولكنه نظر إلى صاحبه نظر ناصح له، والنصيحة في هذا المقام استدامة للخير، وليست هي ضد الخير، ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، والحور: حسن لفظه، وحسن تأديته لنصيحته، ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف: ٣٧]، يذكره بأصله، فأصلك كان حقيرًا وضيعًا، من الذي نماه؟ من الذي أعطاك القوة، من الذي أعطاك القدرة حتى عملت، من الذي أعطاك المال؟ هو الله ﷻ كما ذكر في أول هذه الآيات، ثم قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٣٨﴾ [الكهف: ٣٨]، ثم نصحه، فقال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (٦ / ١٨٩) من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ ﷻ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ»**.

جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ينصحه أن يكون معترفًا بالله ﷻ، بأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن ما فيه هو من نعمة إنما هي من الله ﷻ، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]، نصحه، وبين له، ثم قال له: ﴿إِن تَـرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف: ٣٩، ٤٠]، وهذا ليس بالدعاء عليه، ولكنه تحذير له بأن يحذر أن الله ﷻ يرسل عليها ما يرسل، فتصبح صعيدًا زلقًا، لا شيء فيها، فتصبح خاوية على عروشها، وحصل ما توقعه، وحصل ما ظنه، فإن الله ﷻ ابتلى هذا، ففشل، وابتلى ذاك، فنجح، وهذا من الله ﷻ منّة، وتكرم فيما هدى، وعدلًا منه، وحكمة، فمن أضل عذب.

قال ﷻ في آخر الآيات: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ٤٣، ٤٤].

إذًا: هل هناك فئة لأصحاب الثراء، والمال من دون الله؟ لا، ما لهم من دون الله من ولي، الله ﷻ هو الولي، هو المعطي، هو المانع، ولا حول ولا قوة إلا به، لا انتقال من حال إلى حال، ولا قوة، ولا قدرة إلا به، فإذا ظن العبد أن ما معه من مال، أو ما معه من أناس أنه يعصمه من الله، فالدنيا لا تعصم من الله شيئًا، إذا وقع أمر الله، وقع الحق، وبطل ما كانوا يصنعون ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، الوَلاية - بفتح الواو - هي: المحبة، والنصرة، المحبة الحقيقة الباقية الدائمة هي محبة الله ﷻ، أما محبة الدنيا، فإنها زائلة، بل تكون وبالًا على صاحبها، وإذا صدقت محبة العبد لربه، فإن

الله ﷻ يحب من أحب رسوله[(١)]، ويحب من أحبه على نور، وهدى من الله ﷻ، وينصر حينئذٍ من أحبه، واتقاه، ونصره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

أما الموضع الرابع، وكل السورة في هذا المعنى، وفي تكرارها في كل جمعة، والحث عليها بعد تأملكم لهذه العبر، ولهذا التدبر، فإنكم ستجدون السورة تفتح عليكم من المعاني، وحب الله ﷻ، وحب رسوله ﷺ، وخوف لقاء الله، ما يكون معه المؤمن في كل جمعة ينظر إلى الحياة بنظر صحيح، لا بنظر زائف.

القصة التي بعدها: قصة موسى عليه السلام، وهو أحد أولي العزم من الرسل وكليم الله، مع الخضر، والخضر قيل: كان نبيًا، وقيل: ليس بنبي، بل هو ولي، والأكثرون على أنه نبي[(٢)].

موسى عليه السلام كان في قومه؛ كما روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**قَامَ مُوسَى خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ**»، يذكر مما علمه الله ﷻ، «**فَقِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟**، **فقَالَ موسى** عليه السلام: «**أَنَا**»؛ لأنه لا يعلم أن هناك من هو أعلم منه، والله ﷻ يربي العباد؛ ليبلغوا درجات الكامل، وليريهم أنهم لا يتعجلون في أن يقولوا حتى يعلمهم الله ﷻ، فقال له الله ﷻ - كما في

---

(١) لذا جعل الله من علامات محبته اتباع النبي ﷺ، والاقتداء به؛ كما في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٢) للحافظ ابن حجر رحمه الله رسالة في حال الخضر، وقد لخص ذلك في كتابه الإصابة، والرسالة المذكورة مطبوعة ضمن الرسائل المنيرية، وهي جيدة في بابها، وقد خلص الحافظ إلى أن الخضر نبي، وليس بولي.

الصحيح -: «**بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ فإنه أَعْلَمُ مِنْكَ**»، قَالَ: «**أَيْ رَبِّ، كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ؟** قَالَ: «**تَأْخُذُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَاتَّبِعْهُ**»[1]، فحصلت القصة، ونسي الحوت، ثم رجع على عقبه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٥، ٦٦].

وفي هذا عبرة، وعظة، وفيه صلة بأول السورة، فإن العلم يبتلى فيه الناس، ويبتلى به الناس، فإن العالم، ومن عنده علم إذا ظن أنه حصل، وحصل، وأنه لا أحد أعلم منه، فإنه لن ينجح في الابتلاء؛ لأن الله ﷻ لن يجمع العلم كله في هذه الأمة إلا في نبيها ﷺ، فطالب العلم، والعالم يتواضعان للعلم، ويعلمان أنه لا يصح أن يقول أحد أن فلان أعلم أهل الزمان، أو أعلم الخلق، ونحو ذلك؛ لأن ذلك ليس موافقًا لما فيه الأمر، بل يتواضعون للعلم، وكما فعل الصحابة ﵃، يستفيد جلة الصحابة ﵃ من الكبار، ومن الصغار على حد سواء، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ففوق كل صاحب علم هناك من يعلم، ولكن قد يكون العلم في مسألة، وقد يكون العلم في أكثر من مسألة، وهكذا، والهدد نبه سليمان ﵇ وهو نبي الله ﵇ بما لم يكن عنده من علم، قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، فالهدد أحاط بشيء لم يحط به سليمان ﵇؛ ليعلمنا الله ﷻ ما في هذه القصة من العبر العظيمة في شأن العلم، فالعلم في نفسه له طغيان، والاطلاع، والمطالعة، والنظر له طغيان؛ كما قال عبدالله بن المبارك عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢).

وهب بن منبه: «**إِنَّ لِلْعِلْمِ طُغْيَانًا كَطُغْيَانِ الْمَالِ**»[(١)]، يجعله زيادة العلم يجعله يجزم بأن ما عليه هو الصواب، وأن ما عند غيره خطأ محض، وهذا ليس بجيد، فإن العلم دليل، وبرهان، والله ﷻ يعطي علمه من يشاء، فنجاح طالب العلم، والعالم فيما ابتلاه الله ﷻ أن يعمل بما علم، وأن يتواضع للعلم.

وفي قصة موسى عليه السلام عبرة، وعظة، فأتى للخضر بعد أمر الله له: «**بَلَى، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**»، أتى عبد الله الخضر، وسمي خضرًا؛ لكرامة حصلت له، وهو أنه قعد على حشيش أصفر، فلما قام إذ به أخضر، فسمي خضرًا؛ لأجل تلك الكرامة، قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وفيها مع أنه موسى عليه السلام، ولا يعلم شأن الخضر من كل جهة، قال بلسان الأدب الجم الذي هو خلق الأنبياء، والتواضع، واللين، والمعرفة بحق الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يستأذنه، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، قال له الخضر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨]، أي: ستجد أشياء غريبة، ولا يمكن أن تصبر على شيء لا تعلم عنه، قال بعدها: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، فانطلقا، وحصلت القصة، وانظر إلى المواقف بينهما:

ركبا في السفينة، فحدث شيء غريب، فصبر موسى، ثم قُتل الغلام، وهو شيء غريب، ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص١٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٥١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٥٥).

وهذا شيء غريب، ثم بعد ذلك قصة بناء الجدار، وأهل القرية الذين لم يضيفوهم، موسى عليه السلام لم يصبر، مع أنه قال عليه السلام: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، ثم قال في الآخر: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، هذا كأنه فيه تعجب، لم يسأل سؤالًا واضحًا، لماذا؟ لأنه قال في الأول بإنكار: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف: ٧٢]، حتى عبارة الخضر ليس فيها تلميز، ثم لما قُتل الغلام قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، فقال له الخضر لما أغلظ عليه موسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] وفي هذا الموضع فيه زيادة «لك»؛ ليكون في مقابلة شدة سؤال موسى عليه السلام، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، ثم قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ ثم في الآخر قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لم ينكر عليه، بل من باب العرض، قال: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، ثم نبهه.

هذه القصة فيها عبرة عظيمة في ناحية الابتلاء:

أولاً: أن العبد يتواضع مع من هو أعلم منه، فلا يبادر بالإنكار على من هو أعلم منه؛ لأجل أنه لم يدرك حقيقة ما أمامه، أو مخرج المسألة، أو حقيقة الأمر، وكثير من الناس يعترض على العلماء، وهو لا يعرف بعقل جاف، يسلطون العقل على السريع، ويعترض على أشياء، ويأتي على الناس زمان يعجب فيه كل أحد بعقله، وبرأيه؛ كما جاء في الحديث: «**وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي**

رَأْيٍ بِرَأْيِهِ»(١)، وهذا من جهة الذم.

ثانيًا: أن في هذه القصة تذكيرًا بابتلاء عظيم، وهو أنك ترى أن الناس إذا اختلفوا في علومهم، هذا علم ما لم يعلمه الآخر، إذا اعترض عليه، فإنه يخسر العلم؛ لأنه لن يفتح صدر العالم أن يخبره، وفي قصة موسى مع الخضر، الخضر أعلم موسى بما أعلمه؛ وذلك لأنه عند الخضر أشياء ليست عند موسى، إذا كان هذا في حق البشر، ألسنا نرى من أفعال الله ﷻ في خلقه، ومن تدبيره لملكوته ما يحار فيه اللبيب، وما ينظر فيه العاقل، والعالم في شكله، ويسلم إيمانًا بحكمة الله العليا، الخضر بشر عُلم، فأتى بأشياء عجيبة، وموسى نبي مكلف، ولم يدرك هذه الأفعال التي هي بأمر الله ﷻ حتى عُلم، فكيف يعترض البشر، أو يأتي في ذهنه شيء يتصل بقضاء الله ﷻ، وبقدره، وبحكمته الماضية في خلقه، الله ﷻ أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضهم، ملك بعض خلقه، وجعل البقية راعية، فالله ﷻ أمرض، وأصح، أجرى في خلقه، فأعطى، ومنع، بسط الرزق لمن يشاء، وقدر الرزق على من يشاء، قضى الله ﷻ على هذا بالموت، وعلى هذا بطول العمر، العلم في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، والطبراني في الكبير (٥٨٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٩١) عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: «**سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]؟، **فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: بَلِ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنَّ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ، لِلعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ مِثْل عَمَلِكُمْ. قُلْنَا: مِنَّا أَمْ مِنْهُمْ؟، قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»**.

هذه الأمور، وفي أسبابها لا يعلمه البشر، فإذا عارض حكمة الله ﷻ، فإنه يخسر الإيمان المؤدي للعلم الحقيقي بالله ﷻ؛ ولهذا في قصة موسى مع الخضر النظر إلى تفاوت ما بين علم الله ﷻ، وعلم المخلوق، فكيف يعادل المخلوق الضعيف، أو ينظر إلى الفرق، أو ينظر إلى تعليل أفعال الله ﷻ، ويعارض حكمة الله بعقله هو، وبهواه؟! .

وما أحسن قول بعض أهل العلم في ذلك، لما ذكر موضوع تفاوت الناس في العلوم، وعدم إقرار الجاهل للعالم بحقه، أو من هو أقل علمًا لمن هو أعلى علمًا منه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

تَسَلَّ عَنِ الْوِفَاقِ فَرِبُّنَا قَدْ ... حَكَى بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ الْخِصَامَا

كَذَا الْخَضِرُ الْمُكَرَّمُ وَالْوَجِيهُ الْمُكَلَّمُ ... إِذْ أَلَمَّ بِهِ لِمَامَا

تَكَدَّرَ صَفْوُ جَمْعِهِمَا مِرَارًا ... فَعَجَّلَ صَاحِبُ السِّرِ الصَّرَامَا

فَفَارَقَهُ الْكَلِيمُ كَلِيمُ قَلْبٍ ... وَقَدْ ثَنَّا عَلَى الْخَضِرِ الْمَلَامَا

وَمَا سَبَبُ الْخِلَافِ سِوَى اخْتِلَافِ ... الْعُلُومِ هُنَاكَ بَعْضًا أَوْ تَمَامَا

فَكَانَ مِنَ اللَّوَازِمِ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ ... مُخَالِفًا فِيهَا الْأَنَامَا

فَلَا تَجْهَلْ لَهَا قَدْرًا ... وَخُذْهَا شَكُورًا لِلَّذِي يُحْيِي الْأَنَامَا

الملائكة حكى الله ﷻ بينهم المجادلة، والخصام، الشاهد: قوله بعدها: «**تَكَدَّرَ صَفْوُ**» يعني: تكدر الحال، «**فَعَجَّلَ صَاحِبُ السِّرِ**»: الذي هو

---

(١) انظر: الأبيات اللطيفة التي نظمها ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق (١/ ١٩٩).

الخضر، «**الصَّرَامَا**» يعني: الانتهاء من الصلة.

فَفَارَقَهُ الْكَلِيمُ كَلِيمُ قَلْبٍ ... وَقَدْ ثَنَّا عَلَى الْخَضِرِ الْمَلَامَا

وَمَا سَبَبُ الْخِلَافِ سِوَى اخْتِلَافِ ... الْعُلُومِ هُنَاكَ بَعْضًا أَوْ تَمَامَا

فَكَانَ مِنَ اللَّوَازِمِ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ ... مُخَالِفًا فِيهَا الْأَنَامَا

فَلَا تَجْهَلْ لَهَا قَدْرًا ... وَخُذْهَا شَكُورًا لِلَّذِي يُحْيِي الْأَنَامَا

إذا كان سبب الخلاف، وعدم الإدراك اختلاف العلوم، فالله ﷻ بكل شيء عليم، لا تخفى عليه خافية، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم كل شيء، فكيف ناقص العلم من البشر يعترض على قدر الله، وعلى حكمته، وعلى ما يجريه في ملكوته، فلا ينفك إنسان في أن يكون في قلبه شيء من الاعتراض، قل، أو كثر على بعض أقدار الله، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد قال ابن القيم رحمه الله: «**وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَهُ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَتُّبًا عَلَى الْقَدَرِ، وَمَلَامَةً لَهُ، وَاقْتِرَاحًا عَلَيْهِ، خِلَافَ مَا جَرَى بِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ، وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِنْ ذَلِكَ**».

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عظيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا[١]

والله ﷻ يغفر الذنب، ويقيم العدل.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١١).

أما الموضع الأخير، فهو قصة ملك، جعله الله ﷻ ملكًا، وهذه السورة في ذكر أنواع الابتلاء: العلم، المال، من ليس عنده مال، الفتية، الأصحاب، المخالطة، هي أنواع حياة الناس، بقي الابتلاء بالملك، والابتلاء بالسلطان، قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٣ - ٨٥]، لاحظ «**إِنَّا**» هو: الله ﷻ، «**مَكَّنَّا**»، لاحظ التكرار للتأكيد على أن كل شيء أعطيه ذلك الملك، بل وكل ملك هو من الله ﷻ وحده، لا من غيره، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾، ابتلي كيف يسير في رعيته، وكيف يسير فيما أعطاه الله ﷻ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾، هذا هو الابتلاء، ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، هذا باختيارك: عذب، أو اتخذ فيهم حسنًا، وهذا اختبار له، هل يسير في تعذيبه، وفي اتخاذه الحسنى على وفق ما أعطاه الله، أم يسير على وفق هوى نفسه، فقال ﷻ مخبرًا عن قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، وهذا هو النجاح في الابتلاء في هذا الأمر الجلل العظيم، ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ ظلم نفسه بالتعدي على حدود الله ﷻ، أو ظلم العباد بالتعدي على حقوقهم، أو ظلم بالتعدي على أي من الناس ممن له حق، قال: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: عندنا في الدنيا، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، أي: سيحظى منا بالقول الحسن

الجليل، وهذا النجاح في الابتلاء أنه لم يسر على وفق هواه في هذا الأمر الجلل العظيم الذي لا يخلو زمان من ابتلاء الناس به.

ثم مضت القصة في ذلك، فجاءه من بين السدين، قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ طلب، مشى هو في البحر، وأتاه طلب لأمر من الأمور، قالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]، أي: يأجوج، ومأجوج سككهم الإفساد، وأنت ملك صالح نريد أن ترد عنا هذا الإفساد المتوقع، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نعطيك عطاء من عندنا، أو نعطيك ما تريد، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾؛ لأنه عنده قوة، وعنده المال، وعنده الوفرة، فماذا أجاب، هل يحتاج إلى الخلق؟ قال: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾، ما مكني ربي من المال، ومن العتاد، فهذا خير، ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ أي: عليكم الناس الذين يستخدمون تعينوني بذلك، قال: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٥-٩٧]، وهذا ابتلاء ذكره الله، من ابتلي بالمال، فهل يكون متطلعًا لما في أيدي الناس؟ لا، هو يعيطهم؛ لأن ما مكنهم فيه ربه هو خير له.

أما ختام السورة، فهو أعظم ابتلاء، وهو ابتلاء الناس الذين يريدون عمل الصالح، وعمل الأعمال التي تقرب إلى الله.

قال ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، إذا أردت العمل الصالح فيما ذكر، فيما تنجح فيه من الابتلاء،

وبغيره من العبادات التي أمر الله ﷿ بها ترجو لقاء الله، أي: ملاقاة الله ﷿ في الآخرة، فإذا كنت تعلمها، وتتيقنها، وتريد لقاءه، ورؤيته ﷻ، قال: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ اطلب العمل الصالح الذي يشمل كل ما يحبه الله ﷿، ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة، والباطنة، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ لأن الشرك محبط للأعمال، وهذه الآية فيها النهي عن الرياء، وفيها النهي -أيضًا- عن كبير الشرك، وصغيره بأنواعه.

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

فنجاحك في الابتلاء في هذه الحياة في كل ما تعمل من أعمال صالحة، والعبادات، والأذكار، وصلة، وبر، وطلبك للعلم، وإذا وليت على شيء... إلى آخره، فإنما هو بالإخلاص لله ﷻ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، ومفهوم العبادة معناها واسع، وطلب التخلص من الشرك يشمل ذلك كله.

أسأل الله ﷿ أن يجعلني، وإياكم ممن جنبه كل شيء، ووفقه لكل خير، كما أسأله ﷻ أن يجعلنا ممن غفر ذنبه، وأقال عثرته، وممن منحه الصبر على البلاء، والشكر عند العطاء، والاستغفار عند الذنب، إنه ﷻ جواد كريم، كما أسأله أن يغفر لمشايخنا المتقدمين منهم، والمتأخرين، وأن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

يوفق ولاة أمورنا لما فيه رضاه، وأن يجعلنا، وإياهم من المتعاونين على البر، والتقوى، إنه جواد كريم، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊



محاضرة مقاصد ومعاني سورة الكهف

ألقاها فضيلته بمناسبة افتتاح معرض وسائل الدعوة إلى الله (كن داعيًا) في عرعر السادس عشر ١٤٣٤هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، حتى تركها على ملة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك.

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد كلما صلى عليه المصلون، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد كلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وسلم اللهم تسليمًا مزيدًا، أما بعد:

فيا أيها الإخوة في الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإنها لساعة مباركة أن نلتقي في حلقة من حِلق العلم والهدى في هذا الجامع الذي بناه سمو أمير هذه المنطقة، الأمير/ عبدالله بن عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، ودعاني -جزاه الله خيرًا- إلى إلقاء محاضرة فيه بمناسبة افتتاح معرض

وسائل الدعوة إلى الله في عرعر السادس عشر، وأشكر له هذه الدعوة، وهذه الحفاوة والحرص والتعاون الذي كان من جميع الجهات الحكومية والأهلية والناس في إنجاح هذا الموسم الدعوي الذي يفرح بها كل من يحب هذه الدعوة ونشرها في الناس.

أيها الإخوة: موضوع المحاضرة بحسب ما أعلن عنه رأيت أن أتكلم في غير ذلك الموضوع لمناسبة الحاضرين؛ لأن الموضوع المعلن عنه له شبه تخصص، والموضوع العام الذي يناسب الدعوة العامة، ويناسب جملة الحاضرين والمتلقين اليوم رأيت أن يكون في (مقاصد ومعاني سورة الكهف)، وذلك لأن أكثرنا يقرأ سورة (الكهف) كل جمعة، إما حفظًا، وإما تلاوة، وذلك لما ورد في تلاوتها يوم الجمعة، وفي حفظ آيات منها من الترغيب، فقد ثبت في صحيح مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْف، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»[1]، وفي لفظ: «**مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»[2]، وأيضًا جاء عنه ﷺ بإسناد جيد بطرق يشهد بعضها لبعض: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يوم الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ له من النُّورِ ما بين الْجُمُعَتَيْنِ**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧) (٨٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥/ ٥٠٩)، وأخرجه مسلم (٨٠٩)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٥، ١٠٧٨٤، ١٠٧٨٥، ١٠٧٨٦)، وفي عمل اليوم والليلة (٩٤٩)، وابن حبان (٧٨٦)، والترمذي (٢٨٨٦)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٣٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٩)، والبيهقي في الدعوات الكبير (٢/ ١٣٣)، وفي السنن الصغير (١/ ٢٣٣، ٣٤٢)، وقال الحاكم: (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ).

وسورة (الكهف) سورة عظيمة من سور القرآن التي لقراءتها كل جمعة معان كبيرة ومقاصد عظيمة، ومن المقرر عند أهل التخصص في التفسير من أهل العلم أن سور القرآن العظيم لها مقاصد، يعني: لها موضوع أو موضوعات رئيسة تدور عليها الآيات ويتصل بعض الآيات برقاب بعض في إفهام المعنى، والمقصد الذي أراده الله ﷻ من هذه السورة، فقد ذكر أهل العلم كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً أن سورة (البقرة) في حفظ الضروريات الخمس، وأن سورة (المائدة) في العقود، وهكذا في موضوعات شتى، وقد بالغ بعض أهل العلم حتى استنتج من كل سورة مقصد وغاية، فما بين مستقل ومستكثر، فبعضها يظهر المقصد أو المقاصد من السورة وآياتها، وبعضها لا يظهر إلا لذوي التحقيق من أهل العلم.

سورة (الكهف)، قال الله ﷻ في أولها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨]، والذي يظهر للمتأمل من أهل العلم بأن موضوع هذه السورة هو في الابتلاء، حياة الإنسان كلها ابتلاء، ولكن في هذه السورة ذكر الله ﷻ هذا المعنى فيما أورده من قصص وأخبار، فبدأها الله ﷻ بحمده، والثناء عليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢]، فحمد الله ﷻ نفسه، يعني أثنى على نفسه بأنواع الثناء، والحمد هو: الثناء بأنواع المحامد والصفات، والثناء يكون في معانٍ جاءت في الكتاب والسنة:

أولاً: الحمد بإثبات ربوبية الله ﷻ وما له من صفات الكمال في ربوبيته.

ثانيًا: والحمد في ألوهيته ﷻ بما له من استحقاقات عظيمة أن يُعبد وحده لا شريك له، وأن أعظم ظلم أن يُعبد معه في ملكوته أحد.

ثالثًا: الحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بلغ الكمال والنهاية فيما له من الأسماء ودلالاتها، وفيما يتصف به من صفات على الحقيقة، وآثارها في ملكوته.

رابعًا: الحمد والثناء على الله ﷻ فيما أنزله من كتب؛ لأن الكتب هي التشريع، وهي التي تبين الحق من الباطل، وتبين الهدى من الضلال، وتبين للناس طريق الخير، وطريق الشر، وتبصرهم من العمى، وتنقذهم من الضلالة، فله الثناء كل الثناء لإنزاله هذه الكتب، وخاتم هذه الكتب والمهيمن عليها والحاكم عليها هو القرآن العظيم، الذكر الحكيم، النور المبين؛ ولذلك قال هنا في أول هذه السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي الربوبية قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: ١]، وهكذا في موضوعاتها.

الخامس: أنه ﷻ محمود على خلقه، وقدره، وهو ﷻ له تصريف هذا الملك، وله في كل شيء قدر؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وله ﷻ أوامر كونية في ملكوته منها: الإنعام على من شاء أن يُنْعِم عليهم، ومنها: المصائب على من شاء أن يبتليهم... وهكذا، فهو ﷻ محمود على خلقه، وقدره، وكل أنواع تقديره ﷻ يستحق أن يُثنى عليه بها،

وهذا النوع بعضه يستحضره الناس حينما يقولون: الحمد لله، أي: على ما أولاهم به من نعمة، فيحمدون الله ﷻ، ويثنون عليه بما أفاض عليهم من النعم، وهذا ولا شك نوع من أهم موارد الحمد، أما أهل العلم المتبصرون بما يستحقه ﷻ من الأسماء والصفات، وما له ﷻ من النعوت والكمالات، فإنهم يستحضرون من معاني الحمد أكثر من ذلك الذي يستحضره أكثر الخلق، من أن الحمد لا يكون إلا على ما أولوا من النعمة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحمد الله ﷻ في السراء، والضراء، يحمده ﷻ إذا أتته نعمة، وإذا جاءه ما لا يسره حمد الله ﷻ، ويثني على الله ﷻ باستحقاقه للربوبية على خلقه، ويثني على الله ﷻ باستحقاقه للعبادة من خلقه وحده دونما سواه، ويثني عليه ﷻ بأنواع من الثناء.

ومن المهمات أن يستحضر الحامد لله ﷻ هذه الموارد، وإن لم يمكنه ذلك لضيق وعاء القلب عنده، فإنه يستحضر شيئًا فشيئًا منها، حتى يُعود قلبه على الثناء على الله ﷻ بجميع أنواع الثناء عليه سبحانه وتعالى التي يستحقها[١].

فبدأ بأنواع المحامد لله ﷻ على إنزاله الكتاب؛ لأنه أنزل هذا الكتاب لكي يكون لنا نورًا، وليكون لنا برهانًا، ويكون لنا ضياءً في هذه الدنيا،

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَهْوَ الحَمِيدُ فَكُلُّ حَمدٍ وَاقِعٌ ... أو كَانَ مَفرُوضًا مَدَى الأزمَانِ

مَلأ الوُجُودَ جَمِيعَهُ وَنَظِيرَهُ ... مِن غَيرِ مَا عَدٍّ وَلاَ حُسبَانِ

هُوَ أهلُهُ سُبحَانَهُ وَبِحَمدِهِ ... كُلُّ المَحَامِدِ وَصفُ ذِي الإحسَانِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢١٥).

فمن استرشد به رشد، ومن أخذ به هُدي، ومن اتبع هذا القرآن فلا يضل ولا يشقى، وهذا له صلة بموضوع السورة وهو الابتلاء، فكأنه قال ﷻ: إذا أردت النجاة من هذا الابتلاء العظيم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ فهو راجع إلى هذا الكتاب العظيم.

قال ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ فإذا أردت أن تفسر أكثر ما تراه في الحياة من أشياء تأنس لها فتأمل أنها زينة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فكل ما على الأرض جعله الله ﷻ زينة، قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ الابتلاء ما معناه؟ معناه الاختبار: هل يذهب الإنسان إلى هواه، أم يتخلص من هواه ويذعن لمراد الله ﷻ، هذا أعظم ابتلاء في الحياة؛ ولذلك جاء في الحديث وإسناده لا بأس به: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبِعًا لما جِئْت بِهِ**»[1]، الابتلاء: اختبار، وهذه السورة ذكر الله فيها أنواعا من الابتلاء:

* قصة أصحاب الكهف ابتلاء، وسيأتي ذكر بعض المعاني في ذلك.

* قصة الرجلين صاحب الجنتين ومن معه، ابتلاء.

* الحياة وإخراج آدم عليه السلام من الجنة، وابتلائه بالشيطان ابتلاء.

* قصة الخضر مع موسى عليه السلام ابتلاء لموسى عليه السلام.

* قصة ذي القرنين، ابتلاء الملك، ابتلاء الحكم، ابتلاء المسؤولية.

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٨٨)، وقال: «تفرد به نعيم بن حماد»، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨)، وانظر تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (ص٣٨٧، ٣٨٨).

أما أولها فقصة أصحاب الكهف:

قصة أصحاب الكهف قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝﴾ [الكهف: ٩، ١٠]، فتية آمنوا بربهم، قال الله ﷻ: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، حققوا الإيمان من قلوبهم فزادهم الله هدى، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝﴾ [محمد: ١٧]، فالله ﷻ إذا أقبل عليه العبد شبرًا أقبل عليه الله ﷻ ذراعا، كما ثبت في الحديث الصحيح: «**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا...**» إلى آخر الحديث[١]، أصحاب الكهف فتية تيقنوا التوحيد، وتيقنوا أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة وحده، في قومهم رأوا ما يخالف ذلك فآمنوا بالله وحده، فحاصرهم قومهم حتى أدى بهم الأمر إلى أن يحفظوا دينهم بالهجرة، فهاجروا إلى أن كتب الله لهم أن يكونوا في الكهف، فألقى عليهم النوم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا.

ما الابتلاء في قصتهم؟ عدة ابتلاءات- والابتلاء الموجود في قصتهم يتكرر مع كل واحد منا في حياته-:

الابتلاء الأول: أن الناس ليسو عبرة في الكثرة والقلة في معرفة الحق، الحق يُعرف من دليله وبرهانه:

فقد يكون الناس على حق كثير، مثلما كان في عهد النبوة، والخلافة الراشدة، وفي صدر الإسلام، والقرون الثلاثة المفضلة، فقد كان الأكثر

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦).

على حق، فلم تفشُ فيهم الضلالات والفرق، فكان الحق بدليله موجود.

وقد يكون الناس على غير الحق وإن كانوا كثيرين وإن كانوا جماهير؛ لهذا قال ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، على الرغم من أنه واحد[١]، قال الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: (﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك، ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا، كفعل العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خلافا لمن كثر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين). ا.هـ[٢].

معك أمة، إبراهيم أمة، والأنبياء أمة، وكل نبي أمة، ومن معهم من أهل الدين والتوحيد والحق والهدى أمة.

فأصحاب الكهف ابتلوا بمواجهة الكثرة، وكان معهم يقين بدليله وبرهانه أنهم على حق، فاختاروا الحق بدليله وبرهانه.

يغلط بعض الناس في القلة والكثرة:

بعضهم يرى أن الكثرة دائما صواب، والقلة دائما غلط على خلاف الحق.

وبعضهم يرى العكس، يرى أن القلة دائما المبتلاة في دينها على حق،

---

(١) انظر في تفسير الآية: جامع الرسائل لشيخ الإسلام رحمه الله (١/ ٥)، ومفتاح دار السعادة لابن القيم رحمه الله (١/ ١٧٤).

(٢) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب -كتاب فضائل القرآن والتفسير- (٢/ ١٨١).

وأن الكثرة على غلط، فأي قلة مبتلاة في دينها على صواب، وأي كثرة معاندة لهم أو مضادة لهم تكون على غلط، وهذا غير صواب.

الصواب أن القلة والكثرة ليست ميزانا، ابتلى الله الناس بالقلة والكثرة، فمنهم من وقع فريسة الكثرة والجماهير، ومنهم من وقع فريسة القلة، قال: نحن قلة على حق، وهذا ليس صوابا، وذاك ليس صواب، بل الصواب أن الحق يُعرف بدليله، ببرهانه، بمنهجه، بطريقته، وليس اعتبارا بأنهم كثير أو بإنهم قليل، أتى في أزمنة الله ﷻ كثرة على الحق، وقلة على الباطل، في زمن الصحابة ﭫ الخوارج[1] كانوا قلة وكانوا هم الباطل، والصحابة ﭫ كانوا الكثرة وكانوا هم الحق، يأتي في زمن يكون العكس، قال ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[2].

فإذًا الابتلاء الأول: أن لا تضع في ميزانك للصواب كثرة الجماهير أو قلتها، الدليل ما هو، الحق ما هو، منهاج النبوة ما هو، منهاج الصحابة ما هو، منهاج العلماء ما هو، منهاج الأئمة الصالحية ما هو، المنهاج الذي

---

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي ﭬ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِم وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِم يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﭬ، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥).

عليه الأكثر، ولنفرض: واحد منتسب لأهل العلم قال كلامًا يخالف إخوانه من أهل العلم، العالم يزل، ما جعل الله العصمة إلا لأنبيائه، ولكن أتباع الأنبياء يحصل منهم ويحصل، والعالم إذا زل في الأمور العظام المتعلقة بالأمة يزل معه العالم؛ ولذلك قال أهل العلم في القواعد: زلة العَالِم زلة العَالَم(١)، ومن هنا يظهر لك نوع الابتلاء، أصحاب الكهف نجوا من ذلك فأثنى الله عليهم، دخلوا في الكهف، فابتلاهم الله ﷻ بقومهم، فهربوا من قومهم وأووا إلى الكهف، قالوا: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]، قضى الله عليهم أنهم ينامون هذه النومة الطويلة، ثم أيقظهم الله ﷻ أيقظهم ابتلاء لمن؟ لاحظ قصة الإيقاظ، ابتلاء لهم، وابتلاء لقومهم مرة أخرى، قال الله ﷻ في وصف ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾، فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هذا ربط للأمر بموضوع السورة، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ فلا يزالون يتذكرون الخوف الأول، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٩، ٢٠]، بعد الثلاثمائة وتسع سنين من النوم لا زال في ذهنهم الأمر الأول وهو أنهم مبتلين، وأنهم في ابتلاء عظيم مع هؤلاء القوم، قال الله ﷻ مرة أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يعني: أعثر الله قوم أصحاب الكهف بأصحاب الكهف، يعني: أرشدهم إليهم، ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ

(١) انظر هذا البحث في: الموافقات للشاطبي رحمه الله (٥/ ١٣٢-١٤١).

﴿ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾، فحتى العثور عليهم فيه ابتلاء هل تؤمنون بالآخرة أم لا تؤمنون؟، ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ اللام هنا يسميها العلماء: لام التعليل، يعني: لماذا أعثر عليهم؟ ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ جاء الابتلاء هنا، هل لما هؤلاء القوم المشركون رأوا ما أكرم الله به هؤلاء الفتية، وهم كانوا كم؟ أكثر شيء سبعة وثامنهم كلبهم، هؤلاء الفتية هل استفادوا منهم وقالوا: لننظر ماذا كانوا عليه، ماذا كانوا يؤمنون به؟ لا، حتى في هذه فشلوا في الابتلاء، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، يعني: ما زالوا مشككين، ثلاثمائة وتسع سنين، وقد رأوا معهم عملة هذه العملة لو عرضوها على أهل الخبرة لقالوا: هذه من ثلاثمائة سنة، لقالوا: هؤلاء أناس شباب ولتذكروا ان هناك أناس شباب هربوا من المدينة وفقدوا إلى آخره، ولتذكروا، إذًا هؤلاء حالة استثنائية، إذًا ما تتذكرون لم هربوا من قومهم؟ ما كانوا عليه من الدين، وما كانوا عليه من الهدى، وأن الله أكرمهم بهذه النومة العظيمة في هذه السنين ليبتليكم أنتم؟ ما استفادوا، ففشلوا في الابتلاء، فجاءهم الشيطان بحيلة، لا تؤمنون بما آمنوا به ولكن كرموهم، أعطوهم كرامة، ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، يعني: لا ندري عنهم، ولكن ربهم أعلم بهم، ولكن أهل النفوذ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، من هم الذين غلبوا على أمرهم؟ هناك ثلاثة أقوال لأهل العلم فيها[1]، والظاهر منها أنهم أهل النفوذ والقرار في وقتهم، قالوا: هؤلاء نستفيد منهم سياسيا، نستفيد منهم في وقتنا، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢١٦)، وزاد المسير (٣/ ٧٤)، وابن كثير (٥/ ١٤٧).

عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ يعني: أهل النفوذ والكبراء وأهل القرار ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، يعني: نبني عليهم مسجدًا، حتى يعرف الناس أننا غير مضادين لهم، بل أكرمناهم وبنينا عليهم مسجدا، فالعبرة في الحق ماذا كان عليه هؤلاء الفتية؟ ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ﴾ [الكهف: ١٤، ١٥]، يعني: أنتم أيها القوم على شرك فلماذا لم تتذكروا أن هؤلاء الفتية أهل توحيد وعبادة لله وحده، فتتبعونهم فيما اهتدوا به؟ أما تقيمون عليهم مسجدا فهذا أيضًا فشل في الابتلاء؛ ولذلك من أدلة أهل العلم على عدم جواز بناء المساجد على القبور هذه الآية؛ لأن الله ذمهم بقوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، إلى أن قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. هذا أول نوع من الابتلاء، هذه قصة، وأيضا في قصة الكهف قصة.

الابتلاء الثاني: ذكر الله ﷻ العدد، قال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ﴾ [الكهف: ٢٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**أَنَا مِنْ أُولَئِكَ الْقَلِيلِ الَّذِينَ اسْتَثْنَى اللَّهُ، كَانُوا سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**»[1] وأيد قول ابن عباس جماعة من أهل العلم؛ لأنه قال: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ﴾، وأما في السبعة قال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، هنا فيه ابتلاء، هذه الآية

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢١٩)، والبغوي(٢/ ١٨٦)، وابن كثير (٥/ ١٤٨).

ما صلتها بالابتلاء؟ الصلة عظيمة، وهي: الابتلاء بالمعلومات، الابتلاء بالجدل، الابتلاء بقال وقيل، هذا لا فائدة منه، الفائدة فيما فيه حجة، أما ما لا حجة فيه فتُبتلى فيه في الحياة؛ ولذلك قال الله ﷻ لنبيه ﷺ ناهيًا نبيه ﷺ أن يخوض في ذلك: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾؛ لأنه لا حجة في أيٍّ من ذلك، لم تحضرهم، لهم قرون قد انقرضوا، فأي حجة في أن عددهم كان كذا أو كذا؟ هذا واحد، الثاني أي فائدة من العدد؟

كل الآيات متصلة بموضوع الابتلاء.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]، هنا الفتنة بأي شيء؟ بزينة الحياة الدنيا، ليس هناك شك أن الحياة الدنيا زينة وابتلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧]، النجاة من هذا النوع من الابتلاء: أن تصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعدو عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، لا تترك الأخيار لأجل الدنيا، لأجل المال، لأجل المنصب، لأجل السمعة، لأجل الشهرة، بل نجاحك في الابتلاء أنه مهما جاءك في هذه الدنيا من هذه الأمور فإنك تصبر نفسك مع هؤلاء، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ الأعظم أنك ما تركت الدنيا، ولكن تطيع من أغفل الله قلبه وطبع عليه.

القصة الثانية: قصة صاحب الجنتين:

قال الله ﷻ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا

بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣]، هذه القصة في الابتلاء بالمال.

المال والمزارع والحسابات والثروة هذه ابتلاء، بل فتنة، كما قال النبي ﷺ في المال أنه فتنة أمته قال ﷺ: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ**»[1]، هذا الرجل كان له جنتين، فجر الله ﷻ خلالهما نهر، معجب بنفسه، ظن أن الله أعطاه هذه الأشياء وهذه المزارع الكبيرة الملتف بعضها على بعض لشيء فيه هو، إنه يستاهل كما يقولون، يستحق ذلك، قال الله ﷻ في شأنه: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ صاحب ضعيف لديه مزرعة ضعيفة، ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أصحاب المال والثروة إذا اعتزوا بمالهم وثرواتهم فقد خالفوا نهج الله ووقعوا في سوء عملهم، يعني: فشلوا في الابتلاء، ولم ينجحوا في ابتلاء الله لهم، ولكن: «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ**»[2]، ولكن أن يفتخر على الناس، من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦)، والنسائي في الرقائق من الكبرى (١١٧٩٥)، وأحمد (٢٩/ ١٥)، والبخاري في التاريخ الكبير(٧/ ٢٢٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٤٦٢)، وابن حبان (٨/ ١٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٣٢٥)، والطبراني في الكبير(١٩/ ١٧٩)، وفي الأوسط (٢/ ٢٢٥)، وفي مسند الشاميين (٢/ ١٧٨)، والحاكم (٤/ ٢٥٤)، والقضاعي (٢/ ١٢٤) ، والبيهقي في الشعب (١٢/ ٥٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٩/ ١٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٥٥)، وابن حبان (٨/ ٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥/ ٣٢٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٣٢٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥٩)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩١، ٩/ ٢٢)، والحاكم (٢/ ٣، ٢٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٤٦)، وفي الآداب (١/ ٢٢٠)، وابن أبي شيبة (٤/ ٤٦٧).

أعطاك المال؟ الله ﷻ، لو يقيس أي واحد من أصحاب الثروات جهده بما أفيض عليه من المال لم يكن هناك وجه مقارنة، فبذل قليلا وجاءه كثيرا، فإذًا هو ابتلاء وعطاء من الله تعالى، وقد قال هنا: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بم ظلم نفسه؟ بالكبر ورؤية النفس وعدم الاعتراف بالنعمة أنها لله، فابتلي ففشل في الابتلاء، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]، فقد وصل به الحد إلى أنه يظن أنه ملك الدنيا، وملك القوة حتى الساعة أصبح في شك منها، وهنا جاء نداء الإيمان الذي يكون مع الغني الصالح، ويكون مع الفقير الصابر، ويكون مع من أعطاه الله ما أعطاه، ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٧، ٣٨]، دله على أن مقولته السابقة شرك بالله ﷻ، ثم قال مرشدًا له: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩]، فتكون قد تواضعت لله ﷻ، ثم قال له: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف: ٣٩، ٤٠] .. إلى آخر الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ يعني: النصرة والمحبة، ﴿لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ [الكهف: ٤٣، ٤٤].

هذا رجل صاحب مال، لاشك الحياة كلها فيها أصحاب أموال يُختبرون، وأيضًا أصحاب قلة يُختبرون، أما أن يكون صاحب القلة يرى في نفسه حقدًا على صاحب الثروة، فهذا ليس من سمة أهل الإيمان، ولكن من

سمة الذين فشلوا في الابتلاء وأحبوا الدنيا؛ لأن ما حقد عليه إلا لأنه يحب الدنيا، وإلا فما عند الله خير وأبقى، وما أعطاك الله خير مما حرمك، هنا نجح الذي عنده مال قليل وضل من عنده مال كثير في الابتلاء، فما راعى الله حق رعايته، ولم ينسب الشيء إلى الله ﷻ، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، إذ يقول: أنا فعلت وفعلت وفعلت، وتاريخي.. وعملت وقلت.. لابد أن تقيد هذا كله بتوفيق الله ﷻ، وكلما نسبت الشيء لنفسك فلتنسبه إلى الله ﷻ أولاً، ثم إلى نفسك، حتى تنجح في هذا الابتلاء.

فسورة (الكهف) فيها كل هذه المعاني، والواجب إنكم إذا جاء يوم الجمعة وقرأتموها أن تتوقفوا عند هذه المعاني، فكل جمعة تظهر لكم أسرار القرآن وما فيه من الفوائد والعلوم التي تجعل القلب يتحرك في كل لحظة، ولكن لمن علم، والعلم من أعظم أثره على عبد الله ﷻ الذي علم إنه يكون حفيا بالقرآن العظيم.

القصة الثالثة: قصة موسى عليه السلام مع الخضر:

والخضر للعلماء فيه أقوال: هل كان نبيا أم كان وليا صالحا أجرى الله على يده كرامات؟ أقوال لأهل العلم.

سئل موسى عليه السلام كما في صحيح البخاري: «**أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟**»، موسى عليه السلام نبي من الأنبياء، سئل من أعلم أهل الأرض؟ فقال موسى عليه السلام: «**أَنَا**»، فأراد الله ﷻ أن يبتليه، وأن يعلمه وفي إعلامه له إعلام لنبي إسرائيل، وإعلام لأتباع الأنبياء أهل الإسلام إلى قيام الساعة، قال الله ﷻ له: «**بَلَى**،

لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ»، وهو الخضر، قال موسى عليه السلام: «**أَيْ رَبِّ وَمَنْ لِي بِهِ؟**»، أي: وما علامة ذلك، قال: «**تَأْخُذُ حُوتًا، فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، حَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ**»[(١)]، فالعلامة فقدان الحوت، والقصة كما تعلمونها، فنسيا الحوت ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٤، ٦٥]، موسى فهم أن هذا هو المقصود، قال له موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ ولاحظ أن العالم يتواضع، وهذا نبي من أنبياء الله وكليم الله، قال للخضر وهو لا يعلم من هو الخضر، بل قال الله له: «**بَلَى، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**»، قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٦-٦٨]، دائما الذي لا يصبر على الأشياء الذي ليس لديه معلومات كافية، بل يرى شيء حدث لا يحيط به، فيصبح يحكم عليه من الزاوية التي نظر إليها هو بحد علمه، وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر أبلغ درس في الابتلاء في هذا النوع، وخاصة لأهل هذا الزمان الذين يحكمون على الأشياء بظواهرها وهم لا يعرفون حقائق الأمور ولا مآلتها ولا عواقبها، ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ تذكر موسى عليه السلام أنه قال: أنا أعلم أهل الأرض، فلم يقل: ستجدني صابرًا، خشي أن يحرم حتى الصبر، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا﴾ فخرق السفينة، وقتل الغلام، والجدار بناه، في أول موضع ذكر الخضر لموسى فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢).

إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، وفي الموطن الثاني غلظ العبارة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، زاد (لَّكَ)، وفي الثالثة قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، ثم بيَّن له فظهر فضل علم الخضر على علم موسى ابتلاء لنا جميعا، في أن المرء مهما كان عنده من معلومات فلا يغتر بأنه علم كل شيء، وهذا خاصة لأهل العلم، وأهل الشهادات والذين يتابعون اليوم القنوات والمواقع يظن أن ما يقرأه هو كل شيء في الدنيا، لا، هناك شيء تتطلع عليه، وهناك شيء لم تتطلع عليه، وهناك شيء تعلمه بالقراءة، وهناك شيء لا يمكن أن تعلمه إلا بعمر وبسنين في فهم الأمور على حقيقتها؛ ولذلك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اعترض على الخضر؛ لأنه ليس عنده علم الخضر، قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، اعتراض، أنكر عليه، ولكن الصواب مع من؟ الصواب مع الحكمة، وليس مع ظاهر الأمر، الخضر خرق السفينة وكانت لمساكين يعملون في البحر، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر عليه، ولكن الصواب مع من؟ ابتلي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا بالعلم بظواهر الأمور، ولكن الصواب كان مع من معه الحكمة والعلم الإلهي في ذلك، وليس هذا خاص بالعلم الإلهي أو اللدني ولكن أيضًا الحكمة والعلم والتجارب في منازعة الصغير للكبير، أيضًا في الغلام قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، وفي الجدار قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، يعني: لا يضيفونكم ولا يكرمونكم ولا يعطونا ثم تبني لهم جدارًا، ظاهر الأمر أن العطاء ببناء الجدار أعطى، الخضر بنى لهم جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، فهذا غريب هم أبوا أن يضيفوك وأنت تبني لهم

جدار، هذه فيها الفرق، لابد أن تكون صاحب تأمل وحكمة، الفرق ما بين الظواهر والحقائق، فهناك فرق بين الظواهر والحقائق فلا تغتر دائما بالظواهر سلبا أو إيجابا حتى توافق الحقيقة؛ ولذلك أجابه عن الأسئلة حتى قال له في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، قال أحد كبار أهل العلم في هذه القصة(١):

تَسَلَ عَن الْوِفَاق فَربِنَا قَدْ	حَكَى بَين الْمَلَائِكَة الخِصَامَا
كَذَا الْخضر المكرم والوجيه المكلم	إِذْ ألم بِـــــهِ لمامـــــا
تكدر صفو جمعهمَا مرَارًا	فعجل صَاحبُ السِّر الصَّرَاما
ففارقه الكليم كليم قلب	وَقد ثَنَا على الْخضر الملاما
وَمَا سَبَب الْخلاف سوى اخْتِلَاف	الْعُلُوم هُنَاكَ بَعْضًا أَو تَمامًا
فَكَانَ من اللوازم أَن يكون الإِلهُ	مُخَالفا فِيهَا الأناما
فلا تجهل لها قدرًا	وخذها شكورًا للذي يحيي الأناما

قوله: (تكدر صفو جَمعهمَا مرَارًا) يعني: اعتراضات موسى على الخضر تكدر الصفو.

قوله: (فعجل صَاحب السِّرّ الصَّرَاما)، يعني: الخضر عجل الصرام فقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، لقد انتهينا، تكفي ثلاث اعتراضات.

---

(١) انظر: في ذلك الأبيات اللطيفة التي نظمها ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق (١/ ١٩٩).

قوله: (ففارقه الكليم) يعني: موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله:

وَمَا سَبَب الْخلاف سوى اخْتِلاف الْعُلُوم هُنَاكَ بَعْضًا أَو تَمَامًا

يعني: لماذا يختلف اثنان، هذا يعاند هذا، وهذا يختلف مع هذا، الولد يقول لأبيه كذا، والأب يقول له: لا، اعمل كذا فإن المصلحة في كذا، وهو يقول: لا، فسبب الاختلاف: أن الصغير أو صاحب المعلومات الأقل أو صاحب المعلومات الأقل أوغير الرصينة لا يملك القدرة على اتخاذ القرار الأصوب؛ لأن اتخاذ القرار الأصوب هو مبني على مجموعة أمور منها: مجموعة معلومات متنوعة، متعددة المصادر، ومتعددة المصالح، متعددة الرؤيا للحاضر وللمستقبل، قال الشيخ الحافظ ابن الجوزي: **(كان شيخنا أبو عبد الله يقول: لَوْ سَكَتَ مَنْ لا يَعْلَمُ سَقَطَ الِاخْتِلافُ)**[1]، ويقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«الْعَلْمُ نُقْطَةٌ كَثَّرَهَا الْجَاهِلُونَ»**[2]، يعني: لو سكت الذين لا يعلمون لقل الخلاف، ولكن ما الذي يكثر الخلاف؟ الذين لا يعلمون، يأتي أناس ويعجب بنفسه، ويقول ويقول وينقد ويتكلم ويفتي ويعطي وهو علمه محدود، ولكن ابتلى الله الناس بوجود هذا النوع، فلابد أن يعالجوا بالعلم، أن يعالجوا بالرد المحكم بالحكمة، واليقظة كما علمتنا هذه الآيات في الابتلاء في الاختلاف في المعلومات؛ فائدة الدرس هنا وله فوائد كثيرة

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٨٣).

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٨٧): (العلم نقطة كثرها الجاهلون، ليس بحديث بل من كلام بعضهم)، وفي سبل السلام (٤/ ١٧٨): (وفي كلام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العلم نقطة كثرها الجهال).

في الابتلاء، لكن أحد هذه الفوائد الاختلاف في المعلومات، لذلك هناك واحد يحكم على الأشياء وهو يرى بهذا الشكل فرؤيته محدودة، وآخر يرى أوسع، فلابد أن يقدر في حس المسلم حجم علمك، وحجم علم العالم، أو علم القيادة، أو علم ولي أمرك، أو علم صاحب العلم.

ففي قول الشاعر هنا:

وَمَا سَبَب الْخلاف سوى اخْتِلاف الْعُلُوم هُنَاكَ بَعْضًا أَو تَمامًا

هنا نلحظ ملحظ آخر: يعني قد يكون جاهلا ويعاند عالما، وقد يكون لا بل جهل بعضا، ولكن ليس عنده علم بكل شيء، فهو عنده معلومات ويتحمس لها ويريد ويريد، ولكن في النهاية أنت ابتليت بذلك، وابتليت الناس بهذا الأمر.

فإذًا من ابتلي بقلة علم، فعليه أن يعلم حجم نفسه فلا يتكلم إلا بما يعرف ويدين لذي الفضل بفضلهم، ولذي العلم بعلمهم، ولذي الرأي برأيهم، ولذي الحكمة بحكمتهم، ولذي القيادة بقيادتهم؛ ولذلك جاء النبي ﷺ فحذرنا في آخر الزمان من فتنة، هذه الفتنة قال فيها ﷺ: «**وَإِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ**»[1]، لا أحد يسلم لأحد، اثنان يكونون ضد واحد في الرأي، ثم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وأحمد (١/ ١٧٨)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١/ ٦٣)، وابن وضاح في البدع (٢/ ١٤٩)، والمروزي في السنة (ص١٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢/ ٢١١، ١٤/ ١٩٠)، وابن حبان (٢/ ١٠٩)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢٠)، وفي مسند الشاميين (١/ ٤٢٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٧)، =

يختلفون ويصبح لهم رأيان ويصير كل واحد ضد الآخر، هذا خلاف ما أمر الله به من الاجتماع في العلم؛ ولذلك جاء في القرآن في وصف هذه الأمة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، المهم أن لا يكون عندك أثرة في الرأي، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، اليوم ظاهرة بداية لهذه الفتنة العظيمة أن يعجب كل ذي رأي برأيه، وبخاصة مع هذه القنوات التي تتيح للإنسان في وسط بيته أن يكتب رأيه ويتفاخر يقول: أنا لي ألف متابع، لي ألفين.. وهكذا، أنت ابتليت فليس الصواب بكثرة المتابعين، الصواب هل أنت على حق أم لا، فأعظم شيء أن لا تنظر في الليالي ذوات العدد إلى تكثير من يتابعك، أو تكثير من يمشي معك في موقعك أو في حساباتك، الذي تسعى لذوات العدد محاسبة بينك وبين الله هل أنت على صواب أم لا، هذا الابتلاء العظيم الذي دلتنا عليه هذه الآيات.

قال هنا:

فَكَانَ من اللوازم أَن يكون الإلهُ مُخَالفا فِيهَا الأناما

فَلَا تجْهَل لَهَا قدرا وخذها شكُورًا للَّذي يحيى العظاما

من اللوازم إذًا أن لا تعترض على قدر الله، يأتي واحد ويقول: لم أنا هكذا، فقد ابتلاني الله أنا قصير وفلان طويل، أنا فقير وفلان غني، أنا ابتلاني الله فقد تزوجت وطلقت وأعيش في نكد.. إلى آخره، لا تنظر إلى أفعال الله فيك؛ لأن أفعال الله فيك لاتعلم حكمتها، ولكن انظر إلى ما

= وفي شعب الإيمان (١٠/ ٥١، ١٢/ ٢٠١)، وفي الآداب (ص ٦٢)، وفي الاعتقاد (ص٢٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠، ١٦٠)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٤٧).

يجب عليك في فعل الله فيك، ليجب عليك ما هو؛ لأن هذا هو النجاح في الابتلاء، ولكن الاعتراض لا، فعلمك محدود، وعلم الله ﷻ كلي وجزئي والله بكل شيء عليم، قال:

فَكَانَ من اللوازم أَن يكون الإلهُ مُـخَـالـفـا فِيهَـا الأنـامـا

أكيد أن هناك أشياء من قدر الله ﷻ لن تفهمه؛ لأن علم الناس جميعا في علم الله تعالى هو كمخيط إبرة غرزت في البحر فخرج منها قليل ماء، فهذا هو العلم الذي بيننا جميعا، ولكن علم الله ﷻ واسع واسع، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، سبحانه وتعالى.

إذًا كن مع القدر ومع القضاء في التسليم له والنظر فيما يجب عليك فيه، لاالاعتراض عليه؛ لأن المعترض على القدر هو معترض على الله ﷻ، وكذلك المعترض على القدر يدخل فيه الحاسد، قال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فإن الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كما تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ**»(١)، لماذا الحسد يأكل الحسنات؟ لأن حقيقة الحاسد أنه يحسد فلانا لما أعطاه الله إياه، الله هو المعطي هو المفضل ﷻ، فضل بعض الناس على بعض، بل فضل بعض النبيين على بعض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، فتن الله الفقير بالغني، والغني بالفقير، والصحيح بالمريض، والمريض بالصحيح، والملك بالشعب، والشعب بالملك، والناس جميعا بعضهم ببعض، ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٤١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٦٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ١٢٤) من حديث أبي هريرة ﵁.

آخر قصة في هذه السورة، والحديث ذو شجون: قصة ذي القرنين:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: ٨٣]، يعني قصة أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وخلق آدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]، وما فيها من الابتلاء، وكذا قصة موسى والخضر، ثم قصة ذي القرنين وبناء السد، فما العلاقة بينهم جميعا، ما علاقة هذه الآيات بعضها ببعض؟ كلها في إعطاء الدرس الكبير كيف تنجح في الابتلاء بحسب اختلاف الناس، هذا ابتلاء الملوك، قصة ذي القرنين ابتلاء الملوك، ابتلاء ذوي المسؤولية، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣، ٨٤]، من هو ذو القرنين؟ ذو القرنين كان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، ملك من الملوك أعطاه الله من كل شيء سببا، يعني من كل شيء علما، فيعلم أشياء كثيرة: في القوة، وفي السياسة، وفي البناء، وفي الحيل العسكرية، وفي تجهيز الجيوش، وفي الحصار، وفي كيفية التعامل مع الأعداء، فقد أعطاه الله من كل شيء سببا، يعني علما على الراجح[1]، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]، يعني: فأتبع طريقا في مسألة بالعلم الذي علمه فيها، ومن المعلومات التي عنده علم الجغرافيا، وطرق الأرض وما فيها، ذو القرنين ملك صالح موحد جاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد ليعظم دين إبراهيم الخليل عليه السلام في

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩)، وزاد المسير (٣/ ١٠٥)، وابن كثير (٥/ ١٨٩-١٩٠).

الناس، فنشر التوحيد، وأحبط للشرك مناره، بدأ يمشي في الأرض، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هنا اختبار الملك، اختبار المسؤولية، ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، خيَّره الله ﷻ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ يعني: بالقتل أو الحبس أو التعزير، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ تعتقهم أو تعطيهم عطاء واسعا وتتخذ فيهم حسنا، فقد خيَّره الله ابتلاء واختبارا له فيما أعطاه، فنجح في الاختبار والابتلاء، فأجاب قائلا: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾يعني: بالشرك، وبما دونه، فكل عقوبة بحسبها، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾بأنواع العذاب: إما بالقتل، او بما دونه، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: الحياة الحسنة والعطاء، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]، أيضًا سيخاطب بالخطاب الطيب والجيد، فأعطى الله هذا مثلا لمن ابتلاهم الله ﷻ بالمسؤوليات عظمت أو صغرت:

أولاً: أن يتواضع، فليس فوق حكم الله ﷻ حكم، فالأمر لله، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

ثانيًا: أن لا يحكم رأيه فيما لله فيه أمر، فلا مجال فيه للاجتهاد؛ لأن هناك مسائل مجمع عليها ومنصوص عليها بأمر الله ﷻ، أو بوحيه لكتابه، أو بإجماع أهل الحق عليها، فهذه لا مجال فيها للاجتهاد، وهناك مسائل فيها مجال للاجتهاد يعني في الشريعة الإسلامية: إما لورود النص فيه مجال للاجتهاد أو لاختلاف العلماء أو لأشباه ذلك، فهنا يتحرى الحق بما يرى فيه المصلحة والاستعداد للحاضر والمستقبل.

فبيَّن الله ﷻ أن ذا القرنين نجح في الابتلاء؛ ولذلك بعد قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨]، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: ٨٩]، يعني: ذهب لطريق آخر، يعني: الله ﷻ أعطاه فلما جاوب بهذه الإجابات، وفعل هذا الفعل الذي حمده الله تعالى عليه أعطاه أنه ذهب إلى طريق آخر فانتصر فيه؛ ولذلك سمي ذا القرنين وأصح الأقوال فيها أنه قرن الشمس في مشرقها ومغربها؛ لأنه ملك أقصى ما تصل إليه الشمس في عرف الناس آنذاك، وأقصى ما تغرب فيه الشمس، فأثنى الله ﷻ عليه بذلك(١).

الخلاصة مما ذكر: نحن بحاجة أمام القرآن العظيم أن نقبل عليه، وأن نجعله الحجة في ألستنا، فطالب العلم الذي لم يحفظ القرآن عليه أن يحفظ القرآن، فإنه الأنس والهدى والرشاد، أنسك في خوتك، وفي صلاتك، وإذا تكالبت عليك الأمور، فالقرآن هو السلوى والصلة بالله ﷻ هي الجنة، القرآن العظيم فيه العلم، علمه من علمه وجهله من جهله؛ ولذلك أثر عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في آخر حياته في السجن، وقد سجن كسجن أصحاب الكهف بسبب التوحيد: (**ندمت أنني لم أجعل حياتي كلها في تفسير القرآن**)(٢)؛ لأنه وجد مع الخلوة زيادة وزيادة في نعمة الله

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٣٧١)، وزاد المسير (٣/ ١٠٦)، وابن كثير (٥/ ١٩٠).

(٢) انظر: العقود الدرية (ص ٤٣-٤٤) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (... ثمَّ لما حبس فِي آخر عمره كتبت لَهُ أَن يكْتب على جَمِيع الْقُرْآن تَفْسِيرا مُرَتبا على السُّور، فَكتب يَقُول إِن الْقُرْآن فِيهِ مَا هُوَ بَين بِنَفسِهِ، وَفِيه مَا قد بَينه الْمُفَسّرُونَ فِي غير كتاب، وَلَكِن بعض الْآيَات أشكل تَفْسِيرهَا على جمَاعَة من الْعلمَاء، فَرُبمَا يطالع الْإِنْسَان عَلَيْهَا عدَّة كتب وَلَا يتَبَيَّن لَهُ تَفْسِيرهَا، وَرُبمَا كتب الْمُصَنّف الْوَاحِد فِي آيَة تَفْسِيرا ويفسر غَيرهَا بنظيره، فقصدت تَفْسِير تِلْكَ الْآيَات بِالدَّلِيلِ؛ لِأَنَّهُ أهم من غَيره، وَإِذا تبين معنى آيَة تبين مَعَانِي نظائرها، وَقَالَ: **قد فتح الله** =

عليه بالقرآن، فاحفظوا القرآن، والذي أوصيكم به ابدأوا بحفظ سورة (الكهف) لماذا؟ لأن حفظها يساعدكم على قراءتها يوم الجمعة قبل الصلاة إذا بكرتم إليها إن شاء الله، أو بعد العصر في ساعة من ساعات الإجابة، وتكرارها يوم الجمعة بعد أن تحفظها يشجعك لحفظ سور أخرى، ثم أيضًا احرص على التدبر في القرآن وقراءة التفاسير؛ لأن القرآن إذا قرأته بتدبر بعد العلم تجد له أنس عجيب، حتى بعض الآيات تجلس تكررها ليلة كاملة من عجب ما فيها من العلم، وما تفتح لك من رؤيا في أمور معاصرة حتى في حياتك الشخصية أو في حياة بيتك أو في العالمين بأجمعهم.

أسأل الله ﷻ أن يوفقنا وإياكم لما فيه الخير والسداد، وأن ينفعنا بالقرآن، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن يذكرنا منه ما نسينا، وأن يزيدنا علما وعملا، وأن يجزي خيرًا كل من دعا إلى هذه المحاضرة، وأعان عليها، وان يوفقنا وإياكم إلى ما فيه الرشد والسداد، أسأل الله ﷻ أن يوفق ولاة أمورنا لما فيه الرشد والسداد، وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يقينا شر الزلل في القول والعمل والرأي إنه جواد كريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد.

= عَليّ فِي هَذِه الْمرة من مَعَاني الْقُرْآن، وَمن أصُول الْعلم بأَشْيَاء كَانَ كثير من الْعلمَاء يتمنونها، وندمت على تَضْيِيع أَكثر أوقاتي فِي غير مَعَاني الْقُرْآن أَو نَحْو هَذَا، وَأرْسل إِلَيْنَا شَيْئا يَسِيرا مِمَّا كتبه فِي هَذَا الْحَبْس، وَبَقِي شَيْء كثير فِي مَسْأَلَة الحكم عِنْد الْحُكَّام لما أخرجُوا كتبه من عِنْده وَتُوفِّي وَهِي عِنْدهم إِلَى هَذَا الْوَقْت نَحْو أَربع عشرَة رزمة، ثمَّ ذكر الشَّيْخ أَبُو عبد الله مَا رَآهُ ووقف عَلَيْهِ من تَفْسِير الشَّيْخ).

الأسئـلـة

سؤال: الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: ٩]، لم أفهم مرارا ما وجه التعجب هنا؟

الجواب: عجبٌ في مخالفتهم لقومهم وهم فتية سبعة، أو عدد قليل، وعجبٌ في تركهم لقومهم ودنيا وثراء قومهم وذهابهم إلى الكهف، وعجبٌ في نومتهم في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، وعجبا في بعثهم، وعجبٌ في الإعثار عليهم، وعجبٌ في كل قصة أصحاب الكهف، فهي من آيات الله، ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، فكل أحوالهم كانت عجبا.

سؤال: كيف يستطيع الإنسان أن يعيش في هذه الدنيا مع الجمع بين زينة الحياة الدنيا والزهد فيها، وهل يحصل تعارض بينهما، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: الزهد أفضل، الزهد في زينة الحياة الدنيا أفضل بإجماع أهل العلم، وتفسير الزهد في الدنيا اختلف أهل العلم فيه، وفسره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: «**الزُّهْد تَرْك مَا لا يَنْفَع فِي الْآخِرَة**»(١)، وهذا له معنى واسع يشمل طبقات من الناس، لكن الدنيا عند المؤمن في يده لا في قلبه، والمذموم أن يكون حب الدنيا في القلب، ولكن إن أرادها ظاهريا وأحبها متعة فيما أباح الله ﷻ وجعلها في يده لا في قلبه وكان قلبه آويا إلى الله ﷻ، ومهاجرا إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه على خير، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم، فقد سئل

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥)، ومدارج السالكين (٢/ ١٠)، وعدة الصابرين (٢٢٦).

الحسن البصري الإمام الزاهد المعروف من سادات التابعين، سئل رَحِمَهُ اللَّهُ فقيل له: «**ما بال الصحابة أعظم أجرًا وأفضل، وقد رأينا ممن بعدهم من هو أكثر تعبدًا، وزهدًا؟**»، فقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أُولَئِكَ تَعَبَّدُوا وَالآخِرَةُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ تَعَبَّدُوا وَالدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ**»، يعني: الرجل يقف في الصلاة مع الرجل كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي، وَلَعَلَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا عُشْرُهَا، وَتُسْعُهَا، أَوْ ثُمُنُهَا، أَوْ سُبُعُهَا**»(١)، رجل بجانب رجل واحد نصف صلاته، وواحد كاملة صلاته، والآخر عشر صلاته، هل هو لأجل اللهو فقط، أو لأنه سرح في صلاته أو ذهب يفكر في أشياء ولم يخشع في صلاته، ليس هذا فقط، ولكن من أسباب التفضيل: خشوع القلب؛ لأن القلب الذي ليس فيه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ ليس كالقلب الذي فيه أشياء وأشياء وأشياء؛ ولهذا من محاسن الإشارات في تفسير الشيخ تقي الدين وتلميذه ابن القيم على حديث: «**إِنَّ المَلَائِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلَا صُورَةٌ**»(٢)، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**إِذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ الْمَخْلُوقُونَ يَمْنَعُهَا الْكَلْبُ وَالصُّورَةُ عَنْ دُخُولِ الْبَيْتِ. فَكَيْفَ تَلِجُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَحَبَّتُهُ وَحَلَاوَةُ ذِكْرِهِ، وَالْأُنْسُ بِقُرْبِهِ، فِي قَلْبٍ مُمْتَلِئٍ بِكِلَابِ الشَّهَوَاتِ وَصُوَرِهَا؟ فَهَذَا مِنْ إِشَارَةِ اللَّفْظِ الصَّحِيحَةِ**)(٣)؛ لأن الكلب منه الكلب يعني الأهواء، والصورة

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦١٤، ٦١٥)، وأحمد (٣١/ ١٧١)، والبزار في مسنده (١٤٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ١٨٩، ٢١١، ١١/ ٥٠١)، وابن حبان (٥/ ٢١١) وابن أبي شيبة (١/ ٢٩٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢/ ١٢٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٢٦، ٥٩٥٨)، ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٩١)، والمستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٧٠).

صورة، وهذان الأمران هما اللذان بهما يضل العباد: إما بالشهوات، وأعظمها الصور وما تؤدي إليه، وإما بالشبهات وهي الأهواء، والكلب منه الكَلَب، يعني الاستيعار في البدعة والاستيعار في الشبهة، والاستيعار في الأهواء، وهذا الذي يمثل أمامنا اليوم؛ لذلك الدنيا في يد المؤمن لا عتب فيها، إذا كان القلب مع الله ﷻ، فهو على خير وإلى خير، «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ**»[1]، لكن أن تكون الدنيا في قلب المسلم يفضلها على الآخرة فهذا مذموم بحسبه ويأثم بحسب الحال، أشدها أن يكون كصاحب الجنتين يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: ٣٦]، وأقل منه من لا يأبه للآخرة ويكون حتى العبادات يعملها بصورة غير مرضية، ويكثر من المحرمات، فهو ما بين حسنات وسيئات؛ ولذلك ليس في الشرع ذم للمال بحسبه، ولا مدح للفقر بحسبه، وإنما الذم والمدح للصلة بالله ﷻ، رغبة ما عنده ﷻ، وخشوع القلب، وتوجه القلب له ﷻ وحده، والله أعلم.

سؤال: ما الموقف الشرعي تجاه هذه الفتنة المحيطة بنا وفقكم الله، وموقف الشباب خاصة منها؟

الجواب: كان حذيفة رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ عن الفتن، يقول حذيفة رضي الله عنه: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**»، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ**»، قال: «**وَهَلْ بَعْدَ**

(١) سبق تخريجه (ص١١).

ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالَ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**»، قال: «**وَمَا دَخَنُهُ؟**» قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، يعني: مرات كلامهم على السنة، ومرات كلامهم ينكر ليس على السنة، قال: «**فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**» قَالَ: «**نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، قال: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟**» فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»، قال: «**فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟**» قَالَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، قال: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟**»، قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[1]، هذا مخرج عظيم للشاب المسلم في هذه المدلهمات.

المسألة بسيطة سهلة شرعا، وهي: أن تلتزم السنة وإمام المسلمين وجماعتهم، هي موجودة الزمها، أنت على نور، وقد نجوت من الفتنة، والتزمت بالسنة ووفقك الله للصالح كما أوصى النبي ﷺ.

أعجبت برأيك ودخلت مع أهل الأهواء فقد دخلت في الفرق فقد دخلت في الفرق التي نهى النبي ﷺ حذيفة رضي الله عنه عنها، وكذا نهى المسلمين عنها؛ ولذلك المخرج دائما إذا اشتبه عليك شيء أن تنظر في السنة، وتسأل صاحب سنة، من يريد الله ﷻ والدار الآخرة؛ لأنك لا تأمن إذا سألت من يريد الدنيا، ولو كان هو منتسبا للخير، أو داعية، ولكنه يحب الدخول في الأمور الدنيوية والأمور السياسية بكثرة، ويحب الدخول فيما ليس له ولا هو في فنه ولا في اختصاصه، لا تأمن أن يعطيك شيئا تضل به؛ ولهذا الفتنة نائمة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤).

لعن الله من أيقظها، سهل الواحد أن يتكلم ولكن إذا وقعت الفتنة لاترفع صعب رفعها.

أيضًا حذيفة رضي الله عنه سأله عمر رضي الله عنه قال: «**أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ الفِتْنَةِ؟**»، فقال حذيفة رضي الله عنه: «**لَيْسَ عَلَيْكَ بِهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَأْسٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابٌ مُغْلَقٌ**»، يعني: لا تخاف أنت في حياتك لا تخاف فإن بينك وبين الفتن باب مغلق، عمر رضي الله عنه علم أن حذيفة رضي الله عنه ما قال باب مغلق يعني النبي ﷺ هو الذي قاله، فهذا الباب مغلق معناه أنه يمكن أن يفتح، فسأله: «**فَيُكْسَرُ البَابُ أَوْ يُفْتَحُ؟**»، قَالَ: «**لاَ، بَلْ يُكْسَرُ**»، قَالَ: «**فَإِنَّهُ إِذَا كُسِرَ لَمْ يُغْلَقْ أَبَدًا**»[(١)].

فإذًا الفتنة إذا انكسر بابها انتهى، وقعت الدماء، ووقعت الفتن وذهب من الناس كل خير؛ ولذلك يا إخوة أوصوا من حولكم وأنفسكم ومن سيأتون بعدكم لا شيء يعادل وحدة الناس على شرع الله ﷻ، والتفاف الناس على حب رسوله ﷺ، وعلى السمع والطاعة لولاة أمورهم، هذه لا يغل عليها قلب امرئ مسلم كما جاء في الحديث «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[(٢)]، يعني طيبة بها النفس، حتى ولو كان فيه أثرة، يعني الآن كل الأمور في الأحاديث النبوية أجاب عنها ﷺ وبينها للأمة،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٥)، و مسلم (١٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١/ ٦٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، وأبو يعلى (١/ ١٨٩)، والطبراني في الصغير(١/ ١٨٩)، والأوسط (٣/ ٢٥٦)، وفي الكبير (٢/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ١٦٢).

ولكن نسيت أو لم تعد تذكر، بايع الصحابة ﷺ على السمع والطاعة في السر والعلن وفي المنشط والمكره، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: «**دَعَانَا النبي ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فقال فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، في مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إلا أَنْ ترو كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ من اللَّهِ فيه بُرْهَانٌ**»(١)، وقال ﷺ: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»(٢)، البطولات ضد الأعداء، ولكن لاتعمل بطولات على أهلك وأحبائك وقومك وعلى أسرتك وأولادك فتفرق فتقع الدماء؛ لأنه ليس بعد الاجتماع إلا الفرقة، والفرقة إذا جاءت جاءت الأحقاد، وإذا جاءت الأحقاد بعدها المواجهة حتميا؛ ولذلك كل داع للفرقة كل داع للتثبيط عن ولي الأمر، وللبعد عنه، ولكثرة الانتقاد عليه، ولعدم سلوك المسلك الشرعي في النصيحة، هذا يريد الفرقة، إذا حدثت الفرقة تحدث الأحقاد، وإذا حدثت الأحقاد يقع السيف، وقد يكون الأمر أكثر من ذلك، بلادكم بلاد المملكة العربية السعودية شاء الله لها أن يكون فيها اعظم قوة على الأرض، أعظم قوة ورصيد على الأرض وهي الكعبة، مكة، هذه أعظم قوة، الخوف من المسلمين من قبل جميع أعداء الإسلام هو الخوف أن يجتمعوا حول الكعبة وأن يعظموها، في هذا العصر الحاضر ترون كيف سخر الله ﷻ الأسباب بفضله ونعمته، ثم بتوجيه ملوك المملكة العربية السعودية للعناية بالحرمين أشد عناية، العناية بالحرمين ليست بناء مسجد

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٥)، ومسلم (٤٢) (١٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

فقط، بناء الحرمين وخدمتها فقط، هي في ضمنها تيسير السبيل للوصول إلى الحرمين من ملايين المسلمين، وملايين المسلمين إذا جاءوا للحرمين تتغير نفوسهم، وسوف يكون هناك نهضة إسلامية، وسوف يكون هناك شعور إسلامي عظيم، وسوف يكون هناك دعوة إسلامية تنتشر، اليوم نحن بحكم مسؤوليتنا نرى من أعظم المؤثرات على المسلمين هو مشاهدة الكعبة والطواف وقراءة أئمة الحرم المكي، ومشاهدة المسجد النبوي، وهذه السكينة التي حولها، أعظم قوة عندنا الكعبة، فإذا حصل شيء فإنه سوف تحصل فرقة عظيمة في الناس، يفقدون معها دينهم، وقربهم من كعبتهم ومسجد نبيهم ﷺ، لاتظنون أيها الإخوة واذكروا كلمتي هذه إن كنا أحياء أو لم نكن، يذكر من يحيا ولا يظن أن أعداء الإسلام سعيدون بوحدتكم في المملكة العربية السعودية، ولا تظن أن أعداء الإسلام سعيدون بقوة الدولة وخدمتها للحرمين الشريفين، ولا تظن أن أعداء الإسلام سعيدون بإنفاق الدولة هذه الأموال على الإسلام، وعلى الحرمين الشريفين، وعلى المشاعر المقدسة وعلى المسلمين، لا تظن أنهم سعداء بذلك، بل هم شرقون بذلك، ولكن هذا واجبنا ولابد أن نؤديه بالحكمة، فهناك من يؤدي الواجب بغير حكمة بيخسر، ولكن من يؤدي الواجب بحكمة يكسب ويضمن الاستمراية، ويضمن خدمة المسلمين والأجيال المتعاقبة، وهذا يعطيك أن حبك للإسلام ولهذه الدعوة ولقوة الإسلام يكون بأسباب، ومن أسباب هذه المحبة التي في قلبك أن تحافظ على وحدة هذه البلاد؛ لأن وحدتها فيه قوة للمسلمين جميعا، بل وللإسلام، بل وللكتاب والسنة، وللتوحيد، وللحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، رأينا على مستوى

معلن وعلى مستوى غير معلن بحكم مسوؤليتنا ما نكون معه على قناعة بأننا إذا ما كنا جميعا على يقظة وفهم، فإن هذه البلد سيؤثر عليها أبناؤها، وإذا لم نكن على يقظة فسيؤثر عليها بعض أبنائها في التفريق بينهم، ولذلك ثبت في صحيح مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[1]، وهذه صنعة الشيطان، التحريش بين المسلمين، بين المؤمنين، ولذلك ترى أن الفتن تبدأ بالتحريش، فيبدأ يحقن النفوس كراهية، الغلط يعالج، الجريمة يعاقب أصحابها، الفساد يلاحق أهله، ولكن ما يسبب تصدع في الوحدة، يجب أن نسعى إليه بالطرق الصحيحة عبر ولاة الأمور، وهم حريصون على الخير، وعلى إحقاق الحق بحسب استطاعتهم، وبحسب ما يوافق الحكمة ومقتضيات الأمور، ولكن دورنا ما هو؟ دورنا في اثنتين:

الأول: أن نحافظ على هذه الوحدة التي حصلت بالتوحيد، وبالالتفاف على ولي الأمر، وبمحبتنا لبعضنا البعض، في الشمال هنا في عرعر، وفي جنوب المملكة، وفي الرياض وفي مكة، كلنا -ولله الحمد- إخوة متحابين لا عداوات، الكل على هيئة واحدة، وعلى محبة واحدة، فرق الله بين الناس في أشكالهم وفي صورهم ومعطياتهم، ولهجاتهم، ولكنهم على قلب واحد ولله الحمد، فلنحافظ على هذا الأمر.

الثاني: أن لا نسمح لمريدي الفرقة أن يبثوا فرقتهم بيننا، وإلا فهي مسؤوليتنا، ومسؤولية أهل هذا الزمان تجاه أبنائنا وبناتنا، وتجاه الأجيال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢).

المقبلة إذا حصل شيء من النقص، فإنه بسبب تقصيرنا في أداء الواجب، أسأل الله ﷻ أن يوفقني وإياكم ويجعلنا ملتزمين بالسنة ونهج السلف الصالح، اللهم أمتنا على السنة والإسلام إنك على كل شيء قدير.

فهرس الموضوعات